

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْظَاوِيِّ

غير مرخصة للطباعة

المحور السابع

فقه الأمة ودعوتها وصحوتها وحركتها الإسلامية

١٢٣

الحل الإسلامي فريضة وضرورة

الإمام يوسف القرظاوي

غير مرخصة للطباعة

من الدستور الإلهي للبشرية

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١].

﴿ إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥].

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». متفق عليه.

عن ابن عمر قال: صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع، فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تُعَيِّرُوهم ولا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ». رواه الترمذي.

نسخة مجانية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أحمدك اللهم، وأصلي وأسلم على محمد عبدك ورسولك، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه.

(أما بعد)

فهذا هو الجزء الثاني من سلسلة «حتمية الحل الإسلامي» التي وعدت بها القراء مع صدور الجزء الأول: «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» منذ ثلاث سنوات. ثم تأخر ظهور هذا الجزء إلى اليوم، لظروف شغلتنني عن إكماله.

والواقع أنني كتبت معظم فصول هذا الجزء منذ نحو عشر سنين، ونشرت بعضها في مجلة «الشهاب» البيروتية الغراء، وبقي متوقفاً على الفصل الأخير منه، الذي كتبت منه بعضاً وبقي بعض، حتى شرح الله له صدري أخيراً، ويسر لي كتابته، في وقت كنت أشد ما أكون فيه ازدحاماً بالعمل الرسمي. ولكن الله إذا ما أراد أمراً يسر له أسبابه.

وفي هذا الجزء تناولت عدة فصول أو أبواب:

الأول منها: يتحدّث عن ضرورة التغيير، بعد أن تحقّق فشل الحلّين السابقين: الليبرالي والاشتراكي، وثبت أنّ البديل الفذّ هو الحلّ الإسلامي.

والثاني: يتحدّث عن «معالم الحل الإسلامي» المنشود، وخطوطه العريضة في مختلف مجالات الحياة: الرُوحية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية.

والثالث: يتحدّث عن شروط الحل الإسلامي التي يجب توافرها، ليكون حلًّا إسلاميًا صحيحًا، من ضرورة الدولة المسلمة، والاستمداد من مصادر الإسلام وحدها، والأخذ بالإسلام كله، والإصرار على عنوان الإسلام، واتخاذها غاية تُقصد لا وسيلة تُمتطى!

والرابع: يتحدّث عن مكاسبنا من وراء الحلّ الإسلامي، فبه نحقق وجودنا الإسلامي، ونُقيم التوازن في حياتنا، ونعالج مشكلاتنا من جذورها، ونكوّن الإنسان الصالح الذي هو أساس المجتمع الصالح، ونجدّد روح القوّة في أمتنا، ونحفظ وحدتها وإخاء بين أبنائها، ونجمع كلمة العرب والمسلمين حول راية الإسلام، ونُحقّق الأصالة والاستقلال الفكري والعقائدي لأمتنا، إلخ.

والخامس: يتحدّث عن السبيل إلى الحلّ الإسلامي ما هو؟ وعرض تصورات فئات شتّى لهذا السبيل، ومناقشتها بالمنطق والدليل، انتهاءً إلى الطريق الأمثل، بل الفذّ، كما أراه، وهو سبيل الحركة الإسلامية الشاملة الواعية: وأعني بها العمل الإسلامي الجماعي المنظم المخطّط، شارحًا بتركيز معاني الجماعة والتنظيم والتخطيط، ومبيّنًا عناصر النجاح اللازمة للحركة: من الجيل المسلم الذي تعمل على تكوينه، إلى القاعدة

الجماهيرية الإسلامية التي تساندها وتناصرها، إلى التغلب على المعوّقات من جهة الشعب، أو من خارج الوطن، أو من داخل الحركة ذاتها، مفصّلاً القول في هذه المعوّقات خاصّة؛ لأنّها أشدّ خطراً.

ثم أشرتُ إلى الحركة الإسلامية بالأمس، وما قدّمته لمجتمعها وللإسلام والمسلمين، منتهيّاً إلى الحركة الإسلامية المنشودة المرجوة لغد الأُمّة، موضحاً أبرز ملامحها وقسماتها المعبرة عن وجهها، المميّزة لشخصيتها، كما أتصوّرُها.

وكان المقرّر أن يكون في هذا الكتاب فصلٌ أو بابٌ عن «خصائص الحل الإسلامي»، والحقُّ أنّ هذه الخصائص ليست إلّا خصائص النظام الإسلامي، وبعبارة أخرى: خصائص الإسلام ذاته. ومثل هذا الموضوع حريٌّ بأن يمتدّ فيه الحديث طويلاً وعمقاً، وأن يُخصّص له كتاب مستقلّ موضوعه «الخصائص العامّة للإسلام» وهو ما أنوي إخراجَه تحت هذا العنوان قريباً إن شاء الله.

وبهذا أرجو أن أكون قد وضّحتُ ما ينبغي توضيحه في هذا المقام، غير زاعمٍ لنفسِي الكمال، ولا مُدّعٍ لها العصمة، فما كان من صوابٍ فبتوفيق الله، وما كان من خطأٍ فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله منه، وأطالب الإخوة القُراء أن يسدّدوني فيه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الفقير إلى عفو ربّه

يوسف القرضاوي

الدوحة في ٢٤ مايو ١٣٩٤هـ

١٤ جمادى الآخرة ١٩٧٤م



ضرورة التغيير.. الحل الإسلامي هو البديل

الآن حصص الحق، ووضح الصبحُ لذي عَيْنَيْنِ.

لقد ثبت فشلُ الحلّين الدخيلين على بلادنا، المستوردَيْن من عند
غيرنا - وهما: الحلُّ الليبراليُّ الديمقراطي، والحلُّ الاشتراكيُّ الثوري -
في كل مجالات الحياة، وكان إثم كلٍّ منهما أكبر من نفعه، وفشلُهُ
أضعاف نجاحه.

أ - فشلٌ في المجال الاقتصادي.

ب - فشلٌ في مجال الحرّية والطمأنينة للشعب.

ج - فشلٌ في المجال العسكري.

د - فشلٌ في المجال الروحي.

هـ - فشلٌ في المجال الأخلاقي.

و - فشلٌ في المجال العربي والإسلامي.

فماذا بعد ذلك كلّهُ؟ وماذا تعني إنجازات جزئية ومكاسب وقتية أمام
الخسائر الكبرى والفشل العام؟

وكل ما أخذته الأنظمة الثوريّة على من سبقوها من الحاكمين، وقعت فيه وفيما هو شرٌّ منه، وأضافت إلى آثام الأمس آثامًا أكبر وأخبث، حتّى أوشكت أن تصبح سيّئات الماضيين بجوارها حسنات.

ولا بأس أن أشير إلى مجالات الفشل المذكورة هنا، مكتفياً بالتفصيل الذي ذكرته في الكتاب الأوّل «الحلول المستوردة»، مركّزاً على بعض النقاط التي تحتاج إلى توضيح أو تذكير وتوكيد.

فشل في المجال الاقتصادي:

لقد فشلت الليبراليّة والاشتراكيّة كلتاهما في إقامة حياة اقتصاديّة سليمة متكاملة، تتحقّق فيها زيادة الإنتاج وعدالة التوزيع، حياة يتوافر فيها العمل الملائم لكلّ عاطل، والأجر العادل لكلّ عامل، والكفالة المعيشية لكلّ عاجز، وتكافؤ الفرص لكلّ مواطن، بحيث يجد كلّ المواطنين حاجاتهم الأساسيّة من الغذاء والكساء والمسكن والعلاج والتعليم دون عائق.

أجل، فشلوا في ذلك على رغم إكثار الأوّلين (الليبراليّين) من القول بمحاربة «الأعداء الثلاثة»: الفقر والمرض والجهل!

وطنطنة الآخرين (الاشتراكيين) بمجتمع الكفاية والعدل، المجتمع الذي ترفرف عليه الرفاهية!

ولكن لا هؤلاء ولا أولئك أطعموا الشعب من جوع، أو أغنّوه من فقر، أو علّمّوه من جهل، فلا زالت نسبة الأميّين في بلادنا أعلى من معظم بلاد العالم.

هذا في جانب العدل والتكافل الاجتماعي.



وفي الجانب الآخر، جانب الكفاية وزيادة الإنتاج، لم تزل بلادنا معتمدةً أكبر الاعتماد على الاستيراد في آلات الإنتاج، ووسائل النقل، ومعظم مصنوعات الحضارة، ولم يستطع الليبراليون ولا الاشتراكيون إقامةً تصنيعٍ ثقيلٍ مدنيٍّ وحربيٍّ، يُغني الأمة عن الاستيراد، ومدّ اليد إلى الأقوياء، والتأرجح بين المعسكرات الدوليّة المتنافسة، بُغية تأمين السلاح، والدفاع عن الحمى.

حتى الزراعة التي كانت حرفةً أجدادنا من آلاف السنين، والتي اشتهرت بها بلادنا، حتّى حاول الاستعمار في وقت ما إفهامنا أنّنا لا نُحسن غيرها، ولا نملك طاقاتٍ لشيءٍ سواها، حتّى هذه الزراعة لم نرقَ بها إلى المستوى اللازم لنا، واللائق بنا، كمّا ونوعًا، وما زلنا نستوردُ القمحَ من خارج أرضنا وإلاّ هلكنا جوعًا. وهكذا نعتمد على غيرنا في جلب الطعام الذي به عيشنا، والسلاح الذي نصون به حياتنا!

لقد فشلت الليبراليّة والاشتراكيّة في الرقيّ بالمجتمع من التخلف إلى التقدّم، لم تستطع هذه ولا تلك أن تنتقل بالمجتمع من الاعتماد على الغير إلى الاكتفاء بالذات، ومن استيراد مصنوعات الحضارة إلى إنتاجها، ومن شراء السلاح إلى صناعته، ومن «رواية» العلم أو ترجمته إلى المشاركة فيه. هذا مع أنّ بعض العلم لا يسمح أهله بروايته أو ترجمته؛ لأنّه من الأسرار.

فشل في مجال الحرّية والطمأنينة للشعب:

وفشل الحلالان كلاهما في تحقيق الأمن والطمأنينة والحرّية الحقيقيّة للشعب، التي تتمثّل في حرّية الفرد في أن يُفكّر وينقد ويبيدي رأيَه فيما يراه من عوجٍ وفساد، وفي أن يُندّد مع غيره بالظلم والطغيان، دون أن

يخشى على نفسه من كلاب الصيد التي تختطف الأحرار من بيوتهم، ومن بين أهلهم وأبنائهم في سواد الليل، فتُلقي بهم إلى ظلمات السجون والمعتقلات، بلا محاكمة أصلاً، أو بعد محاكمة صورية، يُرتَّب فيها الحكم قبل المحاكمات!

لقد لقي الأحرار من المواطنين السجن والاعتقال، والاضطهاد والتعذيب في كلا العهدين: الديمقراطي والاشتراكي، ولكن - والحق يُقال - لا نسبة بين ما حدث في العهد الأوّل والعهد الآخر، لا في الكم ولا في کیف. حتّى إنّ الذين جرّبوا الاضطهاد في العهدين، يعتبرون أنّ المنافي والمعتقلات التي عانوها في العهد السابق - وطالما شكّوا من ظلمها وظلامها - كانت جنّة فيحاء بالنسبة إلى معتقلات العهد الثاني وسجونها ومنافيه.

فشل في المجال العسكري:

لقد فشل الحلان الليبرالي والاشتراكي في تحقيق نصر عسكري في قضيتي العرب والمسلمين الأولى: قضيتي فلسطين، أولى القبلتين، وثالث الحرمين. فشلت الديمقراطية فشلاً تجسّدت في هزيمة الجيوش العربيّة في سنة ١٩٤٨م، وقيام دولة «إسرائيل» - المزعومة كما كنّا نسمّيها لعدّة سنوات - وتشريد مليون مواطن من شعب فلسطين، وتحويلهم إلى لاجئين.

ثم بعد تسعة عشر عاماً، وبعد تحوّل عددٍ غير هين من الدول العربيّة إلى الاشتراكية الثوريّة، وبعد الإعداد والتجهيز للحرب، وشراء السلاح بمئات الملايين من عرق الشعب، واستقدام الخبراء، وإطلاق الحناجر بالجعجعة والوعيد، وبعد أن أصبح العسكريّون هم القادة السياسيّين

أيضًا. فشلت الاشتراكية اليسارية فشلًا أنكى وأقسى من فشل سابقتها؛ فقد جاء بعد آمالٍ عراض، وأحلامٍ عذاب، وبعد تصريحاتٍ نارية، وتهديداتٍ عنترية^(١) - ومعدرة لعنترية! - وقد تجسّم هذا الفشل في هزيمة يونيو (حزيران) سنة ١٩٦٧م، ثمّ ضمّت إلى هذا الفشل العسكري كبيرتين من كبائر الخطايا:

أولاهما: أنّها جعلت أكبر همّها «إزالة آثار العدوان»، وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه في ٤ يونيو ١٩٦٧م، كأنّما إسرائيل كلّها ليست قائمة على أساس الاغتصاب والعدوان، وكأنّما العدوان الجديد أضفى الشرعية على مكاسب العدوان القديم.

والثانية: بتبجحها العجيب، حين اعتبرت ضياع الأرض، وهوان العرض، وانهيار الجيوش، كلّ ذلك لا يُعد هزيمةً يفرح بها العدو، ويحزن لها الصديق، ما دامت الأنظمة الثورية باقية في سُدّة الحكم! وفي الحديث: «إنّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»^(٢)!

ولولا نفحات من رياح الجنة هبّت في العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ، بفضل الصائمين القائمين من أبناء هذه الأمة وجنودها، لبقيّ ذلّ الهزيمة المخزية وصمة عار في جبين أمّتنا إلى ما شاء الله!

(١) جرينا على ما يقول كثير من الكتّاب، وإن كُنّا نرى الأصوب ألا يقال «عنترية» بل «فرزدقية» إشارة إلى قول جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتلُ مَرْبَعًا أبشُرُ بطولِ سَلَامَةٍ يا مَرْبَعُ!
أما عنتره فكان يقول ويفعل.

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٤)، عن أبي مسعود الأنصاري.

فشل في المجال الأخلاقي:

وفشل الحَلَّان - قبل ذلك كله - في الحفاظ على أخلاق الأُمَّة وفضائلها الأصيلة، وقِيمها الرفيعة، لم يستطيعا تخليص الأُمَّة من الرذائل الموروثة من عهود الانحطاط، ولا مطاردة الرذائل الدخيلة، التي جلبها وراءه الغزو الاستعماري.

ومن هنا انتشر الفساد، وطغت الشهوات، وطمَّ سيلُ الميوعة والتهتُّك، وفقد النساء - أو أكثرهنَّ - الحياء، وفقد الرجال - أو أكثرهم - الغيرة، وأصبح الغيور المحافظ على دينه وعِرضه وأسرته «رجعيًّا» مُتَخَلِّفًا يُفَكِّر بعقل قرون مضت، وأصبح «الدِّيُوث» الذي لا يبالي مَنْ دخل على أهله تقديمًا متحررًا، يستحق أن يعيش في القرن العشرين.

ومن جانبٍ آخر، شاع العبث والمجون والاستهتار بالمصالح العامّة، والاستخفاف بحقوق الآخرين، وحُصر التفكير في المنفعة الذاتية المادّيّة العاجلة، وانتشرت الرشوة والمحسوبية انتشار النار في الهشيم، وأصبحت الحكمة الشائعة على ألسنة النَّاس هي قول الشاعر:

إذا كُنْتَ في حاجةٍ مُرْسِلًا وأنت بها كِلَفٌ مُغْرَمٌ
فأرسل حَكِيمًا ولا تُوصِه وذاك الحَكِيمُ هو الدَّرْهَمُ^(١)!

لذلك كله سادت رُوح السلبية في المواطنين وعدم المبالاة، وترك

(١) البیتان لأحمد بن فارس اللغوي، كما في الإعجاز والإيجاز للثعالبي ص ١٧٧، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

الأمور تجري في أعنتها، غير عابئين بنتائجها أو مصايرها. وهذا شرٌّ ما تصاب به أُمَّة.

وَإِذَا أَصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ فَأَقِمَّ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلًا^(١)!

فشل في المجال الروحي:

وكذلك فشل الحَلَّانِ - كلاهما - أن يُمسكا على الأُمَّة إيمانها الذي تعتزُّ به، وتعَضُّ عليه بالنواجذ، وتعتبره أساس وجودها وبقائها: إيمانها بالله، وإيمانها برسالاته، وإيمانها بحسابه وجزائه في الآخرة. فاهتزَّت القيمُ الدِّينيةُ في أنفُسِ كثير من الناس، ووجد تيارُ الشكِّ والإلحاد له أعواناً وصحفاً وأجهزةً تنشر الضلال والفسوق والعصيان.

وكيف يستطيع الحَلَّانِ الدَّخِيلانِ المستوردان أن يحفظا على الأُمَّة إيمانها، فضلاً عن تثبيته وتركيزه ومدَّ شعاعه في كل مجالات الحياة؟ كيف وانتصار هذين الحَلَّين أنفُسَهُما تحدُّ لهذا الإيمان، ومعارضة له؟ إنَّ هذين الحَلَّين إنّما جاءا من الغرب الذي لم يعرف الإيمان بالله معرفة صحيحة قط^(٢)؛ ولهذا كانت الحضارة الغربيّة ذات فرعين: فرع ينكر وجود الله إنكاراً مباشراً، ولا يرى أنَّ الله خلق الإنسان، بل الإنسان هو الذي خلق الله، كما زعم بعض الفلاسفة الماديّين، وتبنّى ذلك «كارل ماركس»، وأقام على أساسه فلسفته الماديّة الجدليّة، ونظريته الاشتراكيّة العلميّة. والفرع الآخر، لا ينكر الله في صراحة وقطع، ولكنّه لا يعترف له

(١) أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة (١٨٣/١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

(٢) لأنَّ المسيحية التي وصلت إلى الغرب لم تكن مسيحية المسيح الأصيل، بل مسيحية الملك قسطنطين ومجمع نيقية وغيره، ممن ألّهُوا المسيح وخرجوا بديانته عن التوحيد، ملّة إبراهيم، وتجاوزوا به مكانه من العبودية لله.

بسلطان على عباده، يأمر وينهى، ويحكم ويشرّع، وبهذا لا يدع في الحياة ولا في المجتمع مجالاً لله سبحانه. وهذا ما عبّر عنه «ليوبولد فايس» - أو «محمد أسد» - بقوله: «إنّ المدنيّة الغربيّة لا تجحد «الله» البتّة، ولكنّها لا ترى مجالاً، ولا فائدة «الله» في نظامها الفكري الحالي»^(١).

فشل في المجال العربي والإسلامي:

وفشل الحلّ الليبرالي الديمقراطي، والحلّ الاشتراكي الثوري، كذلك في تحقيق الوحدة والأخوة والتضامن الحقيقي بين أبناء البلد الواحد، ولم نر إلاّ التطاحن الحزبي، أو التشاحن الطبقي، أو الصّراع الفكري، أو التناحر السياسي، أو التباغض الديني، أو التحاسد الشخصي، أو كل ذلك وغير ذلك من ألوان التنافر والتجافي والصراع، التي مزّقت الوطن الواحد كلّ ممزّق، وجعلت بعض فئاته أعداءً لبعض، ووسّعت الفجوة بين الحُكّام والشعوب، فأولئك في وادٍ، وهؤلاء في وادٍ آخر.

وإذا كان هذا على مستوى البلد الواحد، فكيف إذا نظرنا إلى العرب جميعاً باعتبارهم شعباً واحداً، جمعت بين أبنائه وحدة الدين واللغة والثقافة والتاريخ، فضلاً عن وحدة الأرض والمصالح، والآلام والآمال؟ وكيف إذا نظرنا إلى المسلمين جميعاً بوصفهم أمة واحدة، جعلها الله وحدها هي الأمة الوسط، واعتبرها في كتابه خير أمة أخرجت للناس، فهي أمة واحدة في عقائدها وتصوراتها، واحدة في شعائرها وعباداتها، واحدة في مثلها وأخلاقها، واحدة في آدابها وتقاليدها، واحدة في مشاعرها وآمالها، واحدة في تشريعها وتوجيهها، وأخيراً واحدة في قيادتها السياسيّة الدينيّة، الرُّوحية الزمنية، المتمثلة في الخلافة الإسلاميّة الواجبة؟

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٣٩، ترجمة د. عمر فروخ، نشر دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.



لقد فشل الحَلَّان في ربط الأُمَّة الإسلاميَّة بعضها ببعض، وتقريبها من الوحدة الإسلاميَّة المنشودة، نتيجة حتميَّة لغلبة النزعات الوطنيَّة أولاً، والقوميَّة آخرًا، بحيث طغت هذه النزعات على الأخوة الإسلاميَّة الجامعة. ثمَّ نتيجة لاختلاف مذاهب السياسة والفكر التي يتبعها كلُّ بلد، من التبعية للغرب أو الشرق.

ولا غرو أن وجدنا القضايا الإسلاميَّة المختلفة يتولاها كل بلد باعتبارها شيئًا يخصه وحده، ولا يعني سائر المسلمين، وينظر إليها بقية المسلمين في أنحاء الأرض، وكأنه حدث في بلد أجنبي، أو في بلاد واق الواق، لا يهتمهم ولا يشغلهم، وهذا كله ثمرة لازمة للثقافة القوميَّة العلمانيَّة.

لقد ترتَّب على ذلك أن وجدنا بلدًا مثل تركيا - أعني حكوماته المتعاقبة منذ نصف قرن - تعترف بإسرائيل، وتقيم معها علاقات دبلوماسية واقتصاديَّة وثقافيَّة، ضاربة عرض الحائط بمشاعر العرب، وأخوة العرب، وحقوق العرب، وذلك لأنَّ الذي يربط تركيا بالعرب هو الإسلام، ولكن تركيا القوميَّة و«الطورانيَّة» العلمانيَّة الحديثة - تركيا كمال أتاتورك - قطعت كلَّ ما بينها وبين الإسلام، فقطعت - بالتالي - ما بينها وبين العرب، حتَّى حروف الكتابة العربيَّة!

وكان للعرب موقفٌ مشابهٌ من موقف تركيا، وذلك في النزاع الذي قام حول «قبرص»، بين القبارصة الأتراك المسلمين والقبارصة اليونانيِّين المسيحيِّين، فكان موقف العرب - إجمالاً - في صف الأسقف «مكارْيوس» وأتباعه، إلى حدٍّ أنَّ بعضهم زوَّده بالسلاح، ليقتل به المسلمين الذين حُوصروا وقُتِلوا بالجوع والظمأ، فضلًا عن الحديد والنَّار.

وقد زرت تركيا في صيف سنة ١٩٦٧م، فسألني الكثيرون بعد محاضرة ألقيتها هناك: كيف وقفتم معشر العرب مع «مكاربوس» ضد إخوانكم المسلمين من الترك؟

فقلت لهم: وكيف وقفتم معشر الأتراك مع إسرائيل فاعترفتم بها رسمياً ضد إخوانكم المسلمين من العرب؟

قالوا: إنما هذا تصرف حكومات علمانية لا نرضى عن سياستها، ولا نؤمن باتجاهها.

قلت: وهذا نفس الوضع عندنا، فأغلبية الشعوب العربية تؤمن بأخوة المسلمين وتضامنهم - على الأقل - ولكن حكومات قومية علمانية، فرضتها أوضاعاً قاهرة، هي التي وقفت هذا الموقف!

وفي مشكلة كشمير الإسلامية وقف العرب منها إما متفرجين محايدين - فيما زعموا - وإما ممالئين ظاهراً أو باطناً لسياسة الهند العدوانية؛ لأنها الصديقة الاشتراكية! وهذا برغم موقف باكستان المشرف من قضايا العرب باستمرار.

وفي الحرب التي قامت بين الهند وباكستان سنة ١٩٦٥م، كان هذا هو موقف العرب أيضاً، حتى قرأنا يومها أعجب بيان يصدره شيخ الأزهر - شيخ الإسلام في مصر - بيان يدعو البلدين المتقاتلين إلى وقف القتال، لا إلى مساندة البلد المسلم المعتدى عليه من الوثنية الحاكمة المتربصة، أو على الأقل السكوت والرضا بأضعف الإيمان.

ولهذا لم نعجب أن احتل المسجد الأقصى، ثم أُحرق فيما بعد، ولم يتزلزل العالم الإسلامي لهذا الحادث الجلل، ولم تتحول الثورات العاطفية

التي حدثت حينذاك إلى عملٍ إيجابي؛ وذلك لتقطع الروابط الإسلامية، وانطفاء جذوة الروح الإيمانية، التي لم تفلح في إشعالها قرارات مؤتمر علماء المسلمين في مجمع بحوث الأزهر بمصر، ولا نداءات مؤتمر رابطة العالم الإسلامي بمكة؛ لأنَّ المسلمين نائمون، والنائم لا يسمع النداء. فلا بدَّ من دعوة إيقاظ، وحركة إحياء، قبل إصدار النداءات والقرارات. وما أقسى أن يعبر ماركسيٌّ شامتٌ عن نتائج هذه النداءات بأنَّها أصداء بئر خاوية!

مَن المسؤول؟ إنَّه الأنظمة التي تحكم هذه البلاد، والتيارات التي تسودها وتحركها، فقد أُمات فيها روح الإسلام، وأحيت معاني الجاهلية!

مآخذ «الميثاق» على الحكم الوطني المصري بعد ثورة ١٩١٩م:

لقد عاب «الميثاق» المصري على الاتجاه الليبرالي - الذي ساد مصر بعد ثورة ١٩١٩م - أمورًا ثلاثة كانت هي الأسباب الواضحة التي أدَّت إلى فشل «الثورة الوطنية» في مصر في تحقيق أهداف الشعب.

الأمر الأوَّل - إهمال التغيير الاجتماعي:

إغفال القيادات الثوريَّة والزعامات السياسيَّة مطالب «التغيير الاجتماعي»، نظرًا لأنَّ طبيعة «المرحلة التاريخيَّة» جعلت من طبقة مُلاك الأرض أساسًا للأحزاب السياسيَّة التي تصدَّت لقيادة الثورة.

ولقد كانت الدعوة إلى تمصير بعض أوجه النشاط المالي هي قُصارى الجهد في ذلك الوقت، في حين أنَّ الدعوة إلى إعادة توزيع الثروة الوطنيَّة أصلًا وأساسًا كانت هي المطلب الحيوي الذي يتحمَّم البدء فيه من غير تأخُّر أو إبطاء.

الأمر الثاني - الغفلة عن رابطة العروبة:

إنَّ القيادات الثوريَّة في ذلك الوقت لم تستطع أن تَمُدَّ بَصَرَهَا عبر سيناء، وعجزت عن تحديد «الشخصيَّة المصريَّة»، ولم تستطع أن تستشفَّ من خلال التاريخ أنَّه ليس هناك صدام على الإطلاق بين الوطنيَّة المصريَّة وبين القوميَّة العربيَّة.

«لقد فشلت هذه القيادات أن تتعلَّم من التاريخ، وفشلت أيضًا في أن تتعلَّم من عدوِّها الَّذي تحاربه، والَّذي كان يعامل الأُمَّة العربيَّة كلها - على اختلاف شعوبها - طَبَقًا لمخطط واحد».

«ومن هُنا فإنَّ قيادات الثورة لم تنتبه إلى خطورة وعد بلفور الَّذي أنشأ إسرائيل، لتكون فاصلاً يمزِّق امتداد الأرض العربيَّة، وقاعدة لتهديدها».

«وبهذا الفشل، فإنَّ النضال العربي - في ساعة من أخطر ساعات الأزمة - حُرِم من الطاقة الثوريَّة المصريَّة، وتمكنت القوى الاستعمارية من أن تتعامل مع أُمَّة عربيَّة ممزَّقة الأوصال، مفتتة الجهد».

الأمر الثالث - الانخداع بالاستقلال الاسمي:

إنَّ القيادات الثوريَّة لم تستطع أن تلتئم بين أساليب نضالها وبين الأساليب الَّتِي واجه الاستعمار بها ثورات الشعوب في ذلك الوقت.

«إنَّ الاستعمار اكتشف أنَّ القوَّة العسكريَّة تزيد ثورات الشعوب اشتعالًا. ومن ثَمَّ انتقل من السيف إلى الخديعة، وقَدَّمَ تنازلاتٍ شكليَّة لم تلبث القيادات الثوريَّة أن خلطت بينها وبين الجوهر الحقيقي، وكان منطق الأوضاع الطبقيَّة يزيِّن لها هذا الخلط.



إنَّ الاستعمار في هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمَه، وسلب مضمونه، ومنح من الحرِّيَّة شعارها، واغتصب حقيقتها. وهكذا انتهت الثورة بإعلان استقلال لا مضمون له، وبحُرِّيَّة جريحة تحت حراب الاحتلال.

وزادت المضاعفات خطورة بسبب «الحكم الذاتي» الَّذي منحه الاستعمار، والَّذي أوقع الوطن - باسم الدستور - في محنة الخلاف على الغنائم دون نصر.

وكانت النتيجة أن أصبح الصراع الحزبي في مصر ملهاة تشغل الناس، وتحرق الطاقة الثوريَّة في هباءٍ لا نتيجة له^(١).

* * *

ثورة ١٩٥٢م لم تستفد من أخطاء ثورة ١٩١٩م:

هذه الأمور الثلاثة الَّتِي أخذها الميثاق المصري الناصري على ثورة سنة ١٩١٩م، وبعبارة أخرى: على الليبراليَّة الديمقراطيَّة المصريَّة، وأدَّت إلى فشلها في تحقيق آمال الشعب ومطالبه.

وهي مأخذ حقيقيَّة وعيوب صادقة، لا مجال لردِّها وإنكارها.

ولكن هل استفادت ثورة ١٩٥٢م من ثورة ١٩١٩م؟

وبعبارة أخرى: هل استفادت الاشتراكيَّة الثوريَّة المصريَّة - واليسار العربي بصفة عامَّة - من دروس الليبراليَّة العلمانيَّة الوطنيَّة وأخطائها؟

إنَّ الَّذي سجَّله التاريخ عليها أنَّها لم تعتبر بمصير الثورة الَّتِي ورثتها، والاتِّجاه الَّذي خلَّفته، ولم تنتفع بما أنكرته عليها من مأخذ،

(١) الميثاق ص ٢٤ - ٢٧، الباب الثالث.

وما خلّفته من آثار ونتائج، كان يؤمّل أن تفتح أعينها على حقائق هامة، أهمّها: أن تكتشف نفسها، وتعرف موقعها، ولكنها لم تفعل.

لهذا فشلت الثورة الاشتراكية العربية، كما فشلت الثورة الليبرالية الوطنية. ومن أبرز أسباب هذا الفشل ما نبئّه فيما يلي:

حقيقة التغيير الاجتماعي وكيف يتم:

١ - إنّ القيادات الثورية العربية - في مصر خاصّة وفي البلاد العربية عامّة - لم تفهم حقيقة «التغيير الاجتماعي» الذي رفعوا شعاره، والذي تتوق شعوب المنطقة إليه، والذي أسهم «التيار الإسلامي» بدور رئيسي في توعية الشعب بضرورته، والالتفاف حول المطالبة به.

لقد تخيلت هذه القيادات أن مجرد «إحلال طبقة محلّ طبقة»، وأنّ مجرد إصدار قرارات بجملة من التأميمات والمصادرات، يغيّر «الواقع الاجتماعي» السيئ إلى واقع حسن.

لقد توهمت أنّ المشروعات المرتجلة، والقرارات المستعجلة - والتي تعمل أجهزة الإعلام الضخمة على تمجيدها وإحاطتها بهالة كبيرة من الدعاية لها - كفيلة بتغيير الأوضاع.

لقد أغفلت هذه القيادات الثورية العنصر الأخلاقي والروحي في التغيير - إغفالاً يكاد يكون تاماً - مع أن كل ثورة اجتماعية لا تسبقها وتصاحبها ثورة روحية، وفكرية، ونفسية، هي - بلا ريب - ثورة مآلها إلى الفشل والخيبة.

لقد بيّن القرآن الكريم هذه السُنّة الاجتماعية، ووضعها في صيغة قانون إلهي ثابت لا يتخلّف ولا يُحابي ولا يظلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ومن المقرّر الذي لا خلاف عليه أن تغيير الأنفس ليس بالأمر الهين، إنّه ليس تغيير ملبسٍ أو زيٍّ بآخر. إن معناه تغيير الإنسان ذاته من حالٍ إلى حال. تغيير وجهته وأفكاره ومشاعره وأهدافه وطرائقه، وهذا هو «التغيير الثوري» الحقيقي؛ لأنّه تغيير ينفذ إلى الرُّوح والجوهر، ولا يقف عند الغلاف والمظهر، مصداقاً لما قاله معلّم الإنسانيّة: «ألا إنّ في الجسد مُضغّة إذا صلّحت صلّح الجسد كلّهُ، وإذا فسدت فسَدَ الجسدُ كلّهُ، ألا وهي القلب»^(١).

هذا التغيير النفسي لا يتمّ إلّا بوسيلةٍ واحدةٍ هي الإيمان^(٢)، الإيمان الذي صنع من قبائل العرب المتفرّقة الممزّقة من قبل خير أمة أخرجت للناس، وبعثهم في أنحاء الأرض ينشرون الحقّ، ويدعون إلى الخير، ويُخرجون النّاس من عبادة الخلق إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق العيش إلى سعة الحياة، ومن جور الأديان والظلام إلى عدل الإسلام.

الإيمان الذي غيّر سحرة فرعون من أبناء مصر، حين خالطت بشاشته قلوبهم، فانقلبوا من أذئاب مهرّجين مأجورين يطلبون المال والزلفى بين يدي فرعون، إلى أحرارٍ مؤمنين أقوياء، يتحدّون بإيمانهم جبروت فرعون، وإرهاب زبانيته، غير عابئين بوعيده وتهديده بالتقتيل والتصليب.

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا... ﴾ [طه: ٧٢].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

(٢) راجع كتابنا: الإيمان والحياة ص ٢٧١ - ٢٨٢، فصل: الإيمان والإصلاح، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١٨، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ نَمُودَجٌّ لِمَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْنَعَهُ الْإِيمَانُ بِشَعْبٍ
كَالشَّعْبِ الْمَصْرِيِّ، حِينَ يَدْعُ سَحَرَ الْفِرَاعِنَةِ، وَيَعْرِفُ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ.

وَلَيْتَ هَؤُلَاءِ الثَّوْرِيِّينَ اقْتَصَرُوا فَقَطْ عَلَى إِغْفَالِ الْعَنْصَرِ الرُّوحِيِّ
وَالْأَخْلَاقِيِّ، بَلْ طَارَدُوهُ وَحَارَبُوا دَعَاتِهِ، وَنَكَّلُوا بِهِمْ شَرَّ تَنْكِيلٍ، وَشَجَّعُوا
الْجَوْرَ وَالْعَبْثَ، وَأَطْلَقُوا الْعِنَانَ لِلْمِوَعَةِ وَالتَّحُلُّلِ، وَاخْتِلَاطِ الشُّبَّانِ
وَالشَّابَّاتِ فِي الْمَعْسَكَاتِ وَالرَّحَلَاتِ وَمَا شَابَهَهَا.

كَمَا أَغْفَلَ هَؤُلَاءِ عُنْصَرًا آخَرَ يَكْمُلُ الْعَنْصَرُ السَّابِقَ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ:
هُوَ شَرْطٌ لَهُ، ذَلِكَ هُوَ عُنْصَرُ «الْحُرِّيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ»، فَتَوَافُرُ الْحُرِّيَّةِ لِأَبْنَاءِ
الْمَجْتَمَعِ هُوَ «الْمَنَاحُ» الْضَرُورِيُّ، وَالتُّرْبَةُ اللَّازِمَةُ، لَكِي يُخْرَجَ «التَّغْيِيرُ
الاجْتِمَاعِي» نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ طَيِّبًا مَبَارَكًا، وَلَا يَخْرُجَ خَبِيثًا نَكْدًا.

وَلَكِنْ قِيَادَاتُ الثَّوْرَةِ أَهْمَلَتِ الْحُرِّيَّةَ، بَلْ أَهْدَرَتْ قِيَمَتَهَا، بَلْ عَادَتْهَا
وَقَاوَمَتَهَا بِكُلِّ سَبِيلٍ، وَحَرَمَتْ أَفْضَلَ الْعُنَاصِرِ الْوُطْنِيَّةِ مِنَ الْحُرِّيَّةِ: حُرِّيَّةَ
التَّعْبِيرِ وَالنَّقْدِ وَالْخُطَابَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالتَّجْمُّعِ بِحُجَّةٍ كَاذِبَةٍ مُضِلَّةٍ، هِيَ «حِمَايَةُ
الثَّوْرَةِ مِنْ أَعْدَاءِ الثَّوْرَةِ» أَوْ مِنْ «الثَّوْرَةِ الْمُضَادَّةِ». وَلَا أَدْرِي مَا الَّذِي جَعَلَ
الثَّوْرَةَ الْأُولَى حَقًّا، وَالثَّوْرَةَ الْآخَرَى الْمُضَادَّةَ لَهَا بَاطِلًا؟ أَهْوَ لِمَجَرَّدِ السَّبْقِ
الزَّمَنِيِّ كَانَتْ الْأُولَى مَشْرُوعَةً، وَالثَّانِيَةُ عَدْوَانًا؟ أَمْ لِأَنَّ هَذِهِ فِي السُّلْطَةِ
فَكُلُّ مَا عَارَضَهَا يَفْقِدُ الصِّفَةَ الشَّرْعِيَّةَ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْبَقَاءَ؟!

وَكَانَ أَعْجَبُ شَعَارٍ رَفَعَتْهُ الْقِيَادَاتُ الثَّوْرِيَّةُ أَنَّهُ: «لَا حُرِّيَّةَ لِأَعْدَاءِ
الْحُرِّيَّةِ»، فَكُلُّ لِسَانٍ حَرٍّ يَجِبُ أَنْ يُخْرَسَ، وَكُلُّ قَلَمٍ حُرٍّ يَجِبُ أَنْ يُكْسَرَ،
وَكُلُّ فِكْرٍ حُرٍّ يَجِبُ أَنْ يُخْنَقَ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَلْسِنَةِ وَالْأَقْلَامِ
وَالْأَفْكَارِ «أَعْدَاءُ الْحُرِّيَّةِ»، حُرِّيَّةُ السُّلْطَاتِ الْحَاكِمَةِ فِي أَنْ تَفْعَلَ بِالشَّعْبِ
مَا تَشَاءُ، وَتَعْبَثُ بِمَصِيرِهِ وَمَقْدَرَاتِهِ وَحَرَمَاتِهِ كَيْفَ تَشَاءُ!



ثمَّ إِنَّ التَّغْيِيرَ الاجتماعي ما لم يستند إلى عقيدة (أيديولوجيا أساسية) يؤمن بها الشعب، ويعمل بموجبها، ويضحّي في سبيلها، ويخضع لمقرّراتها، ويلتزم بحدودها، يكون تغييرًا غير هادف، همّه أن يُزيل شيئًا بشيء، أو يُحلَّ جديدًا محلَّ قديم، أو يكون تغييرًا هدفه الهدم لا البناء، والمحو لا الإثبات.

ومن المؤسف أن القيادات الثورية أغفلت العقيدة أو «الأيديولوجيا» الوحيدة التي لا تؤمن شعوبنا إلا بها، ولا تتجمّع إلا حول رايتها، وهي «الإسلام». وظلّت فترة في شبه فراغ في تأرجح وتردّد، ثم حاولت أن تملأ هذا الفراغ عن طريق «التسوّل الفكري» نتيجة لجهلها بتراتها وحضارتها، وفقدانها الثقة بنفسها ودينها وتاريخها. ورغبتها في إرضاء السادة أعداء الاتجاه إلى الإسلام. والشحاذة والتسوّل أيسر طريق للكسالى من العاطلين الذين يريدون الغنى بغير جهد، واكتناز الثروة بغير عمل.

وقد عثر هؤلاء - في أثناء تسكّعهم في شوارع الفكر الغربي ومنتدياته - على «الاشتراكية العلمية»، فطاروا بها فرحًا، وعادوا بها مبشّرين ومنذرين، بعد أن طعموها بخليطٍ من الأفكار الليبرالية الغربية، والأفكار الوطنية والقومية، مع شيء من الأفكار الدينية، المشوّشة في بعض الأحيان.

وكانت نتيجة ذلك: هو الاضطراب والتخبط، أو البذر في الهواء، والبناء على كتيب من الرمل، لا ثبات له ولا قرار، هذا إن أمكن أن يقوم البناء.

كان نتيجة ذلك: هو السير في غير الاتجاه الصحيح. والسير في غير الاتجاه الصحيح مهما اجتاز صاحبه من مفاوز، وقطع من مسافات،

وبذل من جهد وعرق؛ لا يُقَرَّب من الهدف المنشود، بل يُبعد عنه، هذا إن افترضنا وجود هدف محدّد.

ومن ثمّ فشلت القيادات الثوريّة العربيّة في تحقيق «التغيير الاجتماعي» الذي نادّوا به؛ لأنّهم لم يفهموا حقيقته، ولم يعرفوا شروطه ومناخه، ولم يسلكوا سبيله، ولم يدركوا أساسه الذي يجب أن يقوم عليه البناء، فتخبّطوا وتعثّروا وتناقضوا.

وانتهى تخبّطهم إلى مطالبة بعض اليساريّين العرب بتغيير كلّ شيء: القيم والأخلاق، والمفاهيم والعقائد، وبهذا انتهى مفهوم «التغيير» إلى «الهدم المطلق» إلى ريحٍ عقيم، ما تذرّ من شيءٍ أتت عليه إلّا جعلته كالرّميم.

الصلة العميقة الأصيلة بين العروبة والإسلام:

وإذا كان «الميثاق» المصري قد عاب على القيادات الحاكمة بعد ثورة ١٩١٩م عجزها عن تحديد «الشخصيّة المصريّة»، وعن فهم الصلة التاريخيّة بين الوطنيّة المصريّة والقوميّة العربيّة. فلم تتعلم من التاريخ، ولا من عدوّها الذي يعامل الأمّة العربيّة كلّها طبقاً لمخططٍ واحد، فنحن نعيب على القيادات العربيّة الحاكمة بعد ثورة ١٩٥٢م - وما تبعها من ثورات - أنّها عجزت عجزاً بيّناً عن تحديد «الشخصيّة العربيّة»، ولم تستطع أن تستشفّ من خلال التاريخ أيضاً الصلة العميقة بين العروبة والإسلام، وبين الشعب العربي والأمة الإسلامية.

إنّ ارتباط الشخصيّة العربيّة بالإسلام ارتباط عضوي لا ريب فيه؛ فالإسلام هو صانع تاريخ العرب وأمجادهم وثقافتهم ومثلهم

وحضارتهم، ومخلّد لغتهم، ورافع ذكرهم في العالمين عامة، وفي الشعوب الإسلامية خاصّة.

إِنَّ الَّذِي جَعَلَ مِنَ الْعَرَبِ أُمَّةً رَائِدَةً، وَوَضَعَ فِي أَيْدِيهِمُ الْقِيَادَةَ، وَجَمَعَهُمْ مِنْ شَتَاتِ الْعَصَبِيَّةِ، وَحَرَّرَهُمْ مِنْ جَهَالَةِ الْأُمِّيَّةِ، وَضَلَالِ الْوُثْنِيَّةِ، وَقَذَارَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. هُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ الْخَاتَمَ، وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ الْخَالِدَ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وهم خلال أربعة عشر قرنًا لم يحرزوا تقدّمًا، أو يحققوا نصرًا إلاّ بالإسلام. كما أنّ ارتباط الشعب العربي بالأمة الإسلامية الكبرى هو ارتباط قائم دائم لا يجادل فيه إلاّ مكابر؛ لأنّه يقوم على أساس من وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، ووحدة الأهداف، ووحدة الثقافة، ووحدة التاريخ، ووحدة المصالح، وهذه الوحدات كلها هي التي صنعت وحدة الأفكار والمشاعر والآلام والأمال، وولدت الشعور القوي لدى العرب والمسلمين كافة، بأنّهم «أمة واحدة»، أمة القرآن، أمة محمّد ﷺ.

وارتباط العرب بإخوانهم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها هو ارتباط الجزء بالكل، وليس هو أيّ جزء من كلّ، فإن مكان العرب في الجسم الإسلامي مكان الرأس أو القلب.

فقد شاء الله أن يُنزل كتابه العظيم بلسان عربي مبين، وأن يبعث رسوله الكريم من أمة العرب، وأن يجعل بيته العتيق في أرض العرب،



وأن يجعل حَمَلَة رسالة الإسلام الأولين إلى العالمين من رجال العرب. وهذا كله بؤاً العرب مكان الزعامة في المسلمين، وجعلهم ينظرون إلى العرب باعتبارهم أبناء الصحابة، وعصبة الإسلام، وأولى الناس بوراثته، وحمل دعوته إلى العالم كله.

بَيِّدَ أَنَّ القيادات الثوريّة العربيّة جهلت هذا كله، أو تجاهلته، فنادت بـ «قوميّة عربيّة» مغلقة، ولم تستطع أن تتمدّ بصرها عبر الخليج العربي لتتصل بأكثر من ستمائة مليون مسلم - عرب الإسلام عقولهم وعواطفهم - يمثلون خمس العالم، ويملكون من القوى الماديّة والبشريّة ما يجعل منهم «كتلة ثالثة»، تستطيع أن تغيّر ميزان القوى العالميّة، كما يملكون من «القيّم» الثقافيّة والحضارية ما يجعل منهم رسل الهداية للدنيا، وسفينة الإنقاذ للبشريّة الموشكة على الغرق.

مقومات القوّة لدى العالم الإسلامي:

وهذه بعض مقومات القوّة التي يملكها العالم الإسلامي، أنقلها من دراسة للباحثة الباكستاني الأستاذ تودرس نظير أحمد خان:

أولاً - الوضع الاستراتيجي للعالم الإسلامي:

«إنّ البلاد الإسلاميّة تشكل العمود الفقري للكرة الأرضية، فهي تمتد فعلاً كسلسلة طويلة متصلة الحلقات في سائر المنطقة الواقعة بين إندونيسيا ومراكش، وتشرف على مواقع استراتيجية هامة، وهي في وضعها هذا تشغل مركزاً بالغ الأهمية في الشؤون الدوليّة.

ثانيًا - وضع المسلمين من الناحية العددية عامل رئيسي له أهميته الخاصة:

هناك نحو ستمائة وخمسين مليوناً^(١) من المسلمين منتشرون حالياً في كافة بقاع الأرض، دانيها وقاصيها، وإنك لتجد مسلماً واحداً بين كل خمسة أشخاص من البشر، وإذا ما أحسن تنظيم هذه القوة العددية، وأمكن تعبئتها تعبئة ملائمة، فإنها تشكل ضماناً فعلية لمستقبل أوضاع المسلمين في كافة الشؤون العالمية.

ثالثاً - ما يشغل المسلمين من مركز هام في دنيا السياسة أيضاً:

هناك حوالي ست وثلاثين دولة إسلامية^(٢) من أصل المائة والثلاثة عشرة دولة التي تشكّل منظمة الأمم المتحدة، فإذا ما اتخذت هذه الدول مظهرًا مشتركًا، ووحدت صفوفها أمكنها أن تثبت وجودها كقوة فعّالة في الشؤون العالمية.

وإنّه لمن المؤسف حقاً أنّه بالرغم من هذه النسبة الكبيرة من التمثيل التي يملكها المسلمون في أهم ميدان دولي، فإنّهم لا يزالون في عداد الأتباع لا في عداد القادة.

رابعاً - إنّ الوضع الاقتصادي للعالم الإسلامي غير مدروس دراسة صحيحة من قبلنا، ويجري غالباً بموجب نظريات سطحية، وآراء مغلوطة، يشير بها علينا من تتعارض مصالحهم مع مصالحنا.

إنّ العالم الإسلامي غني بمصادر الثروة الطبيعية، ويمكنه أن يزيد في غناه. إنّنا ننتج (٦٦٪) من مجموع ما ينتجه العالم من الزيت

(١) قد أصبحوا الآن أكثر من ألف مليون وستمائة مليون.

(٢) عدد الدول الإسلامية المستقلة في ذلك الوقت.

الخام، إن حقول الزيت في الكويت هي أغنى حقول العالم، إننا ننتج (٧٠٪) ممّا ينتجه العالم من المطاط الطبيعي، و(٤٠٪) ممّا ينتجه العالم من «الجوت» الطبيعي، و(٥٦٪) من زيت النخيل، و(٦٧٪) من التوابل والبهارات المختلفة، و(٣٠٪) من الفلفل الأسود، و(٨٠٪) من القشيرة «الفلين»، و(٩٠٪) من خشب الكينا. ويوجد في بعض أقطارنا موارد لا ينضب معينها من الغاز الطبيعي، كما يوجد لدينا احتياطي ضخم من المعادن كالحديد والنحاس والتنك والبوكسيت - المادتان الأخيرتان موجودتان بكثرة خاصة في الملايو - والمنجنيز والفوسفات، ومعدن الكروم والجبس، والحجر الجيري وحجر الحرارة، ومجموعة متنوعة من مواد أخرى مفيدة، وحتى اليورانيوم الذي أصبح ثمينًا للغاية في هذه الأيام، نظرًا لاستعماله في إنتاج الطاقة النووية، فإنه موجود أيضًا في أقطار إسلامية عديدة من إفريقيا.

وتعتبر البلاد الإسلامية أيضًا من أغنى المناطق في العالم في الزراعة وتربية المواشي والسائمة.

خامسًا - العنصر الإنساني:

يجب ألا يُغفل أنّ عددًا كبيرًا من أقطارنا قد حارب خلال العقدين الأخيرين من الزمن من أجل التحرر من الحكم الأجنبي، وتمكّن من أن ينتصر، وأن بطولات الجزائر الحريّة من أجل التحرر ستبقى إلى الأبد في صفحات التاريخ.

إننا الآن شعوب ناهضة مصمّمة على رفض غبار الماضي، واستعادة ما كان لها من أمجاد.



ويلاحظ البعض أنّ كثيرًا من الأقطار الإسلاميّة لا تزال متخلفة، ولكن يجب ألاّ يُتجاهل النقاط الحقيقيّة الصارخة في أنّ المستغلّين الأجانب - بالإضافة إلى جهلنا - هم المسؤولون عن وضعنا الاقتصادي الحاضر»^(١) اهـ.

سادسًا - التراث الروحي والحضاري:

وهذا عنصر هام لم يتحدث عنه الباحث الباكستاني، وهو ميراثنا المعنوي العظيم، ميراثنا الرُّوحي والثقافي والحضاري. ففي هذه المنطقة من شرقنا العربي والإسلامي اتصلت السماء بالأرض، وتنزلت أعظم كتب الله على أعظم أنبيائه، وقامت الديانات السماوية الكبرى - اليهوديّة والمسيحية والإسلام - الّتي بعث الله بها أولي العزم من الرسل: موسى وعيسى ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام.

وفي هذه المنطقة قامت الحضارات القديمة العظيمة الّتي حققها التاريخ للمصريين والفينيقيين والآشوريين والبابليين والفرس والهنود وغيرهم.

وسلالات هذه الشعوب القديمة لا تزال قادرة على أن تؤدّي دورها الحضاري مهتدية بهدّي القرآن وروح الإسلام.

وكما يُعاب على دعاة «الوطنيات الإقليميّة» في بلاد العرب حصرهم شعوبهم وبلادهم في «دائرة ضيقة» في مقابلة «العروبة» الرحبة الّتي تشمل الأوطان والشعوب العربيّة جمعاء، يُعاب على دعاة «القوميّة

(١) دراسات حول رابطة للبلاد الإسلامية ص ٣٦، ٣٧، نشر الأمانة العامة للمركز الإسلامي، كراتشي، باكستان.

العربيّة» حصرهم أنفسهم في دائرة مغلقة محدودة، في مقابلة «الدائرة الإسلامية» المفتوحة الواسعة، فخسروا بذلك ولاء وقوّة مئات الملايين بسبب من العصبية الجاهليّة.

وإذا كان رد «ساطع الحصري» على دعاة التفوق المصريّ الذين كان شعارهم «مصر أولاً»، بتخطئة هذه النعرة الإقليميّة الضيقة، ورفع شعار «العروبة أولاً»^(١) فنحن نخطئ «الحصري» بنفس منطق، ونرفع الشعار الطبيعي والتاريخي والمنطقي لهذه الأمة وهو «الإسلام أولاً».

وهكذا تبين أنّ الذي عابته القيادات الثوريّة الجديدة على القيادات القديمة وقعت فيه، وفيما هو شرٌّ منه، فلم تتعلّم من التاريخ، ولم تتعلّم من عدوّها الذي يعامل المسلمين جميعاً - على اختلاف شعوبهم - طبقاً لمخطط واحد. ولا يفرّق بين عربي وغير عربي؛ لأن روح الحروب الصليبيّة ما زالت تسكن بين جنبيّه.

والذي وقعت فيه الزعامات العربيّة وقع فيه أيضاً دعاة القوميّة والعلمانيّة في بلاد المسلمين الأخرى، وبخاصة تركيا التي تجسّدت فيها القوميّة العلمانيّة اللادينيّة بأجلى صورها، فعزلت نفسها عن العرب عزلاً كاملاً لعدة عقود من السنين.

وكان من جرّاء ذلك أنّ خاض العرب أخطر أدوار كفاحهم مع اليهوديّة العالميّة المتمثلة في إسرائيل، ومع الصليبيّة الغربيّة المتمثلة في مساندي إسرائيل، دون أن يستفيدوا استفادة تُذكر من الطاقة الإسلاميّة الضخمة من المحيط إلى المحيط، أو من إندونيسيا إلى الدار البيضاء.

(١) ألف ساطع الحصري - الذي كان القوميون يلقبونه بفيلسوف القومية العربية - كتاباً بالعنوان المذكور: العروبة أولاً.

ولو راجع هؤلاء التاريخ الذي يعرفونه ولا يجهلونه، لوجدوا أنّ الرجل الذي أنقذ بيت المقدس من الصليبيين بعد أن بقي في أيديهم ٩٠ عامًا، لم يكن عربيّ الدم والعنصر، وإنّما كان كُرديًّا، عزّبه الإسلام، وذلك هو صلاح الدين، الذي تمّم جهاد بطلين إسلاميين قبله لم يكونا من جنس العرب أيضًا هما: الشهيد نور الدين محمود، وأبوه عماد الدين زنكي.

إنّ اليهوديّة العالميّة التي خطّطت لأحلامها منذ زمن بعيد، تعلم مقدار ما تملك الأمة الإسلاميّة لو تجمعت قواها، واتّحدت شعوبها، واستفادت من تكامل اقتصادها، فضربت ضربتها في تدمير الخلافة الإسلاميّة التي كانت آخر مظهر لوحدة الأمة الإسلاميّة - على ما كان بها من نقائص وعيوب - ليعيش المسلمون بعدها أوزاعًا، ويسهل بعد ذلك ضرب كل شعب على حدة بمغزل عن الآخرين.

لقد أدركت قيادة ثورة ١٩٥٢م شيئًا عن قوّة الوحدة الإسلاميّة، أو على الأقل التضامن الإسلامي، فيما كتبه في «فلسفة الثورة» عام ١٩٥٣م عن أهميّة «الدائرة الإسلاميّة» بعد «الدائرة العربيّة» والذي حدا بها إلى إنشاء «المؤتمر الإسلامي» ثمّ تنويسي ذلك كلّهُ، بل أهمل، وحارب أيضًا، وأصبح المؤتمر الإسلامي مجرد مبنى ولافتة، وذلك حين غلبت التيارات الوافدة على الأحاسيس الطبيعيّة الأصيلة التي ظهرت بوادرها أولًا في «فلسفة الثورة». وأصبح كل نصيب الأمة الإسلاميّة من «الميثاق» كلمة عابرة في ختام «الباب العاشر» الذي يتحدث عن «السياسة الخارجيّة» حيث يقول: «وإن كان شعبنا يؤمن بوحدة عربيّة، فهو يؤمن بجامعة إفريقيّة، ويؤمن بتضامن آسيوي إفريقي، ويؤمن بتجمّع من أجل

السلام، يضمُّ جهود الذين ترتبط مصالحهم به، ويؤمن برباطٍ رُوحِي وثيق يشدُّه إلى العالم الإسلامي، ويؤمن بانتمائه إلى الأمم المتحدة...». هذا هو نصيب الأمة الإسلامية من الميثاق ووضعه: مجرد رباط رُوحِي على سبيل البركة! لم يبلغ مبلغ الجامعة الإفريقية، ولا التضامن الآسيوي الإفريقي! أي أن باكستان ليست في منزلة إثيوبيا، وإندونيسيا ليست في مرتبة روديسيا!

حقيقة الاستقلال ومضمونه:

والأمر الثالث الذي عابه «الميثاق» الوطني المصري على الزعماء الليبراليين في مصر بعد ثورة ١٩١٩م، هو عدم إدراكهم لحقيقة الحرّية، وحقيقة الاستقلال، وانخداعهم بما أعطاهم الاستعمار من أشكال للاستقلال لا مضمون لها.

يقول الميثاق: «إنَّ الاستعمار في هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمَه، وسلب مضمونه، ومنح من الحرّية شعارها، واغتصب حقيقتها. وهكذا انتهت الثورة بإعلام استقلال لا مضمون له، وبحرّية تحت حراب الاحتلال».

ونقول: إنَّ زعماء الاشتراكية الثورية هنا ليسوا أحسن حالاً من زعماء الليبرالية الديمقراطية، وما كان الفريقان إلا كحماري العبّادي الذي قيل له: أيُّ حماريك شرٌّ؟ فقال: هذا ثمَّ هذا!

فقد فشل كلاهما في تحقيق استقلال ذاتي حقيقي للأمة، يردُّها إلى حضارتها الأصيلة المتوازنة، ويعيد إليها شخصيتها المستقلة المتميّزة، ويجعلها رأساً في الحياة، لا ذيلًا لشرقٍ أو غرب.



فرغم جلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد، وإعلان الاستقلال، والاحتفال به كل عام، وانتقال السلطة من أيدي الأجانب إلى أيدي الوطنيين، لم يتحقق من الاستقلال إلا اسمه ومظهره، لا لبه ورؤوحه.

ما زالت بلادنا عالة على غيرها في التسلح، وفي الصناعة والتكنولوجيا. كل ما صنعناه أننا نستورد منتجات الحضارة، ولكن لا نصنعها، واستيراد المنتجات الحضارية لا يصنع حضارة كما قال الأستاذ مالك بن نبي.

وأدهى من ذلك أننا لم نزل تابعين للغرب في اتجاهاته ومذاهبه وأنظمتها، فيما هو أهم من الصناعة والتكنولوجيا: في السياسة، وفي الفكر. فنحن نتخذ الغرب قبلة لنا في نظم حكمنا واقتصادنا، وفي مناهج فكرنا وثقافتنا، سواء أكان هذا الغرب رأسماليًا أم شيوعيًا، فكلاهما غرب.

فأين الاستقلال - إذن - إذا لم يكن في مجال الصناعة والعلم، ولا في مجال السياسة والحكم، ولا في مجال الفكر؟

وشر من هذه التبعية هو قابليتها، والرضا بها، أو على الأقل السكوت عليها، كأنها قدر محتوم.

إن أقرب النتائج لهذه التبعية الفكرية هي الفراغ الروحي، والاضطراب العقائدي، والقلق النفسي، والحيرة العقلية التي تعانيها الأجيال الناشئة في بلاد المسلمين؛ فالشباب في هذه البلاد يعاني أزمة فكرية ونفسية عاتية، نتيجة لما يلمسه من التناقض بين ضميره وواقعه، بين عقيدته الموروثة وأوضاع مجتمعه السائدة.

يقول الأستاذ الدكتور محمد البهي: «إنَّ المجتمعات الإسلامية لم تزل موزعة على نظامي الحكم - يعني: الليبرالي، والاشتراكي - على أساس من الفكر الغربي وحده. وبذلك لم تتخلَّ عن التبعية للأجنبي، رغم وثائق الاستقلال، وممارسة بعض مظاهره، من الانتقال من نوع إلى آخر في نظام حكمه وأيديولوجيته.

وليس من هذه المجتمعات - حتَّى الآن - ما راجع الإسلام في صلاحيته لسياسة المجتمع، وضبط سلوك الأفراد فيه، مراجعة جدية بناءً، حتَّى ذلك المجتمع في آسيا الذي أعلن منذ ربع قرن تقريباً - بعد جهادٍ مريرٍ طال أمده - قيامه على أساس من الفكر الإسلامي وحده»!

يعني مجتمع باكستان التي نُوديَ بقيامها على أساس الإسلام.

إلى أن يقول الدكتور: «لا بديل عن الإسلام في الحفاظ على استقلال هذه المجتمعات. وأيُّ بديلٍ الآن يُظنُّ أنَّه كافٍ في سياسة الحكم والتوجيه فيها، هو - على سبيل القطع والتأكيد - بدايةً لتبعية تنتهي حتماً إلى ذوبان لشخصيات هذه المجتمعات، وإلى ضياع مقوماتها.

إنَّ المجتمعات الإسلامية المعاصرة مهددة بخطر الضياع في استقلالها، وفي إيمانها، وفي اقتصادها.

وإنَّ الشباب المسلم هو في حيرة الآن، ومهدد بالانتقال من هذه الحيرة إلى تبعية فكرية وسياسية، لا خلاص له منها، والمسؤولون عن هذه المجتمعات يعيشون في تصورات هي أقرب إلى الأحلام، التي يبعثها «اللاشعور» في الإنسان! اللهم إليك الأمر وحدك»^(١).

(١) مقال الشباب المسلم للدكتور محمد البهي، مجلة الوعي الإسلامي، السنة السابعة، العدد

(٧٧) جمادى الأولى سنة ١٣٩١هـ - يونيو سنة ١٩٧١م.



محاولة واهمة لوضع نظرية شاملة للثورية العربية:

وقد حاول بعض الكتّاب من أساتذة العلوم السياسيّة في مصر أن يصنع في الستينيّات فلسفة أو نظرية ترتكز عليها الحركة الثورية الاشتراكية المصرية.

وانتهى الدكتور محمّد طه بدوي إلى شيء سماه «الحتميّة العلميّة» كما في كتابه «فلسفتنا السياسيّة الثوريّة» الذي خصّص فيه باباً «لسند الثورة في فلسفة السياسة، لما لوجهة النظر الفلسفيّة في هذا السند من أثر عميق في تشكيل المقوّمات الأيديولوجيا لمجتمع ما بعد الثورة».

وفي الباب الثاني خاض دراسة تحليليّة، تستهدف - كما قال -: «نظاماً شاملاً لنظرية كاملة، ضابطة لحياتنا السياسيّة».

وفي «تمهيده» للباب الأوّل قال: «إن فكرة الفلسفة الغربيّة في القرنين السابع عشر والثامن عشر عن «العقد السياسي» بوصفها السند العقلي لثورة الطليعة النابهة للطبقة الثالثة «البرجوازيّة الناميّة» على الاستبداد السياسي والامتيازات الطبقيّة حينذاك، كانت تعمل في إطار فلسفة سياسيّة كاملة، تؤيد تطلعات تلك الطليعة التي طال ازدرأؤها - رغم ثرائها المطرد بسبب انفرادها بالاشتغال بالتجارة - وذلك من جانب «طبقة النبلاء» الممتازة.

فلقد ارتبطت فكرة العقد السياسي - كسند عقلي للثورة - بفكرة «اجتماع سياسي» يقوم على هوى تلك الطليعة البرجوازيّة، على أساس أنّ السيادة فيه للأمة، أي لا لطبقة «النبلاء» القديمة أو «للملك». وهو اجتماع يقوم من أجل صيانة الحقوق الطبيعيّة الخالدة: الملكيّة والحرّيّة، في ظل المساواة أمام القانون، بوصفه أداة التعبير عن «الإرادة العامّة»

فكان أن تشكلت - تبعاً لذلك - أيديولوجيا المجتمع الثوري البرجوازي الغربي، التي أرست أصولها الثورة الفرنسية الكبرى لسنة ١٧٨٩م، وهي أيديولوجيا قوامها: تقديس الملكية الفردية، بوصفها دعامة الحريات الفردية جميعاً، ومساواة أمام القانون.

وكذلك الحال بالنسبة لأيديولوجيا المجتمعات الماركسيّة، فلقد تأثرت في تكوينها الراهن بفكرة «الحتميّة التاريخيّة» لثورة البروليتاريا، بوصفها جزءاً من فلسفة ماركس الشاملة عن «المادّيّة التاريخيّة» و«الصراع الطبقي».

وهكذا بالنسبة لفلسفتنا الثوريّة^(١). فسندنا العقلي لثورة ٢٣ يوليو، مرتبط تماماً بظروفنا الاجتماعية الخاصة بنا وبتجاربنا الوطنية. ومن هذه الظروف والتجارب نبع فكرنا المذهبي الثوري، ثمّ راح يتبلور حتّى قدّم للميثاق الوطني - بوصفه الأداة المصوّرة لأيديولوجيا مجتمعنا الثوري العربي الجديد - نظريتنا السياسيّة الشاملة.

إنّ سندنا العقلي للثورة العربيّة الشاملة ينحصر في حتميتها، باعتبار أنّها الطريق الوحيد إلى تحقيق أهداف النضال العربي، إنّهُ سند عقلي؛ لأنّه يتمثّل في حكم عقلي ينبع من التجربة. وسندنا العقلي هذا يشكل جزءاً من فلسفة عامّة لثورتنا. إنّهُ يشكل جزءاً من تلك «الفلسفة الوضعية» التي تقوم على التجربة لنخلص منها إلى الحلول العلميّة الضابطة لمجتمع ما بعد الثورة، وهي حلول «حتميّة».

(١) انظر: فلسفتنا السياسية الثورية للدكتور محمد طه بدوي ص ١٣، ١٤، وانظر أيضاً: فكرنا المذهبي والأيديولوجيات العالمية ص ٤٨ - ٥٣، نشر منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٤م.

«إنَّها حتمية الثورة» استنادًا إلى التجربة، وهي «حتمية الحل الاشتراكي» استنادًا إلى التجربة كذلك.

ومن ثمَّ فإنَّ سندان العقل لثورتنا العربيَّة الكبرى يتمثل في «الحتمية العلمية للثورة».

ويقسم الدكتور «الديمقراطية السياسية» في العالم إلى أنواع ثلاثة:

١ - الديمقراطية السياسية في مفهومها الغربي، وهي تعني ديمقراطية «التصادم السياسي» تبعًا لطبيعة التناقض الاجتماعي هناك.

٢ - الديمقراطية الماركسيَّة، وهي تعني ديمقراطية «الاجتماع السياسي» تبعًا لصورة المجتمع اللاتطقي.

٣ - أمَّا ديمقراطية الثورة المصريَّة - كما سجَّلها الميثاق وقانون الاتحاد الاشتراكي - فيسميها «ديمقراطية التحالف السياسي» تبعًا لتحالف القوى الاجتماعيَّة، بديلًا للتصادم الطبقي المؤدي إلى التصادم السياسي. هذا ما قاله الأستاذ الدكتور بدوي في محاولة جاهدة لـ «تنظير» سياسة الثوريَّة الاشتراكيَّة المصريَّة.

وليسمح لنا السيّد الدكتور أن نقول له: إنَّها محاولة متعسِّفة، تريد أن تجعل من هذا الخليط من الأفكار - التي أبرز سماتها الاستيراد والتلفيق - فلسفة مستقلة، وأيديولوجيا وطنيَّة متكاملة.

ويذكرني هذا بما تفعله بعض مصانع السيارات العربيَّة التي تستورد أجزاء السيارة من أوروبا، ثمَّ تقوم بتركيبها محليًّا، وتطبع عليها «ماركة وطنيَّة»، ثمَّ تصدِّق نفسها أنَّها صنعت سيارة! كما تطلب من النَّاس أن يصدِّقوها في هذه الدعوى!

ومعلوم للدكتور بدوي ولمن هو دونه من الدارسين، أن «الاشتراكية الثورية» ليست بضاعة مصرية، ولا عربية، ولا إسلامية، وإنما هي بضاعة أجنبية لها صنّاعها ومطوّروها، وبعبارة أخرى: لها فلاسفتها ونظرياتها ومصدر إلهامها.

وإطلاق اسم «الحميّة العلميّة» على هذا الاتجاه المستورد لا يعطيه صفة «الأصالة»، ولا يخرجها عن «التبعيّة» للأيديولوجيات العالميّة، التي يدّعي كلّ منها التحلّي برداء «العلميّة» الزاهي، سواء في ذلك الليبراليّة الديمقراطيّة التي اتّخذت «العقلانيّة» و«العلمانيّة» طابعاً لها في مقابلة الاتجاه الديني والمثالي، والاشتراكية الماركسيّة التي سمّت مذهبها «الاشتراكية العلميّة».

وما أطلق عليه الدكتور اسم «ديمقراطيّة التحالف السياسي» لا يخرج في جوهره عن ديمقراطيّة «الإجماع السياسي» عند الماركسيّين، وتجربة «التنظيم الواحد» - الاتحاد الاشتراكي - لا تختلف في نتائجها عن تجربة «الحزب الطليعي» الواحد، كما نبّهنا على ذلك من قبل.

ولعلّ ممّا يؤكّد هذا ما اشتهرت به نتائج الاستفتاءات العامّة في بلادنا، وما أصبح مثلاً مضروباً في الناس، وهو «الإجماع» بنسبة ٩٩,٨٩٪! إنّ العيب الرئيسي في هذا التحليل هو محاولة «تبرير» الواقع، وتكلّف سند عقلي له، والاستماتة في إعطائه صفة «أيديولوجيا» مستقلة عن «الأيديولوجيات» العالميّة.

وإنّ «العلم» ليهبط بقيمته الذاتية حين يرضى لنفسه أن يكون أداة في خدمة سياسة معينة. إنّ الواجب أن تتبع السياسة العلم، لا أن يتبع العلم السياسة. ومثل العلم في ذلك «الدين».



والحق أننا لا نعرف في عالم اليوم إلا أيديولوجيات ثلاثاً:

١ - الأيديولوجيا الليبرالية الفردية، التي يمثلها الغرب، أو ما يُسمى «العالم الحرّ»، على اختلاف مدارسها وتطبيقاتها.

٢ - والأيديولوجيا الاشتراكية الجماعية، التي يمثلها الماركسيون، على اختلاف مدارسها وتطبيقاتها كذلك.

٣ - والأيديولوجيا الإنسانية المتوازنة، وهي التي يدعو إليها الإسلام. فهذه الأيديولوجيا ليست فردية، ولا جماعية، ولا شرقية، ولا غربية، ولكنها إسلامية قرآنية وكفى.

وما عدا هذه الأيديولوجيات الرئيسية المتميزة، فهو تلفيق من هنا وهناك وهناك.

تعقيب على تحليل الدكتور بدوي:

بقيت كلمة، أودُّ أن أقولها هنا تعقيباً على تحليل الدكتور بدوي: لنفرض أن الاشتراكية الثورية العربية تخضع فعلاً لمنطق التجربة، وحتمية العلم كما قال. إذن يكون الواجب عليها الآن أن تغيّر اتجاهها فوراً، بعد أن أثبتت «التجارب المُرّة» فشل الاتجاه الثوري الاشتراكي في كل بلادنا العربية، وفي كل الحقول المادية والمعنوية، كما أثبتنا ذلك من قبل مؤيداً بالوثائق والأدلة. وكما أكّدت ذلك من بعد حرب العاشر من رمضان.

وليس فشل الثورة العربية في تحقيق أهدافها ذاتها، وأهداف الأمة في تلك المرحلة من تاريخها شيئاً طارئاً، نتيجة لضغوط خارجية قاهرة، أو لظروف محلية أو شخصية عارضة، يمكن أن تزول، بل الفشل كامن في طبيعة الاشتراكية الثورية، كما بيّناه في جزء «الحلول المستوردة».

ضرورة التغيير والبحث عن بديل:

إنَّ منطق العلم هنا يؤكِّد ضرورة التغيير، ويوجب البحث عن بديل، تُرى ماذا يكون البديل؟

إنَّ الحلَّ البديل المطلوب لا يُتصوَّر إلَّا أن يكون أحد حلَّين اثنين: الحلُّ الشيوعي الأحمر الصريح، أو الحلُّ الإسلامي المتكامل الصحيح.

أُمتنا ترفض الحل الشيوعي شكلاً وموضوعاً:

أمَّا الحلُّ الشيوعي فهو مرفوض شكلاً وموضوعاً، أصولاً وفروعاً، ولكن لماذا نرفض الشيوعية؟

أمَّا إجمالاً فلأننا مسلمون، والشيوعية تكفر بالإسلام وكتابه ونبيّه، بل تكفر بالأديان جميعاً.

وأمَّا تفصيلاً، فلأنَّ الشيوعية - أولاً - ضد عقيدتنا؛ لأنَّها مذهب مادي، ينكر كلَّ ما وراء الحسِّ وما بعد الطبيعة، فلا يؤمن بالله ولا ملائكة ولا وحي ولا رسالة، ولا جنّة ولا نار، ونحن قوم نعتبر الإيمان أساس وجودنا ومحور حياتنا.

ولأنَّها - ثانياً - ضدُّ شريعتنا، فهي تنكر التملُّك الفردي بأيِّ طريقٍ كان، كما تنكر كل ما يترتب عليه من حقوق وأنظمة، كنظام الزكاة والنفقات ونظام المواريث وغيرها. كما تنكر نظام الإسلام في الزواج والطلاق والأحوال الشخصية، ونظامه في المبادلات والمعاملات المدنيّة، ونظامه في الجزاء والعقوبات الجنائيّة، ونظامه في الإدارة والسياسة الشرعيّة، إلخ. ونحن لا ندع شرع الله لنظام بشريٍّ كائنًا ما كان.

ولأنَّها - ثالثًا - ضد قيما الأخلاقية والاجتماعية، فهي لا تؤمن بقيم ثابتة، فكلُّ شيءٍ في فلسفتها قابل للتغيُّر، بل واجب التغير، فما كان فضيلة بالأمس قد يكون رذيلة اليوم، وما كان حرامًا اليوم، قد يكون حلالًا زلًا غدًا، أو بعد غد! ونحن نؤمن بثبات القيم وأصول الفضائل والرذائل، فما أحلَّ الله فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرَّمه فهو حرام إلى يوم القيامة.

ولأنَّها - رابعًا - ضد طبيعتنا، فنحن أمة وسط، أمة العدل والحبِّ، وهي مذهب متطرّف، يجنح إلى الغلوِّ في كلِّ شيء. نحن نؤمن بالإخاء، وهي تؤمن بحتمية الصراع الطبقي، نحن ندعو إلى الرفق، وهي تدعو إلى العنف والدم. شعارنا: «كونوا عباد الله إخوانًا»^(١). وشعارهم: «يا عمَّال العالم اتحدوا». أي ضد الطبقات الأخرى، وما أعظم الفرق بين الشعارين!

ولأنَّها - خامسًا - ضد كرامتنا وحرّيتنا، وبعبارة أخرى: ضدَّ إنسانيتنا. فما قيمة الإنسان إذا فقد الكرامة والحرّية والشعور بالذاتية؟ وأنّى له ذلك في ظلِّ فلسفةٍ تلغي قيمة الفرد، وتقتل حوافزه، فإنما القيمة كلها للمجتمع، أي للدولة، أو للحزب الحاكم، أو للجنة العليا للحزب، أو للديكتاتور!

ولأنَّها - سادسًا - ضد سيادتنا القومية؛ لأنَّها استعمار جديد، بل هي أعلى مراتب الاستعمار؛ فالاستعمار التقليدي يمكن التخلص منه بالكفاح والمقاومة، كما حدث لشعوب وبلاد شتى. أما الاستعمار الشيوعي، فلم نره دخل بلدًا واستطاع أهلها التحرُّر منه. وعند المجر

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

وتشيكوسلوفاكيا والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي الخبر اليقين! ونحن نمقت ونحارب الاستعمار كله: أحمره وأسوده، غربيّه وشرقيّه، قديمه وجديده.

ولأنّها - سابعاً - بُنْتُ اليهوديّة العالميّة، هي التي صنعتها، وهي التي روّجتها، فمؤسسو الشيوعيّة من اليهود: «ماركس» من أسرة يهوديّة، و«لينين» يهودي، و«تروتسكي» يهودي، وغيره وغيره. وعدد كبير من زعماء الشيوعيّة في العالم يهود، حتّى في العالم العربي، نجد مؤسسي الأحزاب الشيوعيّة فيه يهوداً معروفين.

ولأنّها - ثامناً - ضدّ وحدتنا العربيّة والإسلاميّة؛ فالشيوعيّة لا تقبل وحدة عربيّة، فضلاً عن وحدة إسلاميّة؛ لأنّها تعمل وتنشط في الأجزاء المبعثرة، ما لا تعمل في الكتل المتّحدة. ولهذا وقفت ضدّ الوحدة الثنائيّة بين مصر وسوريا، فكيف بوحدة عربيّة جامعة، وكيف بوحدة إسلاميّة شاملة؟

إنّ الشيوعيّة لا تحيا ولا تنمو إلّا على الصراع والانقسام؛ فهي تقسّم البلد الواحد إلى طبقات تتعادي وتتصارع، وتقسّم أيضاً الأمّة الواحدة إلى شعوب وبلاد تتخاصم وتتنازع، ما بين يمين ويسار، ويمين اليمين، ويسار اليسار!

ولأنّها - تاسعاً - ضد استقلالنا الذاتي؛ فهي تفرض علينا التبعية الفكرية والسياسيّة، وتوجب علينا أن ندور في فلك غيرنا، وأن نستمد التوجيه من سوانا، ونحن قومٌ اختارهم الله ليكونوا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وأساتذة للبشريّة، فلا نرضى لأنفسنا بمقام التلمذة، وجعلنا رؤوساً، فلا نقبل أن نعيش أذيالاً. إننا لا نرضى أن يعلو كتابٌ على



القرآن، ولا زعيم على محمد ﷺ، ولا مذهب أو فلسفة على رسالة الإسلام، بعد أن أكمل الله لنا ديننا، وأتم به نعمته علينا: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

الحل الإسلامي هو البديل:

الحل الشيوعي الأحمر - إذن - مرفوض من أساسه، فلم يبق إلا الحل الآخر، فهو الحل البديل، وهو الحل الحتمي، وهو الحل الوحيد، ذلكم هو الحل الإسلامي.

تُرى ماذا يعني الحل الإسلامي؟ وما معالمة وملاحه؟ وما خطوطه العريضة؟ هذا ما يجيب عنه الفصل التالي.



معالم الحلّ الإسلامي

ماهية الحلّ الإسلامي:

عندما ننادي بالحلّ الإسلامي علاجًا لمشكلاتنا المعاصرة، يتبادر إلى كثير من الأذهان صورة قاصرة تتمثل في القوانين والتشريعات الإسلامية لا غير.

فالحلّ الإسلامي - في نظر الكثيرين - يتمثل في قطع يد السارق، وجلد الزاني أو رجمه، وجلد السّكّيرين، والقصاص من القتل، وتطبيق أحكام الشريعة في إقامة الحدود فقط، أو في سائر شؤون المعاملات أيضًا.

ولا ريب أنّ هذه الأحكام أو القوانين جزء أصيل من الحل الإسلامي لا بدّ منه، ولا غنى عنه، يكفر من جحده، ويفسق من أهمله، ولكنها - مع ذلك - ليست كل الحل الإسلامي، فهذا التصوّر للحل الإسلامي جزئي وناقص وقاصر.

إنّ معنى «الحل الإسلامي» أن يكون الإسلام هو الموجّه والقائد للمجتمع في كلّ الميادين وكلّ المجالات مادّيّة ومعنويّة.

معنى «الحلّ الإسلامي» أن تتّجه الحياة كلّها وجهة إسلاميّة، وأنّ تُصبغ بالصبغة الإسلامية.

معنى «الحلّ الإسلامي» أن تكون عقيدة المجتمع إسلاميّة، وشعاراته إسلاميّة، ومفاهيمه وأفكاره إسلاميّة، ومشاعره ونزعاته إسلاميّة، وأخلاقه وتربيته إسلاميّة، وتقاليده وآدابه إسلاميّة، وأخيراً أن تكون قوانينه وتشريعاته إسلاميّة.

وبعبارة أخرى: الحلّ الإسلامي هو الذي يبرز به «المجتمع المسلم» إلى حيّز الوجود بكلّ مقوماته ودعائمه، وبكلّ خصائصه ومميّزاته، دون إهدارٍ لشيءٍ منها. وهذا يحتاج إلى كتابٍ قائمٍ بذاته، ولكن حسبنا هنا أن نضع - بإيجازٍ شديد - خطوطاً عريضة ومعالماً بارزة للحلّ الإسلامي المنشود، كما نتصوّره في ضوء تعاليم الإسلام، وأن نركّز خاصّة على العناصر الإسلاميّة التي يفتقدها مجتمعنا القائم في كافّة نواحي الحياة.

في الناحية الرُّوحِيَّة والأخلاقيَّة:

الإنسان ليس مجرّد جسد يأكل ويشرب ويتمتع كما تأكل الأنعام. فالجسد ليس إلّا غلافًا من الطين لكائنٍ علويّ، يشير إليه قوله تعالى في خلق آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]. وهذا الرُّوح العلويّ هو الشيء الذي ميّز الإنسان، وجعله أهلاً للتكريم وخلافة الله في الأرض.

والحلّ الإسلامي هو الذي يدرك هذه الفطرة الإنسانيّة، ويقدرها حقّ قدرها، ويهيّئ لها الغذاء الملائم، والمناخ الصالح، حتّى تنمو وتزدهر وتثمر بإذن ربّها.

ولا يكون ذلك إلّا بالعلم النافع، والإيمان الصادق، والعبادة الخالصة، والخُلُق القويم، فهذه هي أغذية الرُّوح، وهي مميّزات الإنسان.

ومن المعالم البارزة لهذا الاتجاه:

١ - إحياء المعاني الربّانية من: الإيمان بالله وتوحيده وأسمائه الحسنى تبارك وتعالى، والإيمان برسالاته، وبالأجزاء الأخروي، باعتبارها أهداف الحياة العليا، وغايات الوجود الإنساني، والعمل على دعمها وتثبيتها وحمايتها، بكلّ الوسائل والأساليب، عقلية وعاطفية، وخاصة وعامة، ونظرية وعملية، ومحاربة نزعات الإلحاد والشكّ والشرك بكلّ صورته وألوانه، القديمة والجديدة، حتّى لا يُعبد في الأرض إلّا الله. والعودة بالعقيدة إلى المنابع الصافية من كتاب الله وسُنّة رسوله، بعيداً عن غلوّ الغالين وانتحال المبطلين، وتحريف المحرّفين.

٢ - تربية الأمّة على معاني التقوى لله، والإخلاص له، والثقة به، والتوكّل عليه، وغرس الإحساس الدائم برقابة الله على كلّ أعمال الإنسان، وإطلاعه على سرّه ونجواه، وتغذية الشعور بالمسؤوليّة أمامه يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً، ولا ينفع المرء إلّا ما قدّمت يده، واستحضار فكرة الخلود في الدار الآخرة، وأهوال النشور والموقف، والحساب والميزان، والجنّة والنار.

وبهذه التربية الرّوحية تتكوّن «القلوب الحيّة» أو «الضمائر اليقظة» التي هي أعظم رادعٍ عن الشرّ، وأكبر حافزٍ على الخير، وأقوى مددٍ لمكارم الأخلاق.

٣ - تثبيت القيم الأخلاقية الأصيلة التي توارثتها الأمّة جيلاً عن جيل، مهتدية بكتاب ربّها وسُنّة نبيّها، الذي بعثه الله ليتّمّ مكارم الأخلاق، وإزالة ما تراكم عليها من رواسب عصور التخلف، وما دخل عليها من تقليد الأمم الأخرى قديماً وحديثاً؛ فالسخاء والإيثار والعفاف والإحسان والحياء والغيرة، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد،

والتعاون على البرِّ والتقوى، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار، وإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، والصدق في القول، والأمانة في العمل، والعدل في الحكم، والشهادة بالحق، ورحمة الصغير، وتوقير الكبير، وإعطاء كل ذي حقَّ حقه، وخفض الجناح، وعزة النفس، والقصد والاعتدال في كلِّ شيء، إلى غير ذلك من فضائلنا الأصيلة: يجب أنْ تسود وتبقى وتعمق جذورها، وتمتد فروعها. كما يجب تطهير المجتمع من الرذائل الدخيلة التي وفدت علينا مع الاستعمار الغربي، والرذائل التي ورثناها من عهود الانحطاط على سواء، من الماديَّة، والأنانيَّة، واتباع الشهوات، والميوعة، والتحلُّل، وتشبُّه الرجال بالنساء، وتشبُّه النساء بالرجال، والاستغراق في متع الحياة الدنيا، ومن الثرثرة الفارغة، والفخر الكاذب، والجعجعة بغير طُحْن، والاستبداد، والنفاق، والمَلَق الرخيص، وغير ذلك من أخلاق الضعف وسياسة الانحلال.

٤ - الاعتزاز برسالة الإسلام، بوصفه عقيدة وشرعية وحضارة ونظام حياة، أودع الله فيه الكمال والشمول والتوازن والوضوح والعمق. وغرس هذا الاعتزاز في ضمائر الجميع صغارًا وكبارًا، بحيث لا يزاحمه نظام أو مذهب آخر للحياة، ولا يزاحمه كذلك وطن أو قوميَّة أو نعة من النعرات، فدين المسلم أغلى ما يعتزُّ به ويحرص عليه، وفي سبيله يضحي بكل ما يغالي به النَّاس من وطن وأهل، ونفس ونفيس، ورضي الله عن المسلم الأوَّل الذي قال:

أَبِي الْإِسْلَامُ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمٍ^(١)

(١) من شعر نهار بن توسعة الشكري. انظر: الكامل في اللغة والأدب (١٣٣/٣)، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٥ - المحافظة على شعائر الإسلام، وبخاصة عباداته الكبرى، التي جعلها الرسول ﷺ الأركان العملية التي بُني عليها هذا الدين، من الصلاة والزكاة والصيام وحج البيت الحرام. وتربية جميع المواطنين في المجتمع على احترامها وتوقيرها، وتربية المسلمين خاصة على حبها والحرص على أدائها بإخلاص وأمانة وإتقان، وفاءً بحق الله الذي خلقنا من عدم، وأمدنا بكافة النعم، وتيسير كل السبل المادية والمعنوية لإقامتها، والإعانة عليها، وتشجيع كل قائم بها على وجهها، وتأديب كل مقصر في أدائها، مفرط في حقوقها.

فإن هذه العبادات والشعائر - مع أنها غاية في نفسها - تُعدُّ من أعظم الوسائل التربوية لتكوين الأنفس المؤمنة والأخلاق الفاضلة.

ولهذا تجب العناية بإقامة الصلوات، واتخاذ المساجد والمصليات في الدواوين والمصالح والإدارات الحكومية، والمؤسسات والشركات الكبيرة، وكل مجمع للناس، كالموانئ والمطارات، ومحطات السكك الحديدية، ومواقف السيارات العامة ونحوها. كما يجب تعظيم حُرمة شهر الصيام، وتعديل مواعيد العمل الرسمي بحيث تلائم ظروف الصائمين، وتمكّنهم من الإفطار والسحور في الوقت المناسب.

ومثل ذلك تيسير الحج إلى بيت الله الحرام، وإزاحة العوائق عن طريقه، وعقد حلقات لتوعية الحجاج، حتى يؤدّوا فريضتهم على الوجه الأكمل، ويعودوا من رحلتهم أطهر قلوباً، وأنظف سلوكاً، وأعمق إيماناً.

٦ - إحياء رسالة المسجد، حتى يعود إلى سالف عهده، مركز هداية وإشعاع وإصلاح، جامعاً للعبادة، ومدرسة للثقافة، ومعهداً

للتربية، وندوة للتعارف، وبرلماناً للتشاور^(١)، وأن يُفسح فيه المجال للمرأة المسلمة، فلا تُحرم من حقّ العبادة الجماعيّة، واستماع الكلمة الهادية، والموعظة النافعة، والالتقاء بأخواتها المؤمنات في أظهر مكان، لأشرف غاية، وأبرّ عمل، وفي الحديث: «لا تمنعوا إماء الله مساجدَ الله»^(٢).

٧ - اختيار أفضل العلماء وأقدرهم، للوعظ والخطابة والتدريس في المساجد، وبخاصة الكبيرة منها، وإعطاؤهم الحرّية المطلقة للتعبير عن حقائق الإسلام، والتصديّ لأباطيل خصومه، ومكايد أعدائه. وتنزيه المنبر أن يتخذ مطيّة للاستغلال، أو أداة للدعاية لشخصٍ أو أسرة أو حزبٍ أو نظام؛ فالمسجد أرفع وأكرم من أن يُذكر فيه اسمٌ غير اسم الله، وأن تُقال فيه كلمة غير كلمة الإسلام، وأن يُقدّس فيه كتاب غير القرآن: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

٨ - مقاومة البدع والأباطيل التي أُلصقت بالدين - على مرّ القرون - وليست منه، سواء في مجال العقائد أم العبادات أم التقاليد^(٣)، أم غير ذلك من كلّ ما يتّصل بالفكر أو بالسلوك على وجه عام. والرجوع بالإسلام إلى وضوحه وبساطته وصفاته الذي كان عليه الصحابة ومن تبعهم بإحسان، من أهل القرون الأولى، الذين هم خير قرون هذه الأمّة وأجداها سبيلاً.

(١) انظر كتابنا: العبادة في الإسلام ص ١٨٩ - ١٩٧، رسالة المسجد، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٩، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٩٠٠)، ومسلم في الصلاة (٤٤٢)، عن ابن عمر.

(٣) راجع في ذلك: الاعتصام للشاطبي، والحوادث والبدع والنهي عنها، والمدخل لابن الحاج، والإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ، وليس من الإسلام للشيخ محمد الغزالي.

ومن المعلوم أنَّ البدع التي شَبَّ عليها الصغير، وهرم عليها الكبير، وتوارثها الابن عن الأب، والحفيد عن الجد، لا يُستطاع التخلُّص منها إلا بالرفق والأناة والتلطف، واستعمال الحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن، كما أمر الله تعالى.

في الناحية التربويَّة والثقافيَّة:

كَرَّمَ الله الإنسان بالعقل، والقدرة على التعلُّم، وجعل العلم من مرشحات خلافته في الأرض، لهذا جاء الإسلام يحضُّ على النظر والتفكير، ويحذِّر من التقليد والجمود، حتَّى جعل التفكير والتعلم فريضتين إسلاميتين، وأشاد بالعلم وأهله، حتَّى جعل العلماء ورثة الأنبياء، وجعل طريق العلم طريقاً إلى الجنَّة، وجعل من فروض الكفاية على الأمة أن يتخصَّص عددٌ كافٍ من أبنائها في كلِّ علم نافع تحتاج إليه في دنياها أو دينها، ومن هذا المنطلق يجب أن يقوم البناء التربوي والثقافي على الأسس التالية:

أولاً: أن يكون التعليم لجميع الأطفال ذكوراً وإناثاً - في سنِّ التعليم - إلزامياً، وأن تزال كلُّ المعوِّقات من طريقه، وتُهيَّأ كلُّ الوسائل لتيسيره، فإنَّ القيام بأعباء الدين والحياة في هذا العصر لا يتم إلاَّ بحظ معقول من التعلم، ولو كان هو الحد الأدنى، وما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب. وهذا هو اللائق بأُمَّة طلب العلم فيها فريضة، وأول آية نزلت في كتابها: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١].

ثانياً: وضع خطة مدروسة لمحو الأمِّيَّة المنتشرة، اقتداءً بالنبي ﷺ الذي بدأ منذ السنة الثانية من الهجرة في معركة بدرٍ يمحو الأمِّيَّة، ويعمل على نشر الكتابة.

ثالثاً: تنوع التعليم بحيث يشمل كافة المجالات النظرية والعملية، الدينية والدنيوية، الأدبية و«التكنولوجية»، وبحيث يُفسح المجال للنبوغ والعبقريّة أن تبلغ أعلى مستويات الدراسة والتخصّص، دون عائقٍ ماديٍّ أو معنوي. وقد أشار القرآن إلى وجوب التخصّص حين قال: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. كما أمر القرآن بالازدياد من العلم بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

رابعاً: أن يكون الإسلام مادةً دراسيةً أساسيةً في جميع المراحل، من المرحلة الأولى إلى الجامعة، في جميع أنواع التعليم: العام والفني، المدني والعسكري. على أن يكون أساس هذه المادة: القرآن والسنة، وأن يرجع في فهمها إلى هُدي السلف المتقدّمين، لا إلى تعقيدات المتأخّرين، وأن تُوجّه العناية فيها إلى المبادئ والأصول قبل التفرّعات والتفصيلات، وأن تُعطى كلُّ مرحلة تعليمية من هذه الدراسة ما يلائمها سعة وعمقاً، وعلى هذا الأساس يُراعى ما يلي:

(أ) تُعرض العقيدة - في ضوء القرآن والسنة الصحيحة - بيسر وبساطة بعيداً عن تقعّرات المتكلمين.

(ب) يُعرض الفقه كذلك بعيداً عن اختلافات المذاهب، مع بيان الدليل وحكمة التشريع، وربطه بالحياة.

(ج) تُعرض الأخلاق كذلك بعيداً عن غُلُو المتصوفة وتعقيد الفلاسفة.

(د) يُعنى بالسيرة النبوية الثابتة وسير الصحابة ورجال الأئمة الإسلامية من القادة والعلماء والصالحين.

(هـ) يجب أن تُعنى كليات التجارة والاقتصاد والعلوم السياسيّة ونحوها بالتعمُّق في دراسة «الاقتصاد الإسلامي»، وأن يكون «الفقه الإسلامي» أساس الدراسة في كليات الحقوق.

خامساً: إعادة النظر في مناهج التعليم في كلِّ المراحل، وفي شتّى الموادّ، بحيث تُنقى من الأفكار اللادينيّة، والأفكار التبشيريّة، والمفاهيم الدخيلة على أُمَّة الإسلام بصفة عامة، وتوجيه عناية خاصّة إلى العلوم الإنسانيّة (التاريخ وعلوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد ونحوها)، لما تحتوي عليه من كثير من الأفكار المناوئة للإسلام، حتّى مناهج العلوم الكونيّة نفسها لا تخلو من سموم فكريّة، ولا بدّ أن تُصبغ هذه المناهج كلّها بالصبغة الإسلاميّة، وتُشبع بالروح الإسلاميّة، بغير تزوّت ولا تكلف، كما يجب أن تعمل هذه المناهج على تكوين العقليّة العلميّة، والروح العمليّة، والنفسيّة الإيجابيّة، والشخصيّة المتميزة التي لا تحيا مقلّدة ولا إمّعة.

سادساً: تأليف كتب تستجيب لهذه المناهج في محتواها وأسلوبها وطريقة عرضها، بحيث تغرس العلم والإيمان والأخلاق جميعاً في أنفس الناشئة، وتخطبهم باللغة التي يقدرّون على فهمها كما جاء في القرآن: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

سابعاً: إعداد مُعلِّمين صالحين قادرين على تحويل المنهج الصالح، والكتاب الملائم، إلى واقع ملموس، يتمثل في بشرٍ يفهمون ويهضمون ويتذوّقون ويعملون وفقاً لما تعلّموه. وذلك بما لديهم من كفاية ومقدرة فنيّة، وما يحملون في صدورهم من ضمائر مؤمنة، فهم في الحقيقة معلّمون ومربّون ودعاة في الوقت ذاته. وفي الحديث:

«إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحَوْتَ فِي الْبَحْرِ؛ لِيُصَلُّوا عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الْخَيْرِ»^(١).
ويتَّبَع ذلك إبعاد كلِّ فاسد الفكر أو الضمير عن مجال التربية والتعليم.

ثامناً: وقبل كل ما ذكرناه، يجب أن تتضح لدينا غاية التربية وفلسفتها، أعني أن تكون فلسفة التربية قائمة على هدف واضح منذ البداية، فلسنا نريد تربية الإنسان الثوري أو اليساري، ولا الإنسان الرجعي أو اليميني، ولا الإنسان الطبقي أو البروليتاري، ولا الإنسان الليبرالي أو الاشتراكي، ولا الإنسان العربي أو الإقليمي، ولا الإنسان القديم أو الجديد. إنما تقوم التربية على تكوين «الإنسان الصالح» وكفى.

والإنسان الصالح هو الذي حدّدت سماته الأساسية سورة «العصر» حيث قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

أ - فهو إنسان مؤمن صاحب عقيدة، وليس شخصاً سائباً ممّن غفل قلبه عن ربه، واتبع هواه، وكان أمره فُرطاً.

ب - وليس إيمانه مجرد فكرة نظرية، أو دعوى كلامية، فإنّه يتجسّد في «عمل» وليس أيّ عمل، بل «عمل الصالحات»، وهو تعبير قرآني، يعني: كلُّ ما «يُصْلَح» به الفرد والجماعة، و«يُصلَح» به الدّين والدنيا.

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٥)، وقال: حديث حسن صحيح غريب. والطبراني (٢٣٤/٨)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١٨٣٨)، عن أبي أمامة.

ج - وهو لا يكتفي بصلاحه في نفسه متفوقاً على «الحق» الذي آمن به، بل يجتهد أن يمدّ شعاع هذا الحق في المجتمع موصياً به وداعياً إليه، ومتقبلاً من غيره - من أهله وحملته - وصيتهم به، ودعوتهم إليه، متعاونين معاً في سبيل نشره وحمايته، وهذا معنى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾.

د - ثمّ هو بعد ذلك مستعد أن يحمل - مع أهل الحق - أعباء التواصي به مهما تكن التضحية، صابراً على مُرّ البلاء، وطول الطريق، وكثرة المعوّقات، موصياً بذلك غيره وقابلاً الوصية منه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

تاسعاً: يجب أن توضع للبلاد الإسلامية خطة لنظام ثقافي إسلامي، يُبنى على الأسس التالية^(١):

١ - وضع نظام ثقافي إسلامي موحد غير مزدوج الروح والمصدر، بحيث ينشئ عقلية واحدة لكل أبناء الأمة، هي العقلية الإسلامية، فلا ينقسم أبناء المجتمع المسلم بين تعليم قديم وتعليم حديث، بين تعليم ديني، وتعليم مدني. وإنّما هناك تعليم واحد هو التعليم الإسلامي.

٢ - صبغ التعليم في جميع درجاته وأنواعه، بالصبغة الإسلامية، أي أن يكون الجو العام للثقافة والتعليم هو جوّ العقيدة الإسلامية والمفاهيم الإسلامية.

٣ - إحداث وعي إسلامي عام، بحيث يكون هذا الوعي العقلي والنفسي وعياً لمبادئ الإسلام وتعاليمه، وقضايا الإسلام الكبرى في

(١) انظر: الفكر الإسلامي الحديث للأستاذ محمد المبارك ص ١٣١ وما بعدها، فصل: المشكلة الثقافية في العالم الإسلامي واقعها وعلاجها، نشر دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.

العصر الحاضر، ووعياً لوحدة العالم الإسلامي ومصادر قوته، وما يجابهه من أخطار.

٤ - الوقوف أمام الأنظمة الثقافية الأخرى التي غزت العالم الإسلامي من الليبرالية ديمقراطية غربية، ومن اشتراكية ماركسيّة شرقية.

٥ - وصل ما بين الدين والحياة بعرض المشكلات الحاضرة - على اختلاف أنواعها - على أساس الإسلام ونظرتة، وسدّ حاجات المجتمع الإسلامي عن طريق التعليم بمختلف تخصّصاته ودرجاته.

٦ - اختيار الطرق والأساليب الصالحة المناسبة لتعليم الدين وإدخاله في النفوس، فيراعى في ذلك السن والمستوى العقلي، مع العناية بالأصول والمبادئ وتقديم القضايا الهامة، والعودة إلى القرآن والسنة، ووصل ما بينهما وبين الآراء الفقهية.

عاشراً: وضع خطة لعمل موسوعات إسلامية عامّة وخاصّة، في مستوى الموسوعات العصرية العالمية، لخدمة الثقافة الإسلامية بمختلف جوانبها، ومن ذلك:

أ - موسوعة إسلامية عامّة: يكتبها علماء مسلمون من شتى ديار الإسلام في مختلف التخصّصات المتعلقة بالمعارف الإسلامية، على غرار «دائرة المعارف الإسلامية» التي كتبها المستشرقون، مع تلافي ما فيها من قصور أو تقصير أو تحامل.

ب - موسوعة للحديث النبوي: تشمل صحاح الحديث وحسانه، ممّا ثبت سنده وسلم متنه من الشذوذ والعلّة، مع تبويب جديد، وفهرسة

حديثه، ومع شرح مركّز، يُعِينُ على فهم كنوز السُّنَّة وأسرارها، وبهذا يستريح النَّاس من التعلُّق بالأحاديث الموضوعية والواهية، التي طالما أفسدت العقول، وكدّرت منابع ثقافتنا.

ويتَّبَع ذلك موسوعة لرجال الحديث، تضمُّ شتات ما تفرَّق في كتب الرجال، وتيسِّر للباحثين التحقيق والتمحيص.

ج - موسوعة للفقه الإسلامي: تعرض الفقه الإسلامي في مختلف مذاهبه وأقواله المتبوعة اليوم وغير المتبوعة، مع بيان مأخذها وأدلتها من الكتاب والسُّنَّة والاعتبارات الشرعيَّة الأخرى، كما تعرض لأصول الفقه وتاريخ الفقه وتطوره، وتعرض كذلك لكل جديد أصيل من بحوث المعاصرين مع بيان معاصرته، مرتَّبة على أحدث الأساليب العلميَّة في كتابة الموسوعات، ليسهل على كل باحث الانتفاع بها وبخاصة مع حسن الطباعة والإخراج والفهرسة.

وقد بدأت في ذلك محاولة في دمشق، انتقلت إلى مصر والكويت، وخرج من كل منهما أجزاء نافعة، وإن لم تخلُ من ملاحظات عليها، ولا بدَّ من تجميع الجهود لإخراج موسوعة واحدة شاملة، تليق بمكانة الفقه الإسلامي.

د - موسوعة للتاريخ الإسلامي: وتاريخ الإسلام يبدأ بالسيرة النبويَّة، فعصر الخلفاء الراشدين، فمن بعدهم. وهذا التاريخ في حاجة إلى أن تُعاد كتابته في ضوء منهاج جديد يحسن تقويم المصادر، وتحقيق الأسانيد، وتحليل الحوادث والشخصيات، مستفيداً من كتابات المستشرقين، لا معوّلاً عليها، على أن يعنى هذا التاريخ بالشعوب عنايته بالملوك والحكام، وأن يهتم بالعلماء والصالحين،

عنايته بالقادة والفتاحين، وأن يوجه همّه للدين والفكر، كما يوجّهه للحرب والسياسة. وأن يكون محور الكتابة هو الإسلام عقيدة وشرعية وحضارة ونظام حياة.

حادي عشر: وضع كتب إسلامية ملائمة لروح العصر، ذات مستوى رفيع، صالحة للترجمة للغات العالم الإسلامي، وللغات الحية، على أن تمتاز بسلامة المادة، وبوضوح الفكرة وجمال العرض وبلاغة الأسلوب، والبعد عن الحشو والفضول. وذلك عن طريق التكليف أو المسابقة، على أن تقرّها لجنة من كبار المختصين، المرموقين في العالم الإسلامي.

ثاني عشر: إنشاء مجامع علمية لخدمة الثقافة الإسلامية على مستوى العالم الإسلامي كله، وفي مقدمتها: «مجمع للفقهاء الإسلامي» يُعنى بالدراسات الفقهية، ويعمل على إبراز التراث الفقهي وتحقيقه وتطويره، ويُشرف على الموسوعة المنشودة، كما يقدّم مشروعات لتقنين الفقه الإسلامي من مذاهبه المختلفة، بعد الموازنة والتمحيص، لاختيار ما هو أرجح وأليق بمقاصد الشريعة، وأوفق بتحقيق المصالح التي هي مناط التشريع. ويُصدر حكمه في القضايا الجديدة التي تحتاج إلى اجتهاد جماعي من رجال غير مغمورين في علمهم ولا تقواهم.

ثالث عشر: التخطيط لإنتاج فني أدبي متكامل، يشترك فيه المفكرون والعلماء، والأدباء والشعراء، وكل من له إسهام في الجانب الفني، وذلك لتغذية أجهزة الإعلام والتوجيه - من إذاعة وتلفاز ومسرح وصحافة وخيالة وغيرها - بالأصيل والجاد من القصص والمسرحيات والتمثيلات

وغيرها من البرامج المتنوعة. وبخاصة تلك التي تتعلق بالإسلام ودعوته وكتابه ونبيه وتاريخه ورجاله وحضارته، لإعطاء صورة صحيحة ومشرقة عن الرسالة الإسلامية، والبطولة الإسلامية، والحضارة الإسلامية، والروح الإسلامية، بحيث يلتقي في رسم هذه الصورة الصدق التاريخي والجمال الفني.

في الناحية الاجتماعية:

الإسلام دين اجتماعي، فهو يسعى إلى إنشاء المجتمع الصالح، سعيه إلى تكوين الفرد الصالح، بل يرى أنَّ صلاح المجتمع لازم لصلاح الفرد، لزوم التربة الخصبة لإنبات البذرة ونحوها.

لا يتصور الإسلام الفرد المسلم إنساناً منعزلاً في خلوة، أو راهباً في صومعة، بل يتصوره دائماً في جماعة، حتى عبادته لربه، فقد دعاه إلى أن تكون في صورة جماعية، ومن هنا نشأت المساجد في الإسلام وتأكدت أهميتها.

ولو تخلف المسلم عن الجماعة وصلّى وحده، فإنَّ رُوح الجماعة تظلُّ متمثلة في ضميره، جارية على لسانه حين يناجي ربه، قارئاً داعياً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦].

والزكاة والحج كذلك عبادتان اجتماعيتان.

والقرآن يخاطب المكلفين بصيغة الجماعة فيقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، وسور أخرى. ليشعرهم بأنهم متضامنون في تنفيذ الأوامر، واجتناب النواهي، وأداء التكاليف.

والرسول يرغب دائماً في الجماعة، وينفّر من الشذوذ والانفراد، ويقول: «يُدُّ الله مع الجماعة، ومن شَذَّ شَذَّ في النار»^(١)، و«إنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية»^(٢).

ومن روائع ما ورد عنه قوله: «لا صلاة لمنفردٍ خلف الصف»^(٣). حتَّى أمر مَنْ صَلَّى خلف الصف أنْ يعيد صلاته، كراهيةً للشذوذ والانفراد، ولو في الصورة والمظهر.

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٧)، وقال: غريب من هذا الوجه. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨)، دون قوله: «وَمَنْ شَذَّ شَذَّ في النار». وضعفه النووي في شرح مسلم (٦٧/١٣)، ورواه الحاكم في العلم (١١٥/١)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧/٣)، وقال: غريب من حديث سليمان عن عبد الله بن دينار لم نكتبه إلا من هذا الوجه. وقال المناوي في فيض القدير (٣٤٤/٢): قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في تخریج المختصر: حديث غريب خرج أبو نعيم في الحلية واللالكائي في السُّنة، ورجاله رجال الصحيح لكنّه معلول، فقد قال الحاكم: لو كان محفوظاً حكمت بصحته على شرط الصحيح، لكن اختلف فيه على معتمر بن سليمان على سبعة أقوال، فذكرها وذلك مقتضى للاضطراب، والمضطرب من أقسام الضعيف. وقال السخاوي في المقاصد ص ٧١٦:

بالجملة فهو حديث مشهور المتن ذو أسانيد كثيرة وشواهد متعددة في المرفوع وغيره. قلت: وهناك من الدلائل ما يشهد لهذا الحديث، منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، فوجود هذه الأمة الهادية بالحق، يمنع أن تجتمع على ضلالة، ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَكْفُرُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ٨٩]، ومنها قوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، ومنها أحاديث الطائفة القائمة على الحق إلى قيام الساعة، التي سماها العلماء «الطائفة المنصورة»، فليعلم هذا.

(٢) رواه أحمد (٢١٧١٠)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الصلاة (٥٤٧)، والنسائي في الإمامة (٨٤٧)، والحاكم في التفسير (٤٨٢/٢)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وصحَّحه النووي في المجموع (١٨٧/٤)، عن أبي الدرداء.

(٣) رواه أحمد (١٦٢٩٧)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات. وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٠٣)، وقال ابن الملقن في البدر المنير (٤٧٤/٤): قال الإمام أحمد: حسن. وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٨٢٢)، عن علي بن شيان.

ويدعو الرسول بأبلغ الأساليب إلى كل عمل ينفع المجتمع، ويجعله أرجح عند الله، من نوافل العبادات، فاعتبر إصلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصيام والصدقة؛ لأنَّ فساد ذات البين هي الحالقة، ومثلها الحسد والبغضاء، إنَّها لا تحلق الشعر، بل تحلق الدين.

ويفرض على كلِّ مسلم، بل على كلِّ عظم في بدنه «صدقة» يوميَّة، يؤدِّيها خدمةً للمجتمع، ولو كانت إمطة للأذى عن الطريق، أو كلمة طيبة، أو تبسُّم الإنسان في وجه أخيه.

ويعنى الإسلام أكبر العناية بالأسرة، حتَّى تقوم على أسس متينة، وتستمرَّ في أداء رسالتها، بعيدة عن الهزَّات والقلقل، فهي المدرسة الأولى التي يتخرَّج في رحابها الأبناء الصالحون، والبنات الصالحات. وإنشائها من أفضل الأعمال المقرَّبة إلى الله، وتهديهما من أقبح الذنوب البغيضة إلى الله، حتَّى عدَّ القرآن من أعمال السحرة الكفرة «التفريق بين المرء وزوجه».

وعُني الإسلام بالمرأة خاصَّة، فكرَّمها بنتًا، وكرَّمها زوجةً، وكرَّمها أمًّا، وكرَّمها إنسانًا، وعضواً في مجتمع، وتحدث عن المسلمات والمؤمنات حديثه عن المسلمين والمؤمنين، ليعلم الجميع أنَّ النساء شقائق الرجال: ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وعُني بتربية الأطفال ورعاية الشباب؛ لأنَّهم أسلم فطرًا، وأقرب إلى نُصرة الحق: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

فلا عجب أن يُعنى الحل الإسلامي بالنواحي الاجتماعية، ويوليها اهتمامًا يليق بها.

وبحسبنا أن نبّه في هذا الجانب - مع أهميته القصوى - على النقاط التالية:

١ - الاهتمام بشأن المرأة المسلمة، بحيث تعود إلى فطرتها الأصلية، ورسالتها الجليلة، فتاةً مهذّبة، وزوجةً سالحة، وأمًّا فاضلة، تعنى بالبيت قبل الشارع، وبالمخبر قبل المظهر، وبأداء الواجبات قبل طلب الحقوق، وبالدين قبل الطين، ومقاومة التقليد الأعمى للمرأة الغربية التي تمرّدت على فطرتها ومهمّتها الأساسية في الحياة، وخرجت من مملكتها تراحم الرجال، فلا هي صارت رجلاً، ولا بقيت امرأة!

٢ - العناية بالطفولة: صحياً ونفسياً ودينياً، ومعونة كل أسرة عاجزة عن رعاية أطفالها رعاية كاملة، والعمل على إيواء المشردين، بحيث لا يوجد «ابن سبيل» إلا ويصبح ابن بيت، وأن تُهيأ لهم سبل التعلّم والرياضة والفروسية، ومنع تشغيل الأطفال الذين لا تبلغ أعمارهم اثني عشر عاماً، ليتاح لهم حقّ التعلّم والتمتع بالطفولة المرحّة.

٣ - العناية بالشباب الذين هم عُدّة الحاضر، وذخيرة المستقبل، والعمل على إعدادهم إعداداً متكاملًا: بدنيًا بالرياضة، وروحيًا بالعبادة، وعقليًا بالثقافة، وخُلُقياً بالفضيلة، وعسكريًا بالخشونة، واجتماعيًا بالخدمة العامّة.

٤ - مقاومة موجة التخنّث والتحلّل والتقليد الأعمى الذي أفقد الشباب المسلم شخصيته في زيّه ومظهره، وفي سلوكه ومخبره، بحيث يتوارى من المجتمع أولئك المتشبّهون من الرجال بالنساء، والمتشبّهات من النساء بالرجال.

٥ - منع الاختلاط المثير بين الجنسين في مجالات التعليم والعمل والترفيه، إلّا ما اقتضته الضرورة، فيُقدَّر بقدرها، مع مراعاة الأدب والاحتشام، وتشديد النكير على استغلال أنوثة المرأة في القيام ببعض الأعمال التي هي أليق بطبيعة الرجال.

٦ - مقاومة التقاليد الدخيلة الوافدة مع الاستعمار، من مساحرة «الأزياء»، وبدع «المودات»، ومظاهر التعرّي والتبذُّل، وتبرُّج الجاهليّة، وتهتك الإباحيّة، ونشر الآداب والتقاليد الإسلاميّة العريقة، التي لا تسمح بظهور الكاسيات العاريات المائلات المميلات. وتطهير المجتمع من أسباب الإغراء، ودواعي الإثارة، ووسائل التحريض على الفتنة.

٧ - تشجيع الزواج المبكر، وتهيئة الأسباب المُعينة عليه، والتغلب على التقاليد الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تعوقه، من غلاء المهور، والغلوّ في التأثيث، والإسراف في متطلّبات الأعراس، والاستجابة لتعقيدات العادات، مثل وجوب الاستقلال الاقتصادي لكلّ متزوِّج، إلى آخر ما عقّده النَّاس وعسّروه على أنفسهم، فعسّر الله عليهم.

٨ - إعطاء عناية بالغة لدراسة أسباب كثرة الطلاق، للعمل على تضيق نطاقه، واعتباره عملية جراحية أليمة لا يُلجأ إليها إلّا للحاجة الملحّة، تفادياً لما هو أكبر منها، واتّخاذ ما أمر به القرآن من التحكيم: ﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]. عند خوف الشقاق، رأياً للصدع، ومداواة للجرح قبل استفحاله.

٩ - الارتقاء بالفنّ بشتّى أنواعه، وفي مختلف مجالاته، بحيث يؤدّي رسالته في خدمة أهداف الأُمّة وقيّمها العليا، بالتوجيه والترفيه، بعيداً عن إثارة الغرائز، وتلويث الأفكار، سواء في ذلك الكلمة المكتوبة

والمسموعة والصورة المرئية واللوحة المرسومة، وكل ألوان الفنون التي تقوم عليها الكتابة والصحافة والإذاعة والتلفاز والمسرح والسينما وغيرها، وبذلك يغدو الفن أداة للبناء والإعلاء، لا معولاً للهدم والتدمير.

١٠ - تحريم شرب المسكرات بكل أصنافها، وإغلاق حاناتها، ومنع صنعها واستيرادها والتجارة فيها، حفظاً للعقول والأجسام والأخلاق من ويلات أم الخبائث، وسوء أثرها على الفرد والأسرة والمجتمع كله. ولا معنى - في مجتمع إسلامي - لتحريم المخدرات، ومطاردة مدمنيها وتجارها إلى حدّ الحكم بالإعدام عليهم في بعض الأقطار الإسلامية، على حين تُباح المسكرات جهرةً محادثةً لله ورسوله.

١١ - إغلاق أندية القمار (الميسر) بكل ألوانه كذلك، فهو أخو الخمر وقرينها في كتاب الله، فكلاهما رجس من عمل الشيطان، وصدق الله العظيم: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾ [المائدة: ٩١].

١٢ - إغلاق دور اللهو الحرام التي تُشيع الفاحشة، وتُنتهك فيها الحرمات، وتنشر وباء الفساد والانحلال: من مراقص و«كباريهات» وغيرها من بيوت الليل، ولا عبرة بما يقال من جلب السياح وكسب العملات الصعبة، فإنّ إثمها أكبر من نفعها، وأخلاق الأمة أولى من كسب رخيص: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

١٣ - القضاء على الرشوة بدراسة أسبابها، والعمل على تلافيتها، وتشديد العقوبة على المرتشي والراشي والرائش جميعاً. وتشديد الرقابة على الجهاز الإداري كله، ومحاولة إصلاحه، وتطهيره من العناصر

الفاسدة، والاجتهاد في وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وتقديم القوي الأمين على غيره ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أُسْتَجِرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]. وليس أضُرُّ على الأمم من تقديم أهل الضعف والخيانة، وتأخير أصحاب القوة والأمانة. فهذا هو الذي يقرب الأمة من ساعة هلاكها. وقد جاء في حديث البخاري عن النبي ﷺ: «إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فانتظر الساعة». فسئل: وكيف إضاعتها؟ قال: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ، فانتظر الساعة»^(١).

في الناحية الاقتصادية:

يتوهم الكثيرون أنَّ الدين لا يُعنى بالاقتصاد، فهما ضدَّان لا يلتقيان. فالإقتصاد يُعنى بالجانب المادي في الحياة، والدين يُعنى بجانبها الروحي. الإقتصاد استغراق في المادة، والدين استعلاء عليها.

بيد أنَّ هذا - إنَّ صحَّ في أديان آخر - لا يصحَّ في الإسلام، فقد اعتبر القرآن المال قوامًا للحياة حين قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥]. كما اعتبر الغنى نعمة يمتنُّ الله بها: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، ومثوبة يجزي بها المؤمنين من عباده: ﴿وَيُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٢]. ولم يغلق الرسول ﷺ ملكوت السماء في وجه الغني كما رَوَوْا عن المسيح على السلام، بل قال: «نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(٢).

(١) رواه البخاري في العلم (٥٩)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في البيوع

(٢/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في تخريج مشكلة

الفقر (١٩)، عن عمرو بن العاص.

وأشار القرآن والسُّنة إلى أهمية المؤثرات الاقتصادية في السلوك البشري، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]. وفي مثل قوله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»^(١).

وكان أحد الأركان الخمسة في الإسلام عبادة مالية هي «الزكاة»، وأحد الموبقات السبعة كبيرة مالية هي «الربا».

رغب الإسلام في الصناعة والاحتراف، وضرب لنا القرآن مثلاً بعدد من الأنبياء والصالحين من أهل الحرف، فنوح نجار يصنع السفن، وإبراهيم وإسماعيل بناءان يرفعان قواعد البيت، وداود حداد يصنع الدروع السابغات، وذو القرنين باني السد العظيم من زبر الحديد والنحاس المذاب.

ودعا كذلك إلى الزراعة والغرس والتشجير، بشرط ألا يكتفوا بالزراعة ويتبعوا أذناب البقر ويتركوا الجهاد.

وحتّ كذلك على التجارة، ونوّه بالتاجر الصدوق الأمين، ونهى عن الغش والاحتكار، والتلاعب بالأسعار.

وأقام الإسلام نظامه الاقتصادي على إقرار الملكية الفردية، لما فيها من إشباع الدافع الفطري في نفس الإنسان، ولما تُثمره من الشعور بالسيادة والقدرة، فمن شأن السيد الحر أن يملك ويتصرف، أمّا العبد فلا يملك ولا يتصرف.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٨٣٢)، ومسلم في المساجد (٥٨٩)، عن عائشة.

ولكنه وَضَعَ لِلْمَلِكِيَّةِ أسبابًا لاكتسابها، وقيودًا لتنميتها، وحقوقًا دورية وغير دورية عليها.

وقبل ذلك كله اعتبر المالِك الحقيقي للمال هو الله تعالى، والناس أمناء عليه، أو وكلاء فيه، وبتعبير القرآن: ﴿مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

ومن هنا كانت عناية الحل الإسلامي بالناحية الاقتصادية.

وأبرز ما يُراعى فيها الأمور الآتية:

١ - إتاحة العمل للملائم لكل مواطن قادر - باعتبار العمل حقًا له وواجبًا عليه - وتهيئة التدريب الكافي لكل ذي مهنة لتحسين مستوى كفايته الفنية، وبذلك يستطيع كل قادر على العمل أن يكفي نفسه بنفسه، وتحريم الصدقات والمعونات الاجتماعية تحريمًا باتًا على كل متعطل عن العمل الملائم له باختياره، اهتداءً بما جاء عن النبي ﷺ في قوله: «لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ، ولا لذي مرّةٍ سوى»^(١).

٢ - إعطاء الأجر العادل لكل عاملٍ بما يكافئ عمله، ويُغطي حاجته بالمعروف؛ فالنبي ﷺ أعطى في الغنائم الراجل سهمًا، والفارس سهمين^(٢) أو ثلاثة أسهم^(٣)؛ لأنَّ كفاية الفارس في الحرب فوق كفاية

(١) رواه أحمد (٦٥٣٠)، وقال مخرّجوه: إسناده قوي. وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، وقال: حسن. كلاهما في الزكاة، وصحّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه أحمد (١٥٤٧٠)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الجهاد (٢٧٣٦)، والحاكم في قسم الفيء (١٣١/٢)، وصحّحه ووافقه الذهبي، عن مجمع بن جارية الأنصاري.

(٣) كما في الحديث المتفق عليه: عن ابن عمر رضيهما، أن رسول الله ﷺ جعل للفارس سهمين ولصاحبه سهمًا. رواه البخاري (٢٨٦٣)، ومسلم (١٧٦٢)، كلاهما في الجهاد والسير.

الرجل. ثم إنه في الفيء أعطى العزب حظًا والأهل (المتزوج) حظين^(١)؛ لأن حاجة الأهل أكثر من حاجة العزب، «ويقاس على الأهل: صاحب العيال»، وبهذا وذاك يكون النبي ﷺ قد اعتبر العمل والكفاية، كما اعتبر الحاجة أيضًا. ولهذا قال عمر في شأن مال الفيء: والله ما أحد إلا وله في هذا المال حق، فالرجل وبلاؤه، والرجل وقدمه، والرجل وحاجته^(٢).

وبهذا يكون الإسلام قد خالف النظرية الشيوعية التي تعطي كلاً حسب حاجته فقط، والنظرية الاشتراكية التي تعطي كلاً حسب عمله فقط.

٣ - جباية الزكاة من كل الأموال: ظاهرة (الثروة الحيوانية والزراعية وزكاة الفطر)، وباطنة (أموال التجارة والنقود) بوساطة جهاز قوي أمين من «العاملين عليها» كما سمّاهم القرآن الكريم، مع وجوب توسيع قاعدتها، بحيث يشمل كل مال نام، وكل دخل فاضل عن الحوائج الأصلية، وتوزيعها على المصارف الثمانية، أو السبعة - بعد إلغاء الرق في عصرنا - عملاً بتوجيه القرآن: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، ويقول الرسول ﷺ: «تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»^(٣) وسُنَّته العملية وسُنَّه خلفائه الراشدين في بعث السعاة والعاملين إلى مختلف البلدان والقبائل لجمعها وتفريقها كما أمر الله رسوله.

وبذلك تُسهم هذه الفريضة في تمويل التكافل، وتحقيق العدل الاجتماعي، ومحاربة الكنز، ومقاومة الاستقراض بالربا، وانتشال

(١) رواه أحمد (٢٣٩٨٦)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٥٣)، وابن حبان في السير (٤٨١٦)، عن عوف بن مالك.

(٢) رواه أحمد (٢٩٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الخراج والإمارة (٢٩٥٠)، وقال الألباني في مشكاة المصابيح (٤٠٦٠): حسن موقوف.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (١٩)، عن ابن عباس.

المَدِينِينَ مِنْ ذُلِّ الدِّينِ، كَمَا تَسْهَمُ فِي تَنْشِيطِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، بِمَا يُصْرَفُ عَلَيْهَا مِنْ سَهْمِي «المؤَلَّفَةِ قُلُوبَهُمْ» وَ«فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

٤ - كِفَالَةُ الْمَعِيشَةِ الْكَرِيمَةِ، الَّتِي تَتَوَافَرُ فِيهَا «الْحَاجَاتُ الْأَصْلِيَّةُ» - حَسَبَ تَعْبِيرِ فَقْهَائِنَا - لِكُلِّ مُوَاطِنٍ عَجَزَ عَنِ الْعَمَلِ، عَجْزًا أَصْلِيًّا أَوْ طَارِئًا، عَقْلِيًّا أَوْ جَسْمِيًّا، أَوْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ عَمَلًا، وَلَمْ تَسْتَطِعِ الدَّوْلَةُ أَنْ تَهَيِّئَ لَهُ سَبِيلَ الْعَمَلِ الْمُنَاسِبَ لِمِثْلِهِ، أَوْ وَجَدَ عَمَلًا وَلَكِنْ كَانَ دَخْلُهُ مِنْهُ لَا يَكْفِيهِ، لِكثْرَةِ أَعْبَائِهِ الْعَائِلِيَّةِ، أَوْ لظُرُوفٍ عَارِضَةٍ زَادَتْ فِي مَعْدَلِ نَفَقَاتِهِ، كَمَرَضِ أَلَمٍ بِهِ، أَوْ بِأَحَدٍ مِنْ أَسْرَتِهِ، أَوْ لَغَلَاءِ الْأَسْعَارِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ.

فَمِنْ وَاجِبِ الدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ أَنْ تُوفِّرَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ يَعِيشُ فِي كَنْفِهَا - مُسْلِمًا أَوْ غَيْرَ مُسْلِمٍ - الْغِذَاءَ الصَّحِيَّ الْإِلَازِمَ، وَالْمَلْبَسَ الْوَاقِيَّ لِلْجَسْمِ فِي حَالَتِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْمَسْكَنَ الَّذِي يُكِنُّ صَاحِبَهُ وَيُسْتَرُّهُ وَيُشْعِرُهُ بِاسْتِقْلَالِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَالْعِلَاجَ الَّذِي يَزِيلُ عَنْهُ آلَامَ الْمَرَضِ وَيُسَيِّرُ لَهُ الشِّفَاءَ وَفَقًا لِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّعْلِيمَ الْمَجَانِي الَّذِي يَخْرِجُهُ مِنْ ظُلْمَةِ الْأُمِّيَّةِ وَالْجَهَالَةِ إِلَى نُورِ الْمَعْرِفَةِ وَالثَّقَافَةِ، وَيَتِيحُ لِدَوِيِّ الْمَوَاهِبِ أَنْ يَبْلُغُوا أَقْصَى دَرَجَاتِ التَّعَلُّمِ الْمُسْتَطَاعِ لِلْبَشَرِ، وَأَنْ يَسُدُّوا كُلَّ الثُّغَرَاتِ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْأُمَّةُ فِي مُخْتَلَفِ النُّوَاحِي، وَالَّتِي عَدَّهَا الْعُلَمَاءُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ.

وَمِنْ حَقِّ كُلِّ مُوَاطِنٍ فِي دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ أَنْ يُطَالَبَهَا بِهَذِهِ الْحَاجَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ إِذَا قَصَّرَتْ فِي تَوْفِيرِهَا لِمُسْتَحْقِيقِهَا، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١)، فَجَعَلَ مَسْئُولِيَّةَ الْإِمَامِ - رَئِيسِ الدَّوْلَةِ - عَنْ الْأُمَّةِ كَمَسْئُولِيَّةِ

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْجُمُعَةِ (٨٩٣)، وَمُسْلِمٌ فِي الْإِمَارَةِ (١٨٢٩)، عَنْ ابْنِ عُمَرَ.

ربّ البيت عن الأسرة. وهذا ما بدأ النبي ﷺ بتطبيقه بوصفه إمام المسلمين في عهده، وذلك حين قال: «أنا أولى بكلّ مسلمٍ من نفسه، مَنْ ترك مالا فلورثته، ومَنْ ترك دينًا أو ضياعًا^(١) فإليّ وعليّ»^(٢).

ولهذا كان ﷺ يقضي من بيت المال ديون مَنْ مات ولم يترك وفاءً.

وجاء عمر من بعدُ وقد اتّسعت ثروة الدولة الإسلاميّة، فبلغ بالتكافل مبلغًا لم تحلم به الإنسانيّة من قبل، ففرض عطاءً لكلّ مولودٍ في الإسلام، وأمر بإجراء معاشٍ أو راتبٍ لكلّ عاجزٍ عن العمل من أهل الذمّة من اليهود والنصارى.

٥ - مصادرة كلّ مال حصل عليه حائزه بطريق من طرق الحرام، وأكل أموال الناس بالباطل - كالغصب أو الاختلاس أو الرشوة أو استغلال النفوذ ونحوها - سواء أكان هذا المال عقارًا أم منقولًا، بشرط أن يثبت ذلك بتحقيق نزيه، وأن يفصل فيه قضاء عادل. وما ينتج عن هذه المصادرة المشروعة يُصرف في المصالح العامّة، أو في مصالح الفئات الضعيفة خاصّة.

٦ - أن يخضع موظفو الدولة - وبخاصّة الكبار منهم - لقانون «من أين لك هذا؟!» بحيث يُعاقبون على كلّ كسبٍ غير مشروع، بمصادرته كلّهُ أو بعضه بحسب قوّة الشبهة في الملك أو ضعفها، اقتداءً بما بدأ به النبي ﷺ من محاسبة ابن اللُّثيّة، وما سار عليه عمر من بعده في محاسبة ولاته ومشاطرتهم أحيانًا نصف ما كسبوا أثناء ولايتهم.

(١) يعني: أولادًا صغارًا ضائعين لعدم ما يكفيهم ومَنْ يكفيهم.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧٤٥)، ومسلم (١٦١٩)، كلاهما في الفرائض، عن أبي هريرة.

٧ - محاربة السرف والترف في المجتمع بالتشريع والتوجيه، توفيرًا للطاقات الماديّة والبشريّة التي تذهب هدرًا من جرّاء التسابق المجنون في اقتناء الكماليّات، بل المحرّمات، وحفاظًا على المجتمع من التفسخ والانحلال الذي ينذر به الترف كلُّ من غرق فيه، ووقاية للأمة من الحقد الطبقي والانقسام إلى أكثرية كادحة شبه محرومة من الحاجات الأساسيّة للحياة، وأقلية متنعمة مترهّلة تسمن على هُزال غيرها.

٨ - تقريب الفوارق الاقتصاديّة بين الأفراد والفئات، بالعمل الدائب على الحدّ من طغيان الأغنياء، والرفع من مستوى الفقراء، وتصفية الامتيازات التي توارثها بعض النّاس بغير حقّ، وإزالة المظالم التي يزرع تحت نيرها آخرون بالباطل، وتضييق الفروق - ما أمكن ذلك - بين أعلى الرواتب وأدناها، بحيث يختفي منظر الثراء الفاحش إلى جانب الفقر المدقع.

٩ - ومن ذلك: تقريب الفوارق بين القرية والمدينة، بحيث لا تستحوذ المدينة وسكّانها على جلّ اهتمام الدولة وجلّ خدماتها، وتترك القرية في زوايا النسيان أو الإهمال، فلا بدّ من مزيد من الاهتمام بالقرية ورفع مستواها صحّيّا واقتصاديّا وعمرانيّا واجتماعيّا وثقافيّا. فلولا القرية ما أكلت المدينة!

١٠ - تطهير كل المؤسسات الاقتصاديّة من رجس الربا، ومن كل معاملة تخالف شريعة الإسلام، وإنشاء مصارف (بنوك) إسلاميّة تتعامل على غير أساس الربا، وإلغاء كل البنوك التي لا تخضع لهذا الاتجاه، وبذلك تحرر الأمّة من نجاسة السُّحت، ومن شر آثار الرأسماليّة، ومن أخطبوط اليهوديّة العالميّة المتصرّفة في ذهاب العالم وبنوك الدنيا، ولا تأذن الأمّة بحرب من الله ورسوله.

وفيما كتبه أساتذة الاقتصاد الإسلاميون في مصر وباكستان وغيرها^(١) مجال رحب لمن يريد تحويل النظريات إلى واقع عملي، وإذا صدق العزم وضح السبيل.

١١ - وضع خطة على أساس علمي وإحصائي لزيادة ثروة الأمة وتنمية إنتاجها كمًّا ونوعًا، والاستفادة من التكامل الاقتصادي بين البلدان الإسلامية، للعمل على تحقيق الاكتفاء الذاتي فيما بينها، واتخاذ الوسائل الفعالة مادية ومعنوية، لدفع عجلة التنمية، وتنظيف المجتمع من كل الآفات النفسية والأخلاقية والثقافية والاجتماعية التي تعطل طاقات الشعب، وتحطم منجزاته، وتعوق مسيرته نحو التقدم.

في الناحية العسكرية:

وأهمُّ ما تجب ملاحظته فيها ما يأتي:

١ - تجنيد كل الكفايات والاستعانة بكل الخبرات - الإسلامية أولاً، والعالمية عند الضرورة -، لإعداد أقصى قوة حربية إسلامية مستقلة، تُرهب أعداء الله وأعداء المسلمين، وتكون قادرة على صدِّ المُغيَرين، وتأديب المعتدين، ومساندة المستضعفين، وعلى استرداد الأرض الإسلامية المغتصبة، وعلى الذُّود عن دعوة الإسلام، وعن دار الإسلام،

(١) راجع في ذلك كتابات الأستاذ عيسى عبده، وبنوك بلا فوائد للدكتور أحمد النجار، وعوامل النجاح في البنوك اللاربوية للدكتور محمد عزيز، وبحث الدكتور محمد عبد الله العربي عن الاقتصاد الإسلامي في كتاب المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، والبنك اللاربوي في الإسلام للأستاذ محمد باقر الصدر، وكتاب بعض النواحي الاقتصادية في الإسلام، الذي أصدرته أمانة المؤتمر الإسلامي في كراتشي، وهو يشتمل على عدة بحوث في الاقتصاد الإسلامي، وبحوث الشيخ محمد أبو زهرة، والسيد أبو الأعلى المودودي، والأستاذ محمود أبو السعود، وغيرهم.

مهما اتسعت أطرافها، استجابةً لأمر الله تعالى في كتابه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٢ - الاجتهاد في وضع خطة جادة متكاملة بالتعاون مع كافة المسلمين المخلصين، للاستغناء نهائياً عن استيراد العتاد والسلاح من دول تخالف فلسفتها وعقيدتها (أيديولوجيتها) عقيدتنا وفلسفتنا في الحياة، وقد تخالف سياستها سياستنا أيضاً، وبهذا تتحكم في سياستنا، وتوجهنا جبراً إلى سياستها، فلا تبيعنا من السلاح ما نريد، بل ما يوافقها، من حيث الكم والنوع والطاقة، وشروط الاستعمال، فضلاً عن حاجتنا إلى خبراء للأسف من غير أمّتنا، وهؤلاء يطلعون على أوضاعنا ويكشفون عوراتنا.

٣ - إشاعة «روح الجهاد» في الأمة، وتقوية الروح المعنوية بين أبنائها، وإعدادهم مادياً ومعنوياً، ليكون كلٌّ منهم «مقاتلاً في سبيل الله»، لا مزاحماً في سبيل الشهوات، وذلك إنّما يتمّ بأمور:

أ - فرض التجنيد الإجباري على كلّ شباب الأمة، وتدريبهم على أحدث أنواع القتال بأحدث أنواع الأسلحة، فإنّ القوّة الحربيّة ليست في السلاح وحده، بل في حسن استعماله، كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، حيث قال: «ألا إنّ القوّة الرمي، ألا إنّ القوّة الرمي، ألا إنّ القوّة الرمي»^(١).

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٧)، وأحمد (١٧٤٣٢)، عن عقبة بن عامر.

على أن يستمرّ هذا التدريب بين حين وآخر، بحيث لا تطول فترة انقطاع المدرّب عن سلاحه، فينسى، وفي الحديث: «مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ نَسِيَهُ، فَهِيَ نِعْمَةٌ جَعَلَهَا»^(١).

ولا يُعفى من هذا التجنيد إلّا ذوو العاهات والعجزة ممّن أعفاهم الله في كتابه: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ [النور: ٦١].

ب - الإعداد الفكري والنفسي المستمرّ للترغيب في الجهاد والتشويق إليه، بحيث يكون أبناء الأُمّة مستعدّين للجهاد في أي وقت، وأية حالة طارئة. ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يَحْدَثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»^(٢)، و«مَنْ لَقِيَ اللَّهَ بِغَيْرِ أَثَرٍ مِنْ جِهَادٍ لَقِيَ اللَّهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ»^(٣).

ج - محاربة أخلاق الضعف والخنوع، ومظاهر الميوعة والتخنّث، التي تُفسد الرجولة، وتقتل معاني العزة والكرامة، وتُشيع الطراوة والرخاوة ومعاني الانحلال، التي تأتي على الأُمّة من القواعد فتدمرها تدميرًا. ولهذا حرّم الإسلام على الرجال ما أباح للنساء كالذهب والحريّر، ليحفظ على الرجل رجولته وخشونته اللازمة لقيامه بعبء الجهاد.

(١) رواه البزار (٩٠٩٥)، والطبراني في الصغير (٥٤٣)، والأوسط (٤١٧٧)، وحسّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٠٢٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٩٤): صحيح لغيره. عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩١٠)، وأحمد (٨٨٦٥)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الترمذي (١٦٦٦)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه (٢٧٦٣)، كلاهما في الجهاد، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٦٠٥)، عن أبي هريرة.

د - وأخيرًا - وهذا أهمُّ من كل ما سبق - ربط الجهاد بالعقيدة التي تؤمن بها الأمة وتعيش لها، وتستعذب الموت في سبيلها، فإنَّ الجهاد من غير عقيدة يفقد معناه وروحه. وعقيدة أُمّتنا هي الإسلام. ولهذا لم تتجمع في تاريخها إلا على «الجهاد في سبيل الله». وقد فسّر رسولنا معنى «سبيل الله» فقال: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعِلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

وليس هناك أقوى تأثيرًا في تاريخ معارك أُمّتنا من مثل هذه الكلمات: «الله أكبر»، أو «وإسلاماه»، أو «هُبِّي يَا رِيحَ الْجَنَّةِ»!

في الناحية السياسيّة «الداخلية والخارجية»:

في السياسة الداخليّة:

أولاً: تستبعد الفكرة الغربيّة الدخيلة، القائمة على الفصل بين الدين والدولة، والعودة إلى الفكرة الإسلاميّة الأصيلة التي لا تعرف إلا «الإمامة»، التي هي منصب ديني وسياسي معاً، فهي رئاسة عامّة في الدّين والدنيا، أو نيابة عن رسول الله ﷺ في حراسة الدين وسياسة الدنيا به، كما عرّفها علماؤنا.

ثانياً: لا تنفصل السياسة في الإسلام عن العقيدة، ولا عن الشريعة، ولا عن الأخلاق، وإنّما ترتبط بها كلّها، وتلتزم بها كلّها، ولا يقرُّ الإسلام المبدأ القائل: إنّ الغاية تبرّر الوسيلة، فهو لا يرضى اتّباع الباطل لنصرة الحقّ، ولا يرى إلا الوسيلة النظيفّة للغاية الشريفة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى الأشعري.



ثالثًا: يجب تجنيد الكفايات الإسلامية «الفقهية والقانونية والسياسية» المخلصة، لتقوم بوضع دستور إسلامي^(١) يُحدّد نظام الحكم والعلاقة بين الحاكم والشعب، كما يحدّد الحقوق والواجبات للمواطنين في الدولة المسلمة، ويُفصّل اختصاصات السلطات، مستفيدًا من تجارب التاريخ والواقع، ومستهديًا قبل كل شيء بقواعد الشريعة ونصوص الكتاب والسنة.

رابعًا: يجب أن يتمّ اختيار رئيس الدولة بالبيعة ورضا الشعب، وعلى أساس من الشورى، وأن يكون للأمة وممثليها في ذلك الكلمة العليا، وأن يخضع هذا الرئيس لرقابة الشعب، ولا يعلو على كلمة الحقّ تقال في وجهه، كما لا يعلو على المثل أمام القضاء، إذا ارتكب أيّ مخالفة ظاهرة، وأن يتّضح ذلك كلّ في صلب الدستور.

خامسًا: يجب أن يؤكد هذا الدستور حقّ الفرد - الإنسان أو المواطن - في الحرّية، فقد ولدت الناس أمّهم أحرارًا، فلا يجوز أن يُستعبدوا لأمثالهم من الخلق.

ولسنا نعني بالحرّية: اتّباع الشهوات وانطلاق الغرائز السفلى، فهذه بهيمية لا حرّية، ولا نعني بها اتّباع الشُّبهات، وبلبلة الأفكار، وإثارة الفتن، فهذه فوضى لا حرّية.

(١) قامت عدة محاولات متفاوتة فردية وجماعية، لوضع دستور إسلامي، لا تخلو من ملاحظات واستدراكات، تقل في بعضٍ، وتكثر في بعض، منها «صياغة موجزة لمشروع دستور إسلامي» للأستاذ المودودي، ومحاولة الأستاذ أبي بكر الجزائري المدرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في كتابه «الدستور الإسلامي»، ومحاولة الشيخ النبهاني في كتاب «نظام الإسلام»، ومحاولة «جبهة الميثاق الإسلامي» في السودان قبل ثورة مايو ١٩٦٩م، ولعلها أقرب هذه المحاولات إلى الاعتدال والواقعية، وإن لم نرها منشورة في كتاب.

إنّما نعني بحُرِّيَّة المواطن أو الإنسان هنا: خلاصه من كلّ سيطرة تتحكّم في تفكيره أو وجدانه أو حركته، سواء أكانت سيطرة حاكم مستبد، أم كاهن متسلّط، أم إقطاعي ورأسمالي متجبر.

وحرية الإنسان أو المواطن لها هنا مجالات شتى:

أ - حُرِّيَّتَه في أن يفكر ويُعمل عقله الذي آتاه الله إياه، وفضّله به على كافّة الحيوانات. وليس من المقبول أن يُمنح الإنسان هذه الجوهرية، ثمّ يعطلّها ويجمّدها، ليفكر له غيره.

ب - حُرِّيَّتَه في التعبير عمّا يجيش به صدره، أو ينتهي إليه فكره، بالقلم أو اللسان، بالكتاب أو بالصحيفة أو بالخطابة، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]. فلا بدّ أن يُسمح له بأنّ يُبين عن نفسه، وإلّا كان كالحيوان الأعجم أو الجماد الأصم.

ج - حُرِّيَّتَه في اعتقاده، فلا يُكره على اتّخاذ دين بعينه، أو نخلة بعينها، أو على تغيير دينه بدين آخر، أو العيش بغير دين، أو على تعطيل شعائر دينه، أو غير ذلك ممّا يقلق ضمير الإنسان: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

د - حُرِّيَّتَه في نقد الأوضاع الجائرة والاتجاهات المنحرفة، والتصرفات الخاطئة، مهما يكن مركز من صدرت عنه، فليس أمام الحق كبير: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]. على أن يكون الحكم في ذلك والمقياس الأوحد هو الإسلام.

هـ - حُرِّيَّتَه في الاجتماع بغيره ممّن يرى رأيه، ليُكوّنوا معًا هيئة أو جماعة أو حزبًا، ما دامت هذه المؤسسة تقوم على أساس فكري سليم،

مبني على احترام عقائد البلاد ونظام حياتها الشرعي. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

و - حُرِّيَّتُهُ فِي كَسْبِ عَيْشِهِ، لِيَعْفَ نَفْسَهُ، وَيَكْفِيَ أَهْلَهُ، وَيَعُودَ عَلَى مَنْ حَوْلَهُ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُغْلَقَ عَلَيْهِ بَابُ الْعَمَلِ رَأْسًا، أَوْ يُضَيَّقَ عَلَيْهِ الْخِنَاقُ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِ رِزْقِهِ، حَتَّى يَعْمَلَ فِي غَيْرِ اخْتِصَاصِهِ أَوْ فِيمَا لَا يِلَائِمُهُ، أَوْ يُفْصَلَ مِنْ عَمَلِهِ اضْطِهَادًا وَعَقُوبَةً عَلَى غَيْرِ جَرِيْمَةٍ اقْتَرَفَهَا، تَسْتَحِقُّ أَنْ يُحْرَمَ هُوَ وَمَنْ يَعُولُ.

ز - حُرِّيَّتُهُ دَاخِلَ مَسْكَنِهِ الْخَاصِّ، فَلَا يُقْتَحَمُ عَلَيْهِ بَغَيْرُ إِذْنِهِ، وَلَا يُتَجَسَّسُ وَلَا يُتَسَمَّعُ عَلَيْهِ، وَلَا تُتَّبَعُ عَوْرَاتُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. وفي الحديث: «لَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ»^(١)، و«مَنْ اسْتَمَعَ حَدِيثَ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، صُبَّ فِي أُذُنِهِ الْآنُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

ح - أَنْ يَأْمَنَ عَلَى حُرْمَاتِهِ كُلِّهَا مِنْ أَيْ عُدْوَانٍ عَلَيْهَا مِنَ السُّلْطَةِ وَالْمَوَالِينِ لَهَا، وَهَذِهِ الْحُرْمَاتُ هِيَ:

١ - الدِّينَ، فَلَا يُسْتَخَفُّ بِهِ أَوْ يُهَانَ.

٢ - النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إِلَّا بِالْحَقِّ.

٣ - الْبَدْنَ، فَلَا يَجُوزُ تَعْذِيْبُهُ أَوْ إِذَاؤُهُ إِلَّا فِي عَقُوبَةٍ شَرْعِيَّةٍ قَامَتْ أَدْلَتُهَا وَانْتَفَتْ شَبَهَاتُهَا، فَإِنَّ ظَهَرَ الْمُؤْمِنُ حِمَى.

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢)، وقال: حسن غريب. وابن حبان في الحظر والإباحة (٥٧٦٣)، وقال الأرناؤوط: إسناده قوي. وحسنه الألباني في غاية المرام (٤٢٠)، عن ابن عمر.

(٢) رواه البخاري في التعبير (٧٠٤٢)، عن ابن عباس.

٤ - العرض - بمعنى الكرامة الشخصية للإنسان - فلا يجوز أن يُشتم أو يُسخر به في حضرته، أو يُؤذى ويُذكر بسوء في غيبته، أو يُحقر من شأنه، فإنَّ الله حَرَّمَ الأعراض، كما حَرَّمَ الدماء والأموال.

٥ - الأهل، فلا يجوز الاعتداء على زوجه أو أولاده أو أحد أبويه أو محارمه.

٦ - المال، فلا يجوز مصادرة مالٍ جمعه من حلال، ولم ينفقه في باطل، ولم يبخل به عن حق.

سادسًا: كما أكد الدستور حق الفرد في الحرّية والأمن على نفسه وأهله وماله وسائر حرّماته، يجب أن يؤكّد حقّ المجتمع في الحفاظ على كيانه ووجوده من انحرافات الأفراد وطغيان الأنانيات، وفي حماية عقائده وآدابه من دعاة التحلل والإباحية، وفي حماية شريعته ونظامه من دعاة التبعية للغرب أو للشرق، ومن وسائل ذلك إقامة الحدود والعقوبات الشرعيّة على مستحقيها.

سابعًا: يضمن هذا الدستور للأقليات غير المسلمة أن يعيشوا في كنف الإسلام أحرارًا في التمسك بعقائدهم، وأداء عباداتهم، وإقامة شعائهم، بشرط أن يحترموا مشاعر الأغلبية، ولا يجرحوا أحاسيسهم بما لا حاجة إليه، من افتعال التحديّات والتظاهرات التي لا تثمر إلا إغار الصدور، وأن يكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، إلا ما اقتضته ظروف دولة أيديولوجيا، تقوم في الأساس على فكرة الإسلام.

في السياسة الخارجية:

ثامنًا: أمّا السياسة الخارجيّة فتقوم على ما يأتي:



أ - اعتبار المسلمين حيثما كانوا أمة واحدة، جمعت بينهم عقيدة الإسلام وشريعته وأخوته، لا يفرق بينهم اختلاف جنسٍ أو لونٍ أو لغةٍ أو وطنٍ أو طبقة، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم.

ب - وكلُّ أرض استوطنها المسلمون، وقامت فيها شعائر الإسلام وشرائعه، وارتفعت فيها مآذن تنادي بالتكبير والتهليل، هي وطنٌ إسلاميٌّ يجب حمايته والدُّود عنه.

ج - وكلُّ بلد مسلم اعتُدي عليه، له حقُّ المعونة والنُّصرة والمساندة الماديّة والأدبيّة، حتّى يحرّر أرضه وينتصر على عدوه.

د - الأقليات المسلمة في شتّى بقاع الأرض هم جزءٌ منّا بحكم أخوة الإسلام، فلهم حقُّ المعاونة والمعاوضة، وعلينا مناصرة المستضعفين - والمضطهدين منهم - بكلِّ ما نستطيع من قوّة، ولو أدّى ذلك إلى حمل السلاح لإنقاذهم من طغيان الكفرة، وعدوان الفجرة، استجابةً لقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٧٥].

هـ - العمل على إزالة الحواجز المفتعلة بين بلاد المسلمين بعضهم وبعض، أو تخفيفها على الأقلّ ابتداءً، لتقوى بينهم الصلات، وتتوثق عُرا الأخوة والتعارف.

و - زيادة التعاون بين المسلمين في شتّى المجالات بدءًا بالمجالات الاقتصاديّة والثقافيّة والإعلاميّة والدفاعيّة، استجابةً لأمر الله بالتعاون على البرّ والتقوى.

ز - مناصرة الحركات التحرريّة في العالم كله، انطلاقًا من الفكرة الإسلاميّة التي ترفض استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، أيّا كان دينه وجنسه.

ح - الترحيب بالسلام بين الدول والشعوب، إذا كان قائماً على أساس من العدل والمساواة واحترام الحقوق، ورفع الظلم عمّن وقع عليه وإن طال الأمد، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

تاسعاً: العناية البالغة باختيار العناصر التي يوكل إليها سياسة الأمة، وقيادة سفينتها، فإنّ كلّ المبادئ والدساتير، تظلّ حبراً على ورق، ما لم تجد الرجال الأقوياء الأمناء الذين إذا حدّثوا صدقوا، وإذا وعدوا أنجزوا، وإذا أوّتمنوا أدّوا، وإذا عاهدوا وفّوا.

ومن ضرورة ذلك: وضع شروط ثقافيّة ودينيّة وخُلقيّة للمرشّحين للمجالس النيابيّة والشوريّة وسائر المناصب الكبرى، حتّى لا توضع قيادة الأمة في أيدي الجهلة أو الملاحدة أو الفسقة.

في الناحية التشريعية:

كان التشريع الإسلامي هو الموجّه الفذ، والمرجع الأوحد لحياة المجتمع الإسلامي في كل العهود السابقة، ومنه استمدت كل الأحكام، وعلى أساسه قامت كل العلاقات في كافّة النواحي المدنيّة والجناييّة والدوليّة والأسريّة التي يُطلق عليها الآن اسم «الأحوال الشخصية».

كان الجميع - حكّاماً ومحكومين - يستفتون هذا التشريع، ويحتكمون إليه في كل أمورهم، معتقدين قُدسيّته وبلوغه إلى الدرجة العليا في رعاية الحقّ والعدل، وتحقيق مصالح الفرد والجماعة، بلا إفراط ولا تفريط.



ولم يدُرْ بخَلَدٍ أحدٍ في أُمَّةٍ الإسلام أن يحتكم أبناؤها يوماً إلى أحكام غير أحكامه، ومبادئ غير مبادئه. كيف والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]؟!

ولكن الذي حدث أن الاستعمار الغربي الصليبي زحف على بلاد الإسلام منذ القرن الماضي، وأوائل القرن الحالي، فاحتل أكثر هذه البلاد، وتحكّم في رقاب أهلها، وأصبحت في يديه مقاليد الحياة كلها، من سياسة إلى تشريع، إلى تعليم، إلى تنفيذ.

فلا عجب أن أدخل قوانينه ومبادئه ونظرياته التشريعية، فأصبحت هي السائدة على كثير من المجتمعات، ولم تدع للشريعة إلا ركنًا ضيقًا في الحياة هو ما يسمّى بالأحوال الشخصية.

ومن هنا وجب - في نظر الحل الإسلامي - إعادة البناء التشريعي من جديد مراعيًا الأمور الآتية:

١ - النصّ في الدستور على أن المصدر الفذّ للقوانين في كافّة جوانب الحياة هو الشريعة الإسلامية بمصادرها الأصلية والتبعية.

٢ - النصّ على أن كل قانون يخالف النصوص القطعية أو الإجماع المتيقّن والدين واجب البطلان.

٣ - يمكن - مرحليًا إلى أن توضع قوانين إسلامية خالصة - أن تُراجع القوانين المعمول بها حاليًا، لتنقيتها من كل ما يخالف أحكام الشريعة، وإقرار ما يتفق منها مع هذه الأحكام، على أن يُربط بالشريعة وفلسفتها

بكتابة مذكرات تفسيرية من وجهة نظر الشريعة، وتكملة البناء التشريعي بما يفرضه الإسلام من أحكام وقواعد غُفِّل عنها القانون الوضعي.

٤ - يُلغى كل قانون يشتمل على امتياز لبعض الطبقات بغير مسوّغ، أو على ظلم لبعض الفئات بغير سبب، أو جَوْرٍ على حريات الأفراد بغير ضرورة.

٥ - أن تُكوّن هيئة عليا من الفقهاء المتصلّعين من أحكام الشريعة وأدلتها ومقاصدها، والمطلّعين على أحوال العصر وتياراته لمراجعة كل قانون جديد يصدر من الجهات المختصة، لإقراره بمقتضى الشرع، أو إلغائه إنْ خالف نصّاً أو قاعدة.

٦ - النُصُّ على إقامة الحدود والعقوبات الإسلامية التي شرعها الله، حفظاً للمجتمع، وردعاً للأشرار، وقطعاً لشأفة الجريمة، كحدود السرقة والحراقة والزنى والقذف والسُّكر وقتل العمد والرّدة، تلك التي تثبت بالقرآن والسُّنة، مع مراعاة التشدّد في أركان الجريمة وشروطها، ودرء الحدود بالشُّبهات ما وُجِدَ إلى ذلك سبيل.

٧ - اختيار أرجح الآراء الفقهية من شتّى المذاهب الإسلامية المعتمدة، وأليقها بتحقيق مقصود الشارع، وأبعدها عن التزمّت والتعسير، لئبني منها قانون إسلامي يجاري روح العصر، ولا يتجاوز أحكام الشرع.

٨ - أن يكون الفقه الإسلامي أساس الدراسة في كليات الحقوق، في كل الجامعات.

نسخة مجانية

شروط الحلّ الإسلامي

نحن نؤمن بحتمية حلّ واحد لكل المشكلات التي تعانيها هذه الأمة، سواء أكانت مشكلات اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية أم عسكرية أم فكرية وخلقية.

إنّه حل واحد، ولا حلّ غيره، هو الذي ينقذ هذه الأمة من تخبطها واضطرابها وحيرتها وعذابها، وذلكها وعارها.

إنّه «الحلّ الإسلامي» الذي يتمثل في قيام مجتمع إسلامي صحيح الإسلام، مجتمع توجّهه وتحكمه وتسوده عقيدة الإسلام، ومفاهيم الإسلام، وشعائر الإسلام، ومشاعر الإسلام، وأخلاق الإسلام، وتقاليد الإسلام، وقوانين الإسلام.

ولكن من الناس مَنْ يدّعون الأخذ بالإسلام، ويتمسّحون به ويزعمون أنّهم موالون له، وليسوا غرباء عنه، وأن ما يطبقونه فعلاً، أو ما يدعون إليه نظراً، هو الحل الإسلامي.

لهذا أردتُ أن أضع هنا جملة شروط أساسية لا يُعدّ الحل المنشود «حلاً إسلامياً» إلّا برعايتها وتوافرها فيه. كما لا تنهياً له أسباب النجاح إلّا بوجودها.



ضرورة الدولة المسلمة

أولاً: إذا كان الحل الإسلامي يعني قيام مجتمع إسلامي خالص للإسلام تتمثل فيه مقومات المجتمع المسلم وخصائصه، فإنَّ الشرط الأول لذلك: أن يقوم في رقعة ما من الأرض حكم إسلامي خالص، يقود المجتمع بكلمات الله وهداية الله.. حكم يرى النَّاس في ضوئه نموذجاً لفضائل الإسلام في وضوحه وشموله وتوازنه وتكامله وعمقه، مجسّدة في مجتمع. حكم يرى النَّاس في ظله نموذجاً للمجتمع المسلم، وللأمة المسلمة، التي تقوم على عقيدة الإسلام، وشرعية الإسلام، وأخلاق الإسلام، ومفاهيم الإسلام.

لا بدّ من قيام هذا الحكم أو هذه الدولة، لتعمل على تكوين المجتمع المسلم المنشود، وبعبارة أخرى: إعادة مجتمعنا إلى حظيرة الإسلام، إلى حقيقة الدين الذي يؤمن بأنه من عند الله، وتنقية هذا المجتمع - فكرياً ونفسياً وسلوكياً - من «الأجسام الغريبة» التي تسلّلت إليه، والجرائم الخفية التي أضرت به: من لوثات العلمانيّة والقوميّة والسلبية، وتوجيهه نحو «القُبلة الواحدة» التي تلقي عندها - وحدها - أفكاره وعواطفه، وتذوب أمامها كل الفوارق المصطنعة التي تخالف بين الناس. تلك القُبلة التي يمثلها شعار هذا الدين؛

كلمتا الشهادة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».. ثم قيادة هذا المجتمع - بالتربية والثقيف والتشريع - نحو الإسلام الحق: إسلام الفكر، وإسلام النفس، وإسلام السلوك، حتى يتأسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ويقوم تشريعه وتوجيهه كله على قواعد الإسلام، وتشيع القيم الإسلامية في نواحيه، وتسري في كيانه كله كالدم في العروق، والعمل على تثبيتها وتركيزها وحراستها من كيد أعداء الله وأعداء الإسلام.

ومن تصوّر قيام المجتمع المسلم - بكل مقوماته وكل خصائصه - بدون حكم إسلامي يوجهه ويرعاه ويحرسه، فقد أخطأ خطأين كبيرين: أخطأ أولاً: في فهم المجتمع المسلم، الذي يعتبر الحكم فريضة من فرائض دينه، ويعتبر التقاء الدين والدولة فيه خصيصة من خصائصه.

وأخطأ ثانياً: في ظنه إمكان قيام مجتمع إسلامي يوجهه حكم غير إسلامي: حكم علماني، قومي أو اشتراكي أو ليبرالي، وخاصة في هذا العصر الذي مكّنت فيه التكنولوجيا الحديثة الدولة من القدرة الهائلة على التأثير في الشعب بوساطة الأجهزة الجبّارة التي وضعها العلم في يديها، من الكتاب والمجلة والصحيفة، إلى الإذاعة المسموعة والمرئية (التلفزيون)، إلى المسرح والخيالة (السينما)، إلى المؤسسات التعليمية والتربوية التي تشرف الدولة عليها من مدارس المرحلة الأولى إلى الجامعة. وبهذا كله أصبحت قدرة الحكومات على التأثير في الشعوب وتغيير أفكارها وأذواقها واتجاهاتها من مميزات هذا العصر، كما ذكر ذلك الفيلسوف الإنجليزي المعاصر «برتراند رسل».

حاجة الإسلام إلى دولة:

ثم إنَّ الإسلام لو لم تجئ نصوصه المباشرة بإيجاب إقامة دولة له، لكانت حاجته إلى دولة لا ريب فيها، فهو يحتاج إلى دولة وحكم لأكثر من سبب، وأكثر من موجب.

أولاً: لحماية عقائده وتثبيتها، وإزاحة كل ما يشوّه جمالها، ويطمس نورها. ولهذا بعث النبي ﷺ علياً، ليسوّي القبور، ويحطم الأوثان^(١). إنَّ عقيدة الإسلام عقيدة انقلابية شاملة، لا ترضى أن تعيش على هامش الحياة، أو ترضى بالمكان الهون في صدور الناس وعقولهم، بل من شأنها أن تسود الحياة كلها، وتوجّه الأفكار والمفاهيم، والأقوال والأعمال، والأخلاق والسلوك، وتصبغ وجه المجتمع كله بصبغة الإيمان وصبغة الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

وثانياً: لإقامة شعائره وعباداته، والإعانة عليها، فإنَّ عبادات الإسلام لا يمكن أن تؤدّى حقَّ أدائها، إلّا في ظل دولة ترعاها وتقوم عليها.

أ - فالصلوات الخمس التي فرضها الإسلام كل يوم وليلة، وشرع أداءها في جماعة، وشرع لها الأذان، وبنى لها المساجد، لا بدّ أن تُشرف الدولة على ذلك كله، فتنشئ المسجد، وتنصب الإمام، وتهيئ المؤذن، وتراقب إقامة الفريضة، وأبرز ما يكون ذلك في صلاة الجمعة.

وعليها كذلك أن تُرغب في إقامة هذه الصلوات، وتشجّع عليها، وتقدّم أهلها على غيرهم. كما كان عمر رضي الله عنه يبعث إلى ولاته وعُمَّاله

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩٦٩)، وأحمد (٦٨٣)، عن عليّ.

يقول لهم: إِنَّ أَمْرَكم عِنْدِي الصَّلَاةُ، فَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لَمَّا سِوَاهَا أَكْثَرَ تَضْيِيعًا^(١).

وعليها بعد ذلك تأديب المستهترين بهذه الفريضة، بما يردعهم ويردُّهم إلى سواء السبيل.

ولقد اتفق فقهاء الإسلام على أَنَّ المسلم إذا ترك الصلاة جحودًا أو استهتارًا بما فرض الله، يخرج بذلك عن الإسلام، وعلى الحاكم المسلم أن يستتيبه حتَّى يعود إلى حظيرة الإسلام أو تُضرب عنقه.

فإذا تركها عمدًا كسلًا فإنَّ إجماعهم منعقد على ضرورة تأديبه وعقوبته، وإن اختلفوا في مدى هذه العقوبة، فالإمام أحمد يوجب قتله؛ لأنَّه يعتبر ترك الصلاة كفرًا، كما صحَّت بذلك الأحاديث.

والشافعي يوافق في عقوبة القتل، وإن لم يعتبره كفرًا، ومثله مالك. وأبو حنيفة يكتفي بإيجاب ضربه ضربًا شديدًا، وحبسه حتَّى يُصَلِّي، كتارك صوم رمضان.

وكذا لو ترك أهل بلد الأذان، أو تركوا الجماعة أو الجمعة، فلا بدَّ من تدخُّل الإمام أو نائبه - أي الدولة - لعقوبتهم، بما هو إجماع علماء المسلمين في شتَّى الأزمان والأقطار.

وكل ذلك يدلُّنا بوضوح على أَنَّ وجود الدولة أمر مفروض ومفروغ منه لإقامة فريضة دينية كالصلاة.

ب - والزكاة - وهي العبادة المالية الاجتماعية في الإسلام - لا يمكن أدائها كما شرع الله ورسوله إلَّا في ظل دولة.

(١) رواه مالك في وقوت الصلاة (٩)، تحقيق الأعظمي، وعبد الرزاق في الصلاة (٢٠٣٨).

فالأصل في هذه الفريضة أن يتولّى تحصيلها وتوزيعها الإمام أو نائبه، وبتعبيرنا الحديث «الدولة»، فليست الزكاة إحساناً فردياً يقوم به مَنْ يَرجو الثواب، ويخشى الدار الآخرة فحسب، بل هي ضريبة منظّمة تشرف عليها الحكومة المسلمة بواسطة الجهاز الإداري الذي سمّاه القرآن: ﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهِا﴾ [التوبة: ٦٠]. وجعل لهم سهماً في مصارف الزكاة، ممّا يدلُّ على أنّ للزكاة حصيلة قائمة بذاتها غير مخلوطة بخزانة الدولة العامّة^(١).

ولهذا خاطب الله رسوله بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وقد امتثل رسول الله أمر ربه، وأخذ الزكاة، وبعث السعاة إلى مختلف الأقاليم محصّلين وموزّعين، وأمرهم أن يأخذوها من أغنياء كل بلد ويردّوها في فقرائه.

ولمّا تمرّد بعض العرب في خلافة أبي بكر على أداء الزكاة، أبى إلّا قتالهم حتّى يؤدّوا حق الله، وحقّ الفقراء في مالهم، وأجمع الصحابة معه على ذلك، وقال كلمته المعروفة: «والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه»^(٢).

ج - وصيام رمضان وقيامه لا يتحقق كما ينبغي إلّا في ظل دولة تُعين الصائمين على صيامهم، وتشجّع القائمين على قيامهم، وتعاقب المتعمّدين للإفطار على إهانتهم لشعائر الله، وتحديثهم لمشاعر المسلمين.

د - والحج - وهو تلك العبادة الفريدة التي فرضها الله على المسلم المستطيع في العمر مرّة - لا يمكن أدائها إلّا في ظل دولة تيسّر وسائل

(١) انظر كتابنا: فقه الزكاة (٧٥٨/٢ - ٨٠٢)، نشر مكتبة وهبة، ط ٢٥، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

هذه الرحلة المقدّسة، وتحمي المسافرين إلى البيت العتيق، وتخلّفهم في أهليهم وأموالهم حتّى يعودوا.

ولكي نعرف هذا جيّدًا، يجب أن نذكر أنّ هناك عشرات الملايين من المسلمين في الاتّحاد السوفيتي، في بلاد البخاري وغيره من الأئمة، ظلّوا عشرات السنين لا يحج منهم أحد، ومثلهم كذلك المسلمون في تركيا في عهد «أتاتورك» وأتباعه.

ثالثًا: والإسلام في حاجة إلى الدولة لغرس آدابه وأخلاقه في أنفس أبنائه والناشئة خاصّة.

إنّ مناهج التربية والتعليم، ووسائل الثقيف والإعلام، وأدوات التوجيه والترفيه، يجب أن تسير كلها وفقًا لمفاهيم الإسلام، وآداب الإسلام، وأنّ تعمل كلها على غرس فضائل الإسلام، وتنظيم حرّمات الإسلام.

يجب أن يكون الكتاب والرسالة، والمجلة والصحيفة، والقصة والمسرحية والفيلم والأغنية، وكل ما ينتجه العلم والأدب والفن في خدمة الإسلام ومثله العليا.

أما أن يكون المسجد والمنبر في جانب، والمدرسة والجامعة، والصحافة والإذاعة، والتلفزيون والسينما والمسرح، وكل أجهزة التأثير والدعاية والتوجيه في جانب آخر، جانب التحلل من الدين، والإضرار بقيمه، والسخرية بتعاليمه، فهيهات أن يُغني صوت المنبر شيئًا، وهذا إذا افترضنا أن تتاح له الحرّيّة ليقول كلمة الحق. وما تغني كلمة خافتة في ساعة من الأسبوع تضيع وسط الضجيج والصخب الهائل الذي تخرجه الإذاعات والصحف والأبواق الهدّامة هنا وهناك؟!!

متى يبلغُ البنيانُ يومًا تمامه إذا كنتَ تبنيه وغيرُك يهدمُ^(١)؟

رابعًا: ثمَّ هناك التشريعات والقوانين التي جاء بها الإسلام، لينظم بها جوانب هامة من الحياة في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كقوانين الأسرة والميراث والنفقات في الأحوال الشخصية، وكتحريم الربا والقمار والخمر والاحتكار في القانون المدني، وكقطع يد السارق وجلد الزاني والقاذف وشارب الخمر، والقصاص من القاتل المتعمد، وقتل الزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة في قانون العقوبات.

مَن الذي يقوم على تنفيذ هذه التشريعات، ونقلها من نصوص نظرية إلى واقع تطبيقي إلا الدولة؟

مَن الذي يرفع الحقوق، ويحرس القوانين، ويقيم الحدود، ويحفظ الأمن إلا الدولة؟ إنَّ النبي ﷺ يقول: «لَحَدُّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا ثَلَاثِينَ صَبَاحًا»^(٢). لأنَّه لا خير في إمطار السماء، ولا إنبات الأرض إذا انتهكت الحرمات، وأهدرت الحقوق، وسيطر على الأرض الظلمة الفجرة، والزناة والسَّكَّيرون، فلا بدَّ من قوَّة ماديَّة رادعة تكفُّ المجرم عن إجرامه، وتزجر غيره عن تقليده.

(١) من شعر صالح بن عبد القدوس كما في البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٨/٣)، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

(٢) رواه أحمد (٨٧٣٨)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. والنسائي في قطع السارق (٤٩٠٤)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٨)، وابن حبان في الحدود (٤٣٩٧)، وقال الأرناؤوط: رجاله ثقات. وحسنه الألباني بلفظ «أربعين» بدل «ثلاثين» في ابن ماجه (٢٠٥٧)، عن أبي هريرة.



لا بدّ من قوّة الحديد بجانب هداية الكتاب والميزان، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فَمَنْ عدل عن الكتاب قُومَ بالحديد، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف».

وقد روي عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا - يعني: السيف - مَنْ عدل عن هذا^(١). يعني: المصحف^(٢).

خامساً وأخيراً: هناك فريضة الجهاد لحماية دعوة الإسلام وأرض الإسلام، وتبليغ رسالة الإسلام إلى العالمين، حتّى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

إنّ الرسول ﷺ يقول: «مَنْ مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من النفاق»^(٣).

فهل يمكن أن يتمّ هذا الجهاد بدون دولة، تُهيّئ الأمة له بالتدريب، وإعداد ما استطاعت من قوّة، وتوزيع أبناء الأمة على الأعمال العسكرية والعلميّة والاقتصاديّة وغيرها بالقسط الذي تملّيه المصلحة العامّة، واستنفار النّاس جميعاً عند الضرورة، وهو ما يُعرف اليوم بالتعبئة العامّة ونحو ذلك، ممّا لا يتأتّى تحقيقه إلّا في ظل دولة مسؤولة؟

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٤٣٦/٣)، وصحّح إسناده على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٦٤/٢٨)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

(٣) سبق تخريجه ص ٧٧.

ومن هنا نعلم أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اَتَاَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]، ونحوها من الآيات لا يتيسر تنفيذها إلَّا في ظل سلطان دولة.





الاستمداد في مصادر الإسلام

ثانيًا: والشرط الثاني لكي يكون الحل إسلاميًا: أن تستمد عناصره من منابع الإسلام الصافية، من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله الصحيحة الثابتة. من الإسلام النقي المصفى من الشوائب والتشويهاات والفضول والانحرافات، التي لحقت به وأضيفت إليه على مختلف العصور.

لا بدّ من الرجوع إلى الإسلام الصحيح، الإسلام كما أنزله الله، وكما دعا إليه رسوله محمد ﷺ، وكما فهمه الصحابة وتابعوهم بإحسان، بعيدًا عن تزمت المتزمتين، وتحلل المتحللين، بعيدًا عن غلو الغالين، وتقصير المقصّرين.

لا يستحق حلّ شرف الانتساب إلى الإسلام، ما لم يكن مصدره الإسلام الخالص، لا الماركسيّة ولا المادّيّة، ولا الديمقراطيّة ولا الرأسماليّة، ولا الليبراليّة وغيرها من مذاهب البشر، وفلسفات البشر أيّا كانوا.

الحل الإسلامي - إذن - هو الذي يطوّع كل الأوضاع، وكل الأنظمة لأحكام الإسلام، وليس هو الذي يطوّع أحكام الإسلام لأوضاعه وأنظمتها؛ فالإسلام يعلو ولا يُعلَى، ويقود ولا يُقاد، ويوجّه ولا يوجّه؛ لأنّه كلمة الله، وكلمة الله هي العليا.

الحل الإسلامي هو الذي يتخذ الإسلام وحده مصدر الإلهام، ومصدر الإلزام، مصدر الإلهام في الشؤون الفكرية، ومصدر الإلزام في الشؤون العلمية.

ولو ذهبت فلسفات الأرض كلها - فرضًا - إلى أن الإنسان لا حياة له بعد هذه الحياة، وقال الإسلام: إن الإنسان خُلِقَ للخلود، للأبد، لحياة أخرى بعد هذه الحياة، فماذا يتبنّى الحل الإسلامي؟ ليس له أن يتبنّى غير كلمة الإسلام، وفكرة الإسلام. عليها يبني فلسفته، ويقيم حياته، وينشئ مؤسساته التربوية والثقافية والإعلامية كلها، ويصدر في كل أموره عن هذه الفكرة.

ولو قالت كل شرائع الأرض - افتراضًا -: إن منافع الخمر أكبر من إثمها، وإن شربها لازم للتقدم البشري، وقال الإسلام: إنها رجس من عمل الشيطان، وإن إثمها أكبر من نفعها، وإنها أم الخبائث. فالحل الإسلامي هو الذي ينقاد لكلمات الله، وحكم الإسلام، ويبادر إلى إغلاق الحانات، وتحريم الخمر: شربها وصنعها واستيرادها، وبيعها وشرائها، وكل ما يعين على تناولها أو ييسره.

ومثل ذلك: إذا قال الإسلام: إن إباحة الربا إيذان بحرب من الله ورسوله، فالحل الإسلامي ليس له إلا أن يمنع الفوائد الربوية، وأن يجنّد كل الطاقات الفنية والمادية لإنشاء «بنوك إسلامية»، تحل محل «البنوك الرأسمالية»، التي نجّسها خبث الربا.

وإذا قال الإسلام: إن الناس سواسية كأسنان المشط، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن لا مجال في الإسلام لطبقات يستعلي بعضها على بعض، أو يقهر بعضها بعضًا، فالحل الإسلامي هو الذي



يقيم نظامه الاجتماعي ونظامه السياسي على أساس هذه المساواة، فلا امتيازَ لفردٍ على فرد، ولا امتيازَ لأسرة على أسرة، ولا امتيازَ لطبقة على طبقة، بل كلهم سواء في المغنم والمغارم، في التكاليف والعقوبات، حتّى رئيس الدولة نفسه، يكلف بما يكلف غيره من الفرائض، ويزيد على غيره بما حمل من أمانة المسؤولية عن الأمة. كما قال عمر بن عبد العزيز بعد أن وليّ الخلافة: «إنما أنا واحد منكم، غير أنّ الله جعلني أثقلكم حملاً»^(١).

كما أنّه يخضع لقانون الشرع وحكم القضاء، ويطالب بالبيّنة، كما يخضع سائر الرعية، حتّى رأينا أمير المؤمنين عليّاً رضي الله عنه، يقف مع نصرانيّ في دعوى مدنية، أمام القاضي شريح، فعجز عليّ عن إقامة البيّنة، فيحكم شريح للنصراني على أمير المؤمنين، وهو يوقن أنّه صادق، كما أقرّ النصرانيّ نفسه بعد ذلك، وأعلن إسلامه^(٢)، ولكنّه عدل القضاء الإسلامي، ومساواته حتّى بين أمير المؤمنين وأحد رعاياه من غير المسلمين!

وإذا أمر الإسلام بوجوب التكافل بين الأغنياء والفقراء، وفرض الزكاة على ذوي الغنى - باعتبارها الحد الأدنى الواجب في المال - وبرئ ممّن بات شعبان وجاره جائع، ومن أهل عَرَصَة بات فيهم امرؤ جائع، وأوجب تخصيص الفئات الضعيفة - مثل اليتامى والمساكين وأبناء السبيل - بالحظ الأعظم من الفيء: ما يفيئه الله من أموال على الدولة المسلمة: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

(١) رواه ابن سعد في الطبقات (٣٤٠/٥)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨٦/٤٢، ٤٨٧)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

فالحل الإسلامي هو الذي يقيم سياسته الاقتصادية والاجتماعية على الدعائم الإسلامية الواضحة: محاربة الفقر والجوع، وفرض التكافل بسلطان الدولة - وأوله جباية الزكاة - وتوزيع الثروة وخيرات الدولة بالعدل، بحيث لا يأخذ الأغنياء والحكام ومحاسيبيهم نصيب الأسد، ولا ينال الضعفاء إلا الفتات. بل الحل الإسلامي هو الذي يعمل جهده ليرفع من مستوى الفقراء، ويحُدّ من طغيان الأغنياء.

وإذا قال الإسلام: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةٌ، وَإِنَّ الرابطة الإسلامية فوق الرابطة القومية والوطنية - بل فوق رابطة الأبوة والبنوة والأخوة النسبية - فالحل الإسلامي هو الذي يُقيم سياسته العملية على الولاء لأمة الإسلام، والعداء لأعداء الإسلام، والعمل الجاد المخلص المستمر على إعادة الوحدة الإسلامية والخلافة الإسلامية.

وإذا قال الإسلام: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]. فالحل الإسلامي هو الذي يقول: سمعنا وأطعنا يا رب. ويقيم فقهه وفكره وتشريعه وقضائه على أساس حكم الله، الذي لا يُتصوّر أن يوجد حكمٌ أعدلُ منه، ولا أرحمُ منه، ولا أجدر بتحقيق مصلحة المجتمعات البشرية منه، فينفذ حدَّ الله على اللصّ الكبير، كما ينفذه على اللصّ الصغير، على وفق الحديث الشهير: «وايم الله، لو سُرقت فاطمة بنت محمد لقطعتُ يدها»^(١).

وإذا شرع الإسلام الطلاق عند تعذُّر الوفاق، وفشل وسائل التقريب والإصلاح، فالحل الإسلامي هو الذي ينقاد لشرع الله، فيحلُّ ما أحله،

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)، عن عائشة.

كما يحرم ما حرّمه، غير مصغٍ إلى مطاعن الأفّاكين، وأكاذيب المفتريين، الذين يريدون إدخال الشرائع المسيحية في قلب المجتمع المسلم.

وإذا أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج بأكثر من واحدة، لاعتبارات ومبررات رآها، وبقیود وشروط أوجب رعايتها، فليس للحلّ الإسلامي أن يستدرّك على الله، ويحرّم ما أحلّ الله، سيرًا في ركاب الذين لا يؤمنون، واتباعًا لأهواء الذين لا يعلمون. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ * هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿[الجاثية: ١٩، ٢٠].

ليس بحلّ إسلامي ذلك الذي يبيح الخمر ويفتح الحانات، بدعوى تنشيط السياحة والحاجة إلى العملة الأجنبية، فإنّ الله حرّم على المسلمين السماح للمشرّكين بدخول المسجد الحرام، مع ما كان في دخولهم إليه حاجّين من مكاسب اقتصادية، ولكنّه ضرب بهذه المكاسب عرض الحائط، حفاظًا على عقيدته ومثله قائلاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وليس بحلّ إسلامي ذلك الذي يُبيح الربا، ويُقرّ «البنوك الربوية»، بدعوى أنّها دعامة الاقتصاد الحديث، ولا يُستطاع الاستغناء عنها، فإنّ الله لم يحرم على الناس شيئًا يتعذّر عليهم الاستغناء عنه أبدًا، وقيام الحياة الاقتصادية بغير ربّا ممكن نظرًا، وواقع عملاً، وإذا صدق العزم وضح السبيل.

وليس بحلٍّ إسلامي ذلك الذي يقطع الروابط بين المسلمين، أو يُسوِّي بين أبناء الإسلام وأعداء الإسلام، بدعوى أنَّ الرابطة الدينيَّة الآن لا تصلح للعصر، أو أنَّها تثير الطوائف الأخرى من غير المسلمين، فكل هذه تعلّات لا يقبلها مسلم اتخذ الإسلام حكمًا ومنهاجًا. وفي العالم دول وكتل ضخمة قامت على عقائد وأيديولوجيات لا دينيَّة، فلماذا تُرفض الأيديولوجيا الدينيَّة وحدها؟

ليس بحلٍّ إسلامي ذلك الذي يعطلُّ حدود الله وعقوباته المقدَّرة في كتابه وعلى لسان رسوله، من قطع يد السارق، أو جلد الزَّناة المجاهرين، والسَّكَّيرين، أو القصاص من القاتل المتعمَّد، أو غير ذلك ممَّا شرعه الله تأديبًا للمنحرف، وزجرًا للشَّير، وتطهيرًا للمجتمع كله من أسباب الفساد والإجرام. ليس بالحلِّ الإسلامي ذلك الذي يُعرض وينأى بجانبه عن أفكار الإسلام الثابتة، وقيم الإسلام الخالدة، ونصوص الإسلام الصحيحة الثبوت، الصَّريحة الدلالة، ثمَّ ينحني خاشعًا أمام أفكارٍ ومناهجٍ وقيمٍ وأنظمة تأتي بها حضارة أجنبيَّة، أو شريعة أرضية، أو شريعة مبدَّلة منسوخة، انحناء العابد لمعبوده. فإذا وُوجه بالنصوص الإسلاميَّة، والقواعد الشرعيَّة، أخذ يلفُ ويدور، جريًا وراء بعض المتشابهات التي لا تشفي غليلاً، ولا تهدي سبيلاً.

هناك في بعض البلاد العربيَّة - على سبيل المثال - طائفة من النساء المحترفات بالقضيَّة النسوية، وإن شئتَ فقلْ: هناك طائفة من الرجال الذين يُحرِّكون بعض النساء العصريات. هؤلاء وأولئك يريدون أن يفرضوا على المجتمع الإسلامي في الزواج والطلاق قوانين غير إسلاميَّة. إنَّهم يحاولون أن يدخلوا على هذا المجتمع المسلم الزواج والطلاق على الطريقة الأوربية، التي تأخذ شكل النصرانية، وهي في الواقع إباحيَّة

لا دينية، يريدون أن يُحرّموا تعدّد الزوجات، ليبيحوا من ورائه تعدد الخليلات. يريدون أن يُقيّدوا الطلاق ليعاشر الرجل في الحلال من يكره، ويبحث في الحرام عمّن يحب. وهؤلاء لا يبالون بالحرام ولا ينكرونه، ولا يسخطون عليه، كل ما يهمهم أن ينقلوا التقاليد الأوربية الانحلالية إلى البيئة الإسلامية، إرضاءً لسادتهم، أو لشعورٍ خفيّ في أنفسهم.

والمجتمع المسلم يقاوم هذه التقاليد الدخيلة، ويأبأها ويرفضها؛ لأنّه لم يزل حريصاً على دينه، وخاصّة في هذه البقية التي بقيت له من شريعة ربه، والتي تترتب عليها عشرةٌ دائمة، ونسب وميراث، إلى غير ذلك. ولهذا يستفتي الناس علماء الدين في كل صغيرة وكبيرة في هذا الشأن.

هذا هو موقف المجتمع المسلم من هذه القوانين التي يُراد أن تُفرض عليه، فماذا يصنع تلامذة التبشير الاستعماري والاستعمار التبشيري أمام هذا الإباء أو الثبات كما نسّميه، أو التزمّت والجمود كما يسّمونه؟!

إنّهم يبحثون حينئذٍ عن بعض الفارغين، الذين فرغت رؤوسهم من العلم وقلوبهم من اليقين، ممّن ينتسبون إلى الدين شكلاً، يبحثون عنهم لينتزعوا منهم بعض الفتاوى المنحرفة، والأقوال المرفوضة، ليطيروها في الآفاق، وينفخوا فيها وفي أصحابها، ويؤهموا الشعب المسلم أنّ الذي يجرّ إليه من الشرائع والتقاليد لم يخرج عن الإسلام.

هل يُعد هذا الحل المستورد من الغرب «حلاً إسلامياً» حقّاً لما نعانیه من سوء استعمال بعض الرجال المسلمين لحقوقهم في الطلاق أو في الزواج بأكثر من واحدة؟

لا ثمّ لا، ليس هذا الحل من الإسلام في شيء، وإنّ أفتى المفتون الخادعون والمخدوعون.

متى يجوز لنا الاقتباس من غيرنا؟ وكيف؟

لست أدعو إلى العزلة وإغلاق كلّ النوافذ على المجتمع المسلم، وتحريم أي اقتباس من أية حضارة، فما إلى هذا أردت. فإنّ من خصائص «المجتمع المسلم» الجمع بين الثبات والمرونة؛ فهو مجتمع تلتقي فيه صلابة الحديد، ورقة الماء السلسيل، كما قال الشاعر الفيلسوف إقبال.

يجب على المسلمين اقتباس كل ما أمكنهم من العلوم الماديّة والتطبيقية، وما يتعلّق بها، ليكونوا في مركز الأقوى دائماً، فهذه العلوم - كما حقّق علماؤنا - من فروض الكفاية. كما أنّ واجب الجهاد الإسلامي، والسيادة الإسلاميّة، لا يتّمان إلّا بإتقانها والتفوّق فيها، وعلماء الإسلام متّفقون على أنّ ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب.

على أنّ هذه العلوم قد ظهرت من قبل في ظل الحضارة الإسلاميّة، وبإيحاء المنهج الإسلامي في المعرفة وتوجيهه. ثمّ انتقل قبس من هذا النور إلى الغرب المسيحي في غفوة الشرق المسلم، فاستفاد من هذا القبس ونمّاه ووسّع دائرته، فإذا عاد المجتمع المسلم يأخذ من الغرب ثمرات هذا المنهج من العلوم والتقنية، فهي بضاعته رُدّت إليه، وضالّته رجعت إلى حظيرته.

ولا حَرَج على المسلمين أن يقتبسوا من غيرهم أي نظام جزئي، يرى ذوو الرأي وأهل الحل والعقد فيهم أنّه نافع لمجتمعهم، ملائم لطبيعتهم وحضارتهم كنظام للسير والمرور، أو لتوزيع البريد، أو لتخطيط المدن، أو لتنظيم الجيش وتدريبه أو غير ذلك، بشرط ألا يخالف نصّاً ثابتاً، ولا قاعدة شرعيّة. وعليهم أن يحوِّروا ويُعدّلوا في أي نظام يقتبسونه حتّى يصبح ملائماً للوضع الإسلامي الصحيح.

أنا أعلم أنّ فريقاً من المسلمين المتشدّدين يرفضون أي اقتباس لأي وضع أو نظام جزئي من خارج دائرة الإسلام. ولهم في ذلك شبهات يذكرونها بوصفها أدلة وأسانيد، كحديث: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

وغفل هؤلاء عن المقصود بكلمة «أمرنا» في هذا الحديث. أنّه أمر الدين من العقائد والعبادات والتكاليف. فهذا أمر توقيفي لا يُقبل فيه الاقتباس ولا الابتكار. لأنّه لا يؤخذ إلّا من الله وحده، وإلّا كان شرعاً في الدين بما لم يأذن به الله!

وقد صرّحت بعض الروايات بذلك فقالت: «مَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِنَا...» إلخ.

أما أمور الحياة والمعاملات بين النّاس أفراداً ودولاً، حكّاماً ومحكومين، فالأصل فيها الإباحة، إلّا ما منع منه الشارع بنص ثابت صريح. ولهذا اتسع باب السياسة الشرعيّة أمام أولي الأمر من المسلمين، الذين علموا أنّ من هُدي الرسول وخلفائه الراشدين أنّ السياسة الشرعيّة كل ما يقرب المجتمع إلى الصّلاح، ويبعده عن الفساد، وإن لم يجئ به نصّ. فالمهم ألا يصادم نصّاً. وهذا ما جعل ابن عقيل - وأقرّه ابن القيم وغيره - يُقرّر أنّ السياسة ما لم يخالف الشرع، لا ما نطق به الشرع.

فنحن مع الإمامين ابن عقيل وابن القيم في فهمهما الواسع الأفق للسياسة الشرعيّة، ولسنا مع الفريق الآخر المتشدّد المضيق كل التضييق.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصّحاح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، عن عائشة.

الحلُّ الإسلامي هو الذي يؤخذ من نصوص الإسلام وقواعده نفسها، وعلى طريقته في استنباط الأحكام للوقائع التي لا تنهاى جزئياتها، حتّى الأمور الدنيويّة التي لا نص فيها ولا إجماع ولا قياس. أعني الأمور التي تركها الإسلام لتقدير أهل الاجتهاد من أبنائه، يختارون لأنفسهم فيها ما يحقق المصلحة، ويدفع الضرر، ولو كان بالاقتباس من غيرهم.

أقول: حتّى هذه الأمور الجزئية إذا اقتبست من غير المسلمين، تعدّ في هذا الوقت جزءاً من الحل الإسلامي؛ لأنها إنّما اقتبست باسم الإسلام، وعن طريقه، وبعد إذنه، ووفقاً لقواعده في استنباط الأحكام الشرعيّة لما لا نصّ فيه من الوقائع والتصرفات.

ولا يضرُّنا أنّ هذه الجزئية بالذات أخذت من نظام غير إسلامي، فإنّها باندماجها في النظام الإسلامي تفقد جنسيتها الأولى، وتأخذ طابع الإسلام وصبغته.

فلا يظنّ ظانٌّ أنّنا ندعو إلى الجمود، أو نؤيّد التقليد وإغلاق باب الاجتهاد على أهله، كلّاً، فإنّ الحل الإسلامي لمشكلات العصر لا يتأتى إلّا إذا فُتح باب الاجتهاد لكل قادر عليه، ووُجد المجتهدون الأصلاء، الذين يحسنون فهم نصوص الشريعة ومقاصدها، وأصولها وقواعدها، وتطبيق أحداث العصر عليها، دون تعصب لرأي قديم، أو عبودية لفكرٍ جديد^(١).

(١) انظر كتابنا: شريعة الإسلام ص ٧٥ - ٧٨، فصل: ضرورة الاجتهاد، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٥، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

ففيه تفصيل لما يجب أن يكون عليه موقفنا من التراث الفقهي، ومن فهم النصوص القرآنية والحديثية، إلى جانب الاجتهاد في المسائل الجديدة، فمن اللازم هنا مراجعته لتكوين فكرة كاملة عن رأينا في الموضوع.

إنَّ شريعتنا الإسلاميَّة خصبَةٌ مُثْرِيَّة، غنيَّة بالأصول والمبادئ، غنية بالأفكار والاجتهادات، ولدينا ثروة فقهيَّة لا تملكها أُمَّة من الأمم، وقد شهد لها بذلك الكثيرون من المنصفين من غير المسلمين، وسُجِّل ذلك في مؤتمرات قانونيَّة دولية. وهي - بحمد الله - في غنى عن شهادة هؤلاء وغيرهم، فإنَّ صنع الخالق الَّذي أَتقن كل شيء لا يحتاج إلى تزكية المخلوق، وإنَّما نقول ذلك مساهلةً وإرخاءً للعنان مع الخصوم، وتنبهًا للذين لا يقتنعون بشيء إلا إذا جاء من قِبَل السادة الغربيِّين!

فشريعتنا في الحقيقة أكمل وأعدل وأغنى وأسبق من كل الشهادات الَّتِي يعترف بها لها المنصفون من غير أتباعها.

ولكن لا يمكننا الاستفادة من هذه الشريعة الكاملة وتلك الثروة الفقهيَّة الطائلة، إلا بالاجتهاد الأصيل. ولا يؤتي هذا الاجتهاد ثمراته إلا إذا قام على أساس جماعي، لا على أساس فردي. فالاجتهاد الجماعي - في صورة المجامع العلميَّة الَّتِي لا سلطان للحكومات عليها، والَّتِي تجمع صفوة العلماء القادرين من أنحاء العالم الإسلامي - هذا الاجتهاد الجماعي هو القادر على أن يبرز وجهة النظر الإسلاميَّة، وموقف الفكر الإسلامي من قضايا العصر ومشكلاته، وهو الَّذي يمكن إلزام الأُمَّة بمقرراته، ونتائج بحوثه، وأنَّ سلطته تشبه أو تقارب سلطة «الإجماع» في القرون الإسلاميَّة الأولى.

هذا هو معنى الحل الإسلامي، أمَّا أن يُستورد نظام من هنا أو هناك: ليبرالي أو اشتراكي أو مسيحي أو غيره، ثمَّ تؤخذ نصوص الإسلام من تلابيبها، وتُسحب سحبًا لتبرُّر الأوضاع الجديدة، وتُضفي عليها الشرعيَّة،

أو تُترك النصوص الصحيحة المتفق على قبولها، جرياً وراء نصوص ضعيفة السند، مشكوك في ثبوتها، أو تُترك النصوص المحكمات الصريحة الدلالة، اعتماداً على المتشابهات المحتملة، التي لا يركن إليها إلا الذين في قلوبهم زيغ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]. أو تُترك النصوص الصحيحة الصريحة بلا برهان، إلا أن يقال: إننا لم نأخذ بحرفية النصوص فإننا لم نخن روح الإسلام!

أقول: أما هذا كله فلا يُعدُّ حلاً إسلامياً قط، وإنما هو تزوير على الإسلام، وإهانة له، وتغريب باسمه، ويجب أن يُرفض رفضاً باتاً باسم الإسلام كلُّ حلٍّ من هذا النوع.





حل متكامل لا يقبل التجزئة

ثالثاً: أن يؤخذ الحل الإسلامي كله لمشكلات الحياة، وذلك أنه حل متكامل مترابط الأجزاء، فأى إهمال لبعضه، أو ترقيع فيه، يؤثر على بقية الأجزاء. فهذا أشبه بقطع الغيار الغربية التي توضع في جهاز لا تلائمه، فمهما تكن صالحة في نفسها فإنها لا تنتج، ولا تغني في هذا الجهاز، لعدم انسجامها مع بقية أجزائه.

ومن هنا حذر القرآن الكريم من أخذ بعض أحكام الله دون بعض، وقرع بني إسرائيل على ذلك أشد الترقيع، حيث نفذوا بعض تعاليم كتابهم، وتركوا بعضها، فقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقال تعالى يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ * أفحكم الجاهلية يبغون * ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون * [المائدة: ٤٩، ٥٠].

فهو إما حكم الله، وإما حكم الجاهليّة، ولن ينفي عن الحكم صفة الجاهليّة أخذه ببعض أحكام الله، فقلّما تخلو جاهليّة قديمة أو حديثة من موافقاتها لبعض أحكام الله في بعض الأمور.

فالذين يأخذون بالحل الإسلامي في بناء الحياة الزوجية، ولا يأخذون به في إنهاؤها «بالطلاق والخلع وغيرهما»، والذين يأخذون بالحل الإسلامي في تحريم الاحتكار وفي تقريب الفوارق، دون الأخذ به في احترام الممتلكات الحلال، وتحريم الربا، وفرض الزكاة إلخ، والذين يأخذون بالحل الإسلامي في إقرار الملكية والميراث، ولا يأخذون به في طرق الكسب والإنفاق والتمثيل للمال، ولا في أداء ما أوجب الله في المال من حقوق لذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل وحاجات المجتمع. والذين يأخذون بالحل الإسلامي في قطع يد السارق وجلد الزاني وشارب الخمر، ولا يأخذون به في محاربة الترف والسرف وإقامة العدل الاجتماعي. والذين يأخذون بالحل الإسلامي في إقامة عدالة اجتماعيّة جزئيّة، ولكنّهم لا يعظمون شعائر الله، ولا ينفذون شرائعه، ولا يقيمون حدوده، ولا يأمرّون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر. والذين يأخذون به في إقامة الصلوات، ولا يأخذون به في إقامة النظم التربويّة والتعليميّة والثقفيّة والإعلاميّة والترفيهية، على أساس من تعاليم الإسلام.

كل هؤلاء بعيدون عن الإسلام الحق، الذي لا يقبل الله غيره؛ ذلك بأنهم آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض، وقد قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. أي: في شرائع الإسلام كافة.

ولهذا بيّنا في حقيقة الحل الإسلامي: أنّه الحل الذي يبرز به إلى حيز الوجود المجتمع المسلم بكل مقوماته، وبكل خصائصه، دون إهدار لشيء من هذه الخصائص أو تلك المقومات.

إنّه لا بدّ من أخذ الإسلام كله بعقائده وتصوراته، وشعائره وعباداته، وأفكاره ومشاعره، وأخلاقه وفضائله، وآدابه وتقاليده، ونظمه وتشريعاته؛ لأنّ النصوص الدينيّة نفسها تحثّ ذلك وتوجهه كما ذكر من الآيات المحكمات، ولأنّ طبيعة المنهج الإسلامي تجعله وحدة لا تقبل التجزئة والانقسام.

ولأنّ طبيعة الحياة البشريّة نفسها متشابكة متداخلة يتعذر الفصل بين أجزائها ونواحيها، فبعضها يؤثر قطعاً في بعض، فلا يصلحها إلّا منهج متكامل ينظر إليها باعتبارها كلاً متماسكاً، لا أجزاء وتفاريق. وهذا هو منهج الله، منهج الإسلام، الذي لا يفصل الدولة عن الدين، ولا الاقتصاد عن الأخلاق، ولا الوازع القانوني عن الوازع الذاتي.

إنّ النظرة إلى الاقتصاد منفصلاً عن جوانب الحياة الإنسانيّة الأخرى نظرة قاصرة خاطئة.

فالاقتصاد يتأثر بعقائد الأمّة، وأخلاقها وثقافتها وتقاليدها وآدابها، ولا يمكن اعتباره كلاً مستقلاً، ووجوداً قائماً بذاته.

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة توضيحاً لما نقول:

١ - لننظر إلى الأزياء والملابس كم تتطلب من جهود ونفقات من أجل الغلو في تزيينها وترقيقها، وخاصّة أزياء السيدات «العصريّات» التي تتغير في كل سنة أربع مرات، تبعاً لتغير الفصول. هل يمكن فصل ذلك عن أدب الإسلام في اللباس والزينة؟

كلًا، فقد حرّم الإسلام الإسراف في الملبس، كما حرم الإسراف في كل شيء، وكره ملابس الشهرة، وكره للرجال لبس الحرير والمعصفر، والتشبه بالنساء. كما كره للنساء أن يلبسن ما يصف ويشف عمّا تحته، أو يجسّم مفاتن البدن، أو يلبسن لبسة الرجال.

وحظر الإسلام على المرأة التبرج، والتزين للأجانب، وجذب انتباه الرجال.

إنّ الإسلام يريد البساطة والاعتدال، وينكر تلك المساخر في أزياء النساء والرجال. ولا شك أنّ التزام آداب الإسلام وأحكامه في الزي والزينة وما يتعلق بهما، يوفر على الأمة نفقات هائلة، تقدّر بالملايين، تذهب لوجه الشيطان من المساحيق والأصباغ والتفّئ في الأزياء، وتبديلها ما بين فصل وآخر.

٢ - إنّ صحة الأجسام شرط أساسي لنمو الإنتاج في شتّى مجالاته. وانتشار الهزال والأمراض يُضعف من قدرة البدن على الإنتاج أولاً، ويوجه مقداراً غير يسير من النفقات إلى محاربة المرض ثانياً.

وأكثر ما يؤدي بالأجسام هو تناول المسكرات والمخدرات، وما يلحق بهما من ألوان «التبغ»، ثمّ إسراف الناس في الشهوات، وفي السهر الطويل في ألوان المتع واللهو المحظور أو المكروه.

ولو التزم الناس أحكام الإسلام وآدابه في المأكل والمشرب، والنوم واليقظة، ونُفذت أوامر الإسلام في محاربة الخمر والميسر، واللهو الحرام، والمتع الحرام، لاحتفظ المجتمع بصحة أبنائه، ووفّر الملايين التي تنفق على أم الخبائث والسموم المهلكة، والشهوات المدمّرة،

وما ينفق بعد ذلك على علاج ضحاياها، وكان من وراء ذلك زيادة في الإنتاج وانتعاش في الاقتصاد.

ومما يؤكد هذا المعنى ما ذكرته جريدة الأهرام بتاريخ ٣ مايو ١٩٦٥م أن اثنين وسبعين مليوناً في أمريكا يتناولون الخمر، منهم عشرون مليوناً يكلفون الدولة بليونى دولار كل سنة، والسبب هو تغيبهم عن العمل.

٣ - يُسرف كثير من الشعوب في تشييد المقابر وتزيينها، حتّى عدّ بعض أساتذة الاقتصاد الأمريكيين «الحد المحترم» من الأغراض الأساسية التي يسعى الإنسان إلى تأمينها بجوار الغذاء والملبس والمأوى. وقد سرت هذه العدوى من قديم إلى المسلمين أنفسهم في كثير من البلاد، فاهتموا بالقبور وبنائها، والغلو في تفخيمها، وخاصّة إذا كانت لأناس من صلحاء الدين أو كبراء الدنيا.

أما تعاليم الإسلام الصحيحة فترفض كل غلو في هذا الجانب، فقد بعث النبي ﷺ عليّاً رضي الله عنه إلى اليمن، وأمره ألا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه بالأرض، ولا تمثالاً إلا طمسه^(١).

ونهى عن اتّخاذ القبور مساجد، أو إيقاد الشرج عليها^(٢)؛ حتّى تظل على بساطتها ورهبتها. فكل ما ينفق في هذه الناحية مال مضيع.

(١) سبق تخريجه ص ٩٠.

(٢) كما في حديث ابن عباس: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرّج». رواه أحمد (٢٠٢٩)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره دون ذكر الشرج. وأبو داود في الجنائز (٣٢٣٦)، والترمذي في الصلاة (٣٢٠) وقال: حسن. والنسائي (٢٠٤٣)، وابن ماجه (١٥٧٥)، وابن حبان (٣١٧٩)، ثلاثهم في الجنائز.

٤ - إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَسْرِفُونَ فِي مَأْكُلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَلْبَسِهِمْ، وَفِي تَنَاوُلِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ طَيِّبَاتِ الْحَيَاةِ بِصِفَةِ عَامَةٍ.

فَتَرَى مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْمَعُ أَمَامَهُ مَائِدَةٌ شَهِيَّةٌ تَحْتَوِي مِنَ الْأَطْعِمَةِ عَلَى أَضْعَافِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَقَدْ لَا يَتَنَاوَلُ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلَ، ثُمَّ يَلْقَى بِهَذِهِ الْفَضْلَاتِ فِي سَلَةِ الْقِمَامَةِ.

وَتَرَى بَعْضَ النَّاسِ لَا يَشْبَعُ إِلَّا إِذَا أَبْقَى فَضْلَةً مِنْ طَعَامٍ يَقْذِفُ بِهَا إِلَى حَيْثُ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا أَحَدٌ، بَلْ حَيْثُ تَجْلِبُ الْقَذَرُ وَالْمَرَضُ.

وَتَرَى بَعْضَ النَّاسِ يَكْفِيهِ لُتْرٌ مِنَ الْمَاءِ مِثْلًا لَغَسْلِ يَدَيْهِ وَوَجْهِهِ وَوَضُوئِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَبَالِي أَنْ يَفْتَحَ الصَّنْبُورَ خَمْسَ دَقَائِقَ يَسْتَهْلِكُ فِيهَا عَشْرَةَ لُتْرَاتٍ أَوْ تَزِيدَ.

وَتَرَى بَعْضَ النَّاسِ يَتْرَكُونَ الْمَصَابِيحَ مُضَاءَةً فِي النَّهَارِ، تَسْتَهْلِكُ مَقَادِيرَ كَبِيرَةٍ مِنَ الْكَهْرَبَاءِ بِغَيْرِ حَاجَةٍ وَلَا مَسْوَعٍ.

ويزداد هذا التبذير والإسراف إذا كان الأمر يتعلق بالمال العام، مال الجماعة، مال الدولة، فهنا يبلغ الإسراف حدَّ الإِتْلَافِ، ويبلغ التبذير درجة التدمير.

وغير هذا وذاك كثير، وكل هذه أموال ضائعة. ولهذا كان سوء الاستهلاك دائماً هو «البالوعة» الواسعة التي تبتلع كل ما تأتي به زيادة الإنتاج، ومحاولات التنمية، وتذهب بها هباءً.

وتربية الأفراد والشعوب على حسن الاستهلاك، والاعتدال في الإنفاق، لا يقدر عليه، ولا ينجح فيه إلا حركة دينية، تغرس في ضمائر الناس تقوى الله في السرِّ والعلن. ومراقبته تعالى في كل أمر، وهذا ما نبّه عليه الاقتصاديون أنفسهم.

والإسلام هو الدين الأمثل، الذي يُعلّم أتباعه الاعتدال، ويربّيهم على احترام كلّ مال قلّ أو كثر، للفرد أم لغيره، وينهى عن الإسراف في كلّ شيء.

يقول الله تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ويقول: ﴿وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ويصف عباد الرحمن الذين وعدهم الله بالجنة، يُلقَّون فيها تحية وسلامًا بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ويرى الرسول ﷺ بعض أصحابه يسرف في ماء الوضوء، فيقول له: «لا تسرف وإن كنت على نهر جارٍ»^(١)؛ وذلك ليكون الاقتصاد خُلُقًا له وديدنا.

ويوصي المؤمنين ألا يزيدوا في غسل الأعضاء على ثلاث مرات فيقول: «ومن زاد على ذلك، فقد أساء وتعدّى وظلم»^(٢).

(١) رواه أحمد (٧٠٦٥)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وابن ماجه في الطهارة (٤٢٥)، وضعّفه الألباني في الإرواء (١٤٠)، ثم حسّنه في الصحيحة (٣٢٩٢)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ مرّ بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف يا سعد؟». قال: أفني الوضوء سرف؟ قال: «نعم، وإن كنت على نهر جارٍ».

(٢) رواه أحمد (٦٦٨٤)، وقال مخرّجوه: صحيح. وأبو داود (١٣٥)، والنسائي (١٤٠)، كلاهما في الطهارة، وحسّنه الألباني في مشكاة المصابيح (٤١٧)، عن عبد الله بن عمرو.

ويوصي المسلم إذا أكل ألا يدع فضلة ترمى، ويصوّر ثواب هذا العمل الصغير في أعين الناس تصويرًا بليغًا أخاذًا، فيقول: «استغفرت القصعة للاعقها»^(١).

٥ - إنَّ الإيمان والاستقامة لهما أثرهما في تحسين الإنتاج وزيادته، وإنَّ الشك العقيدي والانحراف السلوكي لهما أثرهما في نقص الإنتاج وإضعافه كمًّا وكيفًا.

فالإنسان الذي يتمتع بقوة اليقين وسكينة النفس، والثقة بالله، والأمل في عدله ورحمته. يلتزم بتعاليمه، ويقف عند حدوده: يؤدّي عمله - ولا شك - بكفاية وإحسان، لا يهمل في أداء واجب، ولا يخون في أمانة، ولا يقصّر في صيانة «عهدة» أو مالٍ عام. بخلاف ذلك الذي لا يؤمن برقابة الله عليه، ولا يؤمن بحسابه وجزائه في دار بعد هذه الدار، ولا يؤمن بشيء إلاّ ساعته الحاضرة، ولذته العاجلة، فمثل هذا لا تُسيّره إلاّ رقابة خارجيّة قويّة. ولكن مهما تكن قوتها فلن تبلغ مبلغ الدافع الذاتي الذي يصنعه الإيمان^(٢).

٦ - وإذا نظرنا إلى الانحراف أو الإجرام ومقاومتها رأينا كم تكلف الحكومات من جهود ومن أموال، بخلاف ما تُكبّد الشعوب نفسها من آلام ومخاوف وخسائر منظورة وغير منظورة. نكتفي هنا بما نشرته جريدة الأخبار القاهرية في ٥ يونيو ١٩٧١م نقلًا عن وكالات الأنباء، قالت: صرّح السناتور «جون ماكليان» - رئيس لجنة التحقيقات الفرعية

(١) رواه أحمد (٢٠٧٢٤)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي (١٨٠٤) واستغربه، وابن ماجه (٣٢٧١)، كلاهما في الأطعمة، عن نبیثة مولى رسول الله ﷺ.

(٢) انظر كتابنا: الإيمان والحياة ص ٢٧١ - ٢٨١، فصل: الإيمان والإنتاج.

بمجلس الشيوخ الأمريكي - بأنَّ الجريمة المنظَّمة تُكلِّف الدولة أكثر من
مائة مليون دولار كل عام.

وأضاف ماكليان في الجلسة الأولى للجنة: «إنَّ التحقيق سيتركز
- بصفة خاصَّة - على جرائم السرقة والمخدَّرات، والمطبوعات الجنسية
والقمار، والجرائم الأخرى التي ترتكبها عصابات قوية منظمة».

فإذا كان هذا النوع من جرائم العصابات يُكلف الدولة هذه المبالغ
الطائلة، فما بالك بكل أنواع الجرائم؟

وكم يوفر الإسلام على المجتمع حين يربِّي الوازع الذاتي في نفس
صاحبه، فيمنعه من ارتكاب الجريمة، ويدفعه دفعًا إلى التوبة إنْ أغواه
الشیطان فارتكبها يومًا.

وهذه التربية الفدَّة المؤثرة إنَّما يتوافر لها النجاح في ظل الحل
الإسلامي، والنظام الإسلامي.





لا بدّ من عنوان الإسلام

رابعًا: لا يكون الحل إسلاميًا إلا إذا أخذ باسم الإسلام، وتحت عنوان الإسلام، ولو افترضنا - وفرض المستحيل جائز كما يقال - أن قومًا حَكَمُوا أو حُكِمُوا بتعاليم وشرائع توافق تعاليم الإسلام وشرائعه فعلاً، ولكنهم أطلقوا عليها أسماء وعناوين أخرى، ولتكن الديمقراطية أو الاشتراكية أو الرأسمالية مثلاً، هل نُعَدُّ حكم هؤلاء حكماً إسلامياً؟ لا، ثم لا.

إنَّ الله - تعالى - تعبَّدنا بأحكام هذا الدين، فلا بدّ أن نشعر في كل أمر ننفعه منها أننا نُحَكِّم دينه، ونعمل بهديِهِ؛ لنفوز برضوانه سبحانه ومثوبته.

ولا بدّ لنا أن نعتزّ بهذا المنهج الذي أكرمنا الله به، وهدانا إليه، ومن هنا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ولا عجب أن يطلب القرآن هذا الإعلان، فإنَّه نوع من المغالاة والاعتزاز بالمبدأ، وهو أمر لازم لتربية الأمم التي تقوم على نظام فكري «أيدولوجي» مستقل.

ولا عجب أن أمر الله رسوله الكريم بهذا الإعلان أيضًا فقال: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

والأمر المتكرر بـ «قُلْ» يعني إعلان هذه الحقيقة وتأكيد لها، إعلان الإسلامية الصريحة الخالصة، التي لا شرك فيها ولا ميل.

إن وضع عناوين غير إسلامية - كالاشتراكية والديمقراطية - للنظام الإسلامي، يتضمن عدة مخاطر ومحاذير.

أولها: هو الاعتراف لهذه المبادئ بالسمو والكمال، بحيث يُنسب الإسلام إليها، ويدخل تحت عنوانها، فيصبح الإسلام بذلك تابعًا لا متبوعًا، وذيلًا لا رأسًا، والإسلام من شأنه أن يعلو ولا يُعلَى؛ لأنَّه كلمة الله، وكلمة الله هي العليا.

ثانيها: اقتضاء هذه المفاهيم إبراز جانب معين في الإسلام، وتضخيمه على حساب جانب آخر أو جوانب أخرى.

فالاشتراكية تعني إبراز الجانب الاقتصادي، وخاصة جانب العدالة في التوزيع.

والديمقراطية تعني إبراز الجانب السياسي، وخاصة جانب الشعب، وحقه في اختيار حاكمه ومحاسبته وتقويمه وعزله.

ولكن نظام الإسلام ليس اقتصادًا فقط، ولا سياسة فحسب، إنَّه نظام شامل متكامل، يعمل على إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع. ويشمل الماديات والمعنويات، ويضمُّ الدين والدنيا معًا.

ثالثها: تعريض القيم الإسلامية للتغيُّر والهزَّات، حيث تصبح كالعملة في الأسواق الحرة في صعود وهبوط، فإذا راجت الرأسمالية قام قوم ينادون: بأنَّ الإسلام رأسمالي، ويجب إباحة الربا، وتبرير الاحتكار والبنوك وغيرها.

وإذا نفقت سوق الاشتراكية، قام آخرون ينادون بأنَّ الاشتراكية من الإسلام، أو الإسلام من الاشتراكية، ويدعون إلى «التأميم» المطلق وإلى غيره من بدع الاشتراكية.

رابعها: تبني هذه المبادئ أو المفاهيم الكلية، يتبعه - عادة - انحراف في فهم الإسلام، يتمثل في محاولة تطويعه للأفكار الجديدة.

فالذي يتبنَّى الاشتراكية يجد في الإسلام نقاط التقاء معها، كمحاربة الترف والسرف، وإشراك النَّاس في ضروريات الحياة، ومنع تملكها للأفراد، وإنصاف الطبقات الضعيفة، والحرص على أجور عادلة للعمال، ونحوها.

ولكنَّه يجد حرصًا من الإسلام على حماية الملكية الخاصة المشروعة، وتحريم مصادرة الأموال بغير حق، فيلجأ من هنا إلى التعسف في تأويل النصوص، وتحريف الأحكام، لتوافق مذهبه الذي تبناه.

خامسها: إنَّ هذه العناوين والمصطلحات الفكرية والاجتماعية - كمصطلح الاشتراكية - ليس له مدلول محدّد، يمكن معرفته وضبطه والرجوع إليه، ولكنَّه يُفسَّر بأكثر من تعريف، ويخضع للتغيير والتحوير، يقول الأستاذ «تاووني»: «إنَّ الاشتراكية - كغيرها من التعبيرات المختلفة للقوى السياسيّة المركبة - كلمة لا تختلف في مدلولاتها من جيل إلى جيل فحسب، بل من حقبة إلى حقبة».

ويوضح الأستاذ «كول» التناقض الظاهر في العقيدة الاشتراكية بين بلد وآخر، وجيل ما بعده بقوله: «... ولم يكن التباين في العقيدة نتيجة اختلاف الزمن فحسب، بل كان هناك تناقض بين الصور المختلفة التي وجدت في عصر واحد»^(١).

ويقول الأستاذ «نورمان ماكنزي» في «موجز تاريخ الاشتراكية»: «إنَّ الاشتراكية كلمة عامة، وإنَّها تعني أشياء مختلفة، عند أناس مختلفين، حتَّى إنَّ معانيها قد بلغت المائتين في بريطانيا وحدها»^(٢).

ولهذا نجد تبايناً واضحاً، لاتجاهات الاشتراكية، ما بين معتدلة ومتطرفة، وديمقراطية وثورية، ومثالية وعلمية، وفابية وماركسيّة. بل رأينا دعاة الاشتراكية الواحدة يتناقضون ويتصارعون، كما نشاهد بين الروس والصينيين، وكلاهما اشتراكي ماركسي لينيني.

سادسها: إنَّ هذه المذاهب ذات العناوين المعروفة لها خط غير خط الإسلام، وهدف غير هدف الإسلام. فهي إنَّ التقت معه في بعض الأمور الجزئية والفرعية ستخالفه في كثير من الكليات والأصول الجوهرية.

وحسبنا أنَّها كلها تعنى بأمر الدنيا وحدها، غير حاسبة أي حساب لأمر الآخرة، كما لا يعينها من أمر الدنيا إلَّا الجانب المادي وما يتصل به ويؤثر فيه، أما جانب الروح، فليس له في تقديرها وفلسفتها اعتبار يُذكر. حتَّى المذاهب التي لا تقوم فلسفتها على الإلحاد الصريح، نراها لا تعير هذا الأمر كبير التفات.

(١) مستقبل الاشتراكية ص ٩٢، نقلاً عن الاشتراكية والقومية وأثرهما في الأدب الحديث للدكتور

يوسف عز الدين ص ٧٤، نشر معهد البحوث والدراسات العربية، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٢) الإسلام ومشكلات العصر للدكتور مصطفى الرفاعي ص ٢٢، نشر الشركة العالمية للكتاب،

بيروت، ط ٢، ١٩٨٧م.

وبهذا نتبين أنّ من التناقض الذي لا يقبل منطق أن نجعل مثل هذه المصطلحات عنواناً للإسلام ونظامه الفريد، إلّا أن يكون ذلك من باب الرخصة أو الضرورة في مرحلة التحول إلى الإسلام الخالص، فهنا تُقدّر الضرورة بقدرها.

* * *





أن يكون الإسلام غاية لا أداة ومطيّة

خامسًا: لا يكون الحلُّ إسلاميًا إلا إذا كان الإسلام نفسه هو الغاية، وإليه المنتهى، وأنْ نجند كل الأنظمة والمناهج والوسائل والإمكانات لخدمته هو.

أمّا أنْ يُتخذ الإسلام وسيلة لتثبيت حكم معيّن أو يُستخدم لكسب قضية معينة عسكرية أو سياسية، أو أداة للدعاية لبلد، أو لأسرة، أو حزب، أو عهد، أو نظام، أو مذهب، فهذا يُعدُّ إهانة عظمى للإسلام، وهو انحراف به، وتمريغ لوجهه في الطين، حيث جعلناه خادماً، وهو السيد المطاع، وجعلناه آلة وهو الهدف المنشود، والوجهة التي تُشدُّ إليها الرحال.

إنك لتجد قومًا يحتقرون الإسلام في قرارة أنفسهم ولا يخطر ببالهم أنْ يتخذوا تعاليمه منهاجاً لحياتهم، ولا يفكرون في الاحتكام إليه إذا تنازعوا، ولا يرضون به دستوراً لدولتهم، ولا أساساً لمجتمعهم، بل تجد منهم مَنْ يضع للناس المواثيق التي تخط للناس مناهج حياتهم، وتصنع لهم مفاهيمهم وقيمهم، وتضع لهم أفكارهم وموازينهم، وتحدّد لهم أخلاقهم وسلوكهم، وبعبارة موجزة: تضع لهم «دينًا جديدًا» بمناهجه وقيمه وأخلاقه، يجمع خلاصة هذا الدين ومبادئه «كتاب» أو «بيان» أو «ميثاق»، يحاط بهالة من الدعاية، وألوان من التعظيم والتقدّيس، لينسى



النَّاس به كتاب الله الحق، ودين الله الحق، ومع هذا كله نجد منشئي هذا الدين الجديد، يستخدمون دين الله السماوي، لتثبيت دينهم الأرضي، وكتاب الله المنزل، لتأييد كتابهم الوضعي، ويسحبون بعض علماء الدين السماوي من آذانهم، ليبرِّروا أوضاعهم اللادينية، بآيات تُحرِّف عن مواضعها، وأحاديث يتجلى فيها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

ومن عجب أنَّ بعض هؤلاء الحاكمين، يحاربون كلمة الإسلام في ديارهم، ويخنقون أنفاس دعائه تحت سلطانهم، ولكن لا بأس بإرسال نوع من الدعاة للإسلام في بلاد أخرى بعيدة، لا حبًّا في الإسلام، بل رغبة في كسب سياسي رخيص، عند الشعوب التي لم تزل توقد جذوة حماسها، وتنفخ في روحها كلمة الإسلام، ودعوة الإسلام.

* * *



مكاسبنا من وراء الحلّ الإسلامي

لماذا ننادي بضرورة العودة إلى الإسلام؟ وندعو إلى اتّخاذ «الحلّ الإسلامي» أساسًا لعلاج مشكلاتنا؟ ومصدرًا لتنظيم حياتنا، ومنارًا لهداية أمتنا؟

إنّ بعض السُّدَج من النَّاس يتصوِّرون أنّ الحلّ الإسلامي لا ثمرة له ولا كسب من ورائه إلّا في الآخرة، وأنّنا نريد الإسلام لننجو فقط من عذاب النار، ونفوز بدخول الجنّة.

ولا شك أنّ هذا مطلوب، والفلاح في الآخرة أعظم ربح يجب أنْ يحرص عليه الإنسان. فما ينبغي لعاقل أنْ يضع باقياً دائماً بزائلٍ فانٍ. وما يجوز لذي لبّ أنْ يحرص على السعادة في عمره القصير المحدود وينسى الخلود الأبدي بعد هذه الحياة. وقد قال أحد الصالحين: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، والآخرة خزفاً يبقى، لوجب على العاقل أنْ يختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى. فكيف والدنيا هي الخزف، والآخرة هي الذهب؟! بل الحقيقة أنّ النسبة بين الدنيا والآخرة أكبر من النسبة بين الخزف والذهب بكثير، ولكن الأمثال تُضرب للتقريب.

ومع هذا اقتضت حكمة الله أنْ ينوط بهذا الدين الذي شرعه لعباده - خير هذه الدنيا وأمنها أيضاً، وسعادة الفرد والجماعة فيها، وضمن لمن

آمن به وتبعه حياة طيبة، وعصمه من الضلال والشقاء: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ
فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

ونحن حين ننادي بالحل الإسلامي اليوم نؤمن بأن فيه الخير كل
الخير، والفلاح كل الفلاح لمجتمعاتنا، في هذه الدنيا التي نعيش فيها.

نحن نؤمن بالحل الإسلامي وندعو إليه؛ لأنه - بجوار ما يكفله من
سعادة الأبد - يحقق لنا في حياتنا الحاضرة من المزايا والمكاسب
والثمرات المادية والمعنوية الفردية والاجتماعية ما لا يحققه حل آخر،
يُتَسَوَّل من الشرق أو الغرب.

تُرى ماذا تكون هذه المزايا أو هذه المكاسب، أو هذه الثمرات؟ هذا
ما نفصل الإجابة عنه في السطور التالية.

* * *



تحقيق إيماننا ووجودنا الإسلامي

في الحقيقة أنّ الحل الإسلامي هو الحلُّ الفذّ الذي نحقق به إيماننا، ونثبت به وجودنا، ونبرز فيه حقيقتنا، فهو الحل الحتمي الذي لا نملك غيره ولا خيار لنا في قبوله أو رفضه؛ لأننا رضىنا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبالقرآن إمامًا وبمحمدٍ رسولًا.

إنَّ طبيعة الإيمان بالله تحتم على المؤمن الاحتكام إلى شرع الله تعالى مع الرضا به، والتسليم له واعتقاد أنه العدل الذي لا جور فيه، والخير الذي لا شرَّ معه، والعلاج الذي لا شفاء في غيره، وكل شك في عدالة ما شرع الله وفضله على كل ما شرع البشر وابتدعوا، معناه الطعن في علم الله تعالى وحكمته، وخبرته بشؤون خلقه، وبرّه بهم، وإحسانه إليهم، ومن فعل ذلك فقد ظنَّ بالله ظنَّ السوء، وظنَّ الجاهليّة، فإنَّه تعالى بكل شيء عليم وهو بعباده خير بصير، وهو بهم رؤوف رحيم، وهو يريد بهم الخير واليسر، ولا يريد لهم عنتًا ولا عسرًا. وكل مسلم يتلو هذه الآيات من كتاب ربه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿ [النساء: ٢٦ - ٢٨]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْإِنْسَانِ لِرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]،

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾
 [البقرة: ٢٢٠]، ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]،
 ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ومن ثمَّ كان مقتضى الإيمان هو الإذعان لشرع الله تعالى، والانقياد لحكمه وحكم رسوله مع الرضا والقبول والتسليم، وفي ذلك يقول القرآن في جلاء لا خفاء فيه، ووضوح لا لبس معه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

ومن لم يرض بحكم الله ورسوله فليس له إلا أن يرضى بحكم الطاغوت أيًا كان اسم ذلك الطاغوت وعنوانه ومصدره، إذ هما طريقتان لا ثالث لهما: طريق الله وطريق الطاغوت. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١] إلى أن يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ولا يستطيع أحد - بالغًا ما بلغ من مركز - أن يزعم أن جماهير هذه الأمة قد كفرت بدينها، أو جحدت بقرآنها، أو تنكرت لمحمدها، وهي لا زالت - في مجموعها - تؤدي الصلاة وتصوم رمضان وتحج بيت الله الحرام، وتتلو كتاب الله، وتسمع إليه صباح مساء.



ولقد ظلت هذه الأمة ثلاثة عشر قرناً، تُحكم بشرائع الإسلام - على سوء في الفهم، أو سوء في التطبيق، في كثير من الأحيان - ولكنها لم تعلن يوماً ما تمرُّدها على أحكام ربِّها، حتَّى جاء الاستعمار التبشيري، أو التبشير الاستعماري فإذا هو يعمل بالقوة حيناً، وبالحيلة أحياناً على زحزحة هذه الأمة عن منهج ربِّها وأحكام دينها وشريعته في مختلف ميادين الحياة الثقافيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة ويفرض عليها أفكاراً وأحكاماً دخيلة عليها، غريبة عنها، وكان المفروض والمتوقع أن تتحرر الأمة من نير الاستعمار الفكري والتشريعي عقب تحرُّرها من الاستعمار العسكري والسياسي، ولكن ممَّا يؤسف له أنَّ الذي حدث غير ذلك.

فإنَّ شر ما صنع الاستعمار في بلادنا ليس نهب خيراتها، وامتصاص أرزاقنا، وتعويق نهضتنا فحسب، بل شرُّ من ذلك كله هو العقليات القيادية التي أنشأها في ظل سلطانه وأرضعها من لبنه، وربَّها على كراهية الإسلام واحتقاره، واعتقاد أنَّه لا يصلح لقيادة الحياة، وتنظيم الدولة، وبناء المجتمع، وأنَّ أقصى حدوده أن يكون صلةً بين العبد وربِّه فلا يجوز أن يتجاوز سلطانه المسجد أو الزاوية أو الخلوة، ولا يُباح له أن يدخل معترك الحياة قائداً أو موجِّهاً أو حاكماً. وقد أتاح الاستعمار لهذه العقليات العلمانيَّة أن تسود المجتمع وتقود القافلة، وتحكم الحياة الإسلاميَّة، وتصبغ وجه الأمة بغير صبغة الله التي رضيها لعباده.

فلا عجب أن رحلت عساكر الاستعمار عن أكثر بلاد المسلمين، ولكن لم ترحل مخلفاته وآثاره الفكريَّة والنفسِيَّة والاجتماعيَّة، ووجدنا الذين يحكمون الشعوب الإسلاميَّة - بعد الاستقلال - «خواجهات» بغير «قبعات» أي أن الوجوه والأسماء هي التي تغيرت وأما الغاية والوجهة فهي هي،

والطريق هو هو. الغاية ليست الله ولا الآخرة ولا الإيمان، والطريق ليس هو تربية الإسلام ولا ثقافة الإسلام ولا تطبيق أحكام الإسلام.

ولكن هل رضيت جماهير الأمة الإسلامية عن هذا الاتجاه؟

لا، والله. إِنَّ جماهير الأمة لتنكر هذا كلَّ الإنكار، وإنَّها لا زالت تحبُّ الله ورسوله وكتابه. إنَّها لتعلم حقَّ العلم أَنَّ سعادتها - دنيا وأخرى - في اتِّباع دينها والاهتداء بكتاب ربِّها، وسُنَّة رسولها، وتحكيم أمر الله في شؤون حياتها، وإقامة حدوده عليها، وأنَّ الشقاء والجوع والخوف والمعيشة الضنك - فضلاً عن عذاب الله في الآخرة - هو جزاء كلِّ مَنْ أعرض عن هُدى الله تعالى وحكمه وشرعه، وانحرف عن طريقه ونبذ كتابه وراءه ظهرياً.

تؤمن جماهير الأمة الإسلامية بذلك أعمق الإيمان، وتذكره كلما أصابتها الكوارث، وأطبق عليها البلاء. وكيف لا والله تعالى يقول: ﴿فَأَمَّا يَأْنِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۖ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۝﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

ويقول جل شأنه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝﴾ [النحل: ١١٢]، ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَنَتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ۖ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

ونحن نتحدَّى كلَّ حاكم وكلَّ معارضٍ أَنْ يستفتي الأمة المسلمة استفتاءً حرّاً نزيهاً مباشراً على هذا الأمر الجلل، أنُحكم بالقرآن أم بغير القرآن؟

هذه أخطر قضية في حياة المسلمين المعاصرة، ولكن ممّا لا ينقضي العجب منه أن تُعزل الأمة الإسلامية، ولا يُرجع إليها في شأنها، ولم نجد بلدًا إسلاميًا واحدًا في عهد احتلاله أو استقلاله استفتى شعبه - ولو مرّة واحدة - في هذا الأمر الخطير، الذي هو أمر حياة ومصير.

إنّ الحلّ الإسلامي وحده هو الذي يزيل التناقض الظاهر في حياة المسلم، والصراع الداخلي في نفسه وفكره. فهو بحكم التزامه بالإسلام منهجًا من عند الله، يؤمن بوجوب الاحتكام إليه عقيدةً وعبادةً وشرعيةً وأخلاقيًا وآدابًا، وقيمًا وموازين، ولكنه يجد الحياة من حوله تُوجّه توجيهًا آخر، إن لم يُعاد الإسلام صراحةً أو خفيةً، فهو يسقطه من الحساب، ويهدر اعتباره في التشريع والتوجيه والتربية والتثقيف، والمسلم في حيرة واضطراب في داخل نفسه من أجل هذا التناقض والازدواج الغريب في حياته.

أليس من العجب العاجب أن يجد المسلم نفسه مضطّرًا إلى التحاكم إلى قوانين تخالف شريعته، وإلى مطالعة صحفٍ تضطهد فكرته، وإلى سماع إذاعاتٍ تناقض اتّجاهه، وإلى مشاهدة «تلفزيونات» و«سينمات»، هو ساخطٌ عليها في قرارة نفسه؟

إنّه يتزوَّج على كتاب الله وسنة رسوله، ولكنه يُلبس زوجته زيًّا لا يرضاه الله ورسوله. إنّه يدفع ضرائب باهظة للحكومة، ولكنه لا يجد متسعًا لدفع الزكاة المفروضة عليه من ربّه. إنّه يعتقد حُرمة الربا، ولكن عجلة الحياة الاقتصادية - التي صُنعت له - ستدوسه إذا لم يتعامل به.

هذا الحلّ - إذن - هو الذي ينجينا من الإثم، وينقذنا من سخط الله وعذابه، يوم يقوم النّاس لربّ العالمين، ويسألنا عمّا أنزل علينا من

كتاب أحكمت آياته: ماذا كان موقفنا منه: اتّخذناه مهجورًا؟ أم جعلناه لنا إمامًا ودستورًا؟

هذا الحلُّ هو الَّذي نستحقُّ به تأييد الله وبركته ومعونته ونصره ورزقه وتمكينه، إذ نكون بذلك قد اتّقيناه ونصرناه، واتّبعنا هداه، واستقمنا على طريقه. وقد قال تعالى - وقوله الصدقُ ووعدهُ الحقُّ -: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَالْوِاسْتِقَامُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وقد يكون هذا الكلام غريبًا في منطق المادّيّة التاريخيّة والمادّيين الجدليّين، وقد يُعدُّ غير «علمي» في لغتهم، ولكن في نظر المؤمنين مُتَّفِقٌ كُلُّ الاتِّفَاقِ والعلم والحق والمنطق السديد: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].





إقامة التوازن في حياتنا

والحلُّ الإسلامي وحده هو الَّذي يُحقِّق التوازن المقسط في حياتنا الفردية والاجتماعية، فلا تميل به كفة الميزان في جانب من الحياة على حساب جانبٍ آخر. ذلك أنَّ هذا الحلَّ - من الناحية الموضوعية - هو الحلُّ العادل الوسط المتوازن، الَّذي برئ من التطرُّف، والاندفاع الأعمى إلى اليمين أو اليسار، فسلم من تفريط الرأسماليين الَّذين جاروا على حقِّ المجتمع من أجل حرِّية الفرد، ومن إفراط الاشتراكيين الَّذين طغوا على حقِّ الفرد من أجل مصلحة المجتمع، وسلم من غلوِّ الفريقين في الاهتمام بالمادة على حساب الروح، وبالذُّنيا على حساب الدين، وبالشهوات على حساب الأخلاق.

وسرُّ الانحراف والاعوجاج والطغيان في الحلِّين الرأسمالي والاشتراكي يرجع إلى أمرٍ واضحٍ بسيطٍ لمن يتدبَّر. ذلك أنَّ كلَّ حلٍّ من هذين جاء نتيجة بيئة معيَّنة، وعصرٍ خاصٍّ، وملابسٍ موقوتة. جاء نتيجة لانحرافات بارزة، وألوان من الطغيان قاسية، أفضت إلى ثورات واندفاعات بشرية مضادة، كلُّ همَّها أنْ تحطِّم القديم الماضي، وتقضي على كلِّ آثاره وتوابعه، ولم يكن القديم كلُّه شرًّا، ولم يكن كلُّه فسادًا، ولكن الثورات - بطبيعتها - لا تبقي ولا تذر، ولا تصبر على التمييز بين ما يجب أنْ يبقى وما يجب أنْ يزول. كلُّ همَّها هو «التغيير الثوري»

تغيير القيم والمفاهيم والأخلاق والأوضاع القديمة بقيم ومفاهيم وأخلاق وأوضاع جديدة. ولو عقلوا لعلموا أَنَّ الْقَدَمَ ليس عيبًا في ذاته، والجِدَّةُ ليست مزيَّة في نفسها. فكم من قديمٍ نافع أعظم النفع، وكم من جديدٍ ضارٌّ أشدَّ الضرر. على أَنَّ الْقَدَمَ والجِدَّةَ أمرٌ نسبي، فقديم اليوم كان جديدًا بالأمس، وجديد اليوم سيصير بعد حينٍ قديمًا. وعند ذلك تجب الثورة عليه أيضًا، ومحوه وتغييره بجديدٍ آخر. وهكذا يصبح مرور الزمن وحده هو الحاكم على الأشياء بعدم الصلاحية للبقاء، فليس هناك قيمة ثابتة، ولا حقائق دائمة، ليس هناك خير وشر، وليس هناك فضيلة ورذيلة، وليس هناك حقٌّ وباطل، وإنَّما هناك - فقط - قديمٌ وجديد، والقديم هو الباطل، والجديد هو الحقُّ! فما أسخف هذا التفكير وما أضلَّهُ عن سواء السبيل!

إنَّ الفرق بين الحلِّ الإسلامي العادل وبين الحلول البشريَّة القاصرة، هو الفرق بين الألوهيَّة الكاملة والبشريَّة الناقصة، الألوهيَّة التي تعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، والبشريَّة التي تعلم من يومها شيئًا وتغيب عنها أشياء، والتي تجهل ماذا يخبئه الغد القريب فضلًا عن البعيد. الألوهيَّة الحكيمة العادلة، والبشريَّة العجول الظلوم، ولنتدبَّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [إسراء: ٩ - ١١].

فالقرآن يهدي إلى أقوم المناهج وأعدل الطرق؛ لأنَّه كتاب الألوهيَّة الحكيمة، أمَّا الإنسان فهو مخلوقٌ ينفعل ويثور ويغضب فيدعو بالشرِّ دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولًا.

إنَّ الحلَّ الإسلامي هو الصراط المستقيم الذي لا عِوَج فيه ولا انحراف، والطريق المستقيم هو أقرب موصل إلى الهدف، والطرق الملتوية المتعرجة قد تبعد الإنسان عن الهدف نهائيًا، وقد تصل به إليه بعد أن يقطع من المفاوز والمهالك ما يذهب بقوته، وراحته وهنائه. وطرق البشر ينقصها الاستقامة والاعتدال، كُلُّها لا تخلو من انحراف إلى اليمين أو اليسار. كُلُّها يميل إلى الإفراط والتفريط، ومن أبرز الأمثلة على ذلك موقف البشر - من قديم الزمان - من الفردية والجماعية (أي الاشتراكية)، ومن الروحية والمادية، ومن الثبات والتطور.

فمنذ عصر اليونان - كما ذكر الأستاذ صلاح الدين السلجوقي في محاضرة له^(١) - قام صراعٌ فكريٌّ بين العقيدة الفردية والفكرة الاشتراكية، إلى درجة التَبَسَّ فيها الأمر على المفكرين: هل الإنسان في طبيعة حاله كائنٌ اجتماعيٌّ أو كائن فردي، أو أيُّهما أقوى: فردية الفرد أم اجتماعيته؟ «كان أفلاطون يعتقد أنَّ الإنسان اشتراكي أكثر منه فرديًا، وحينما حاول أن يضع كتابه عن الفلسفة الخُلُقِيَّة، لم يجد سوى أن يكتب كتابه المعروف باسم «الجمهورية»؛ لأنَّه لم يكن قادرًا على مشاهدة الإنسان في غير مرآة المجتمع أو الجمهور.

ولمَّا جاء تلميذه أرسطو لم يخالف أستاذه أفلاطون إلَّا في شيئين، الأوَّل: في مسألة «المثل»، ولكنَّه في آخر الشوط اتخذ من المُثُل الأفلاطونية أساسًا لعلم المنطق. والثاني: في اشتراكية الفرد، فأرسطو - خلافًا لأستاذه أفلاطون - يعتقد أنَّ الإنسان فرديٌّ أكثر منه اشتراكيًا.

(١) بعنوان: وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا، أُلقيت بقاعة المحاضرات بالأزهر، ضمن الموسم الثقافي الأول للإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر.

فصراع الفيلسوفين الكبيرين لم يكن ليحلَّ المعضلة، بل زاد في شُقَّة الخلاف بين الفكرتين، ولم يكن هنالك أي مرجَّح لإحداهما؛ لأنَّ أفلاطون كان بطبيعة حاله من طبقة الفقراء المعدمين، بينما أرسطو - في تربيته - كان من الأمراء المترفين. وظل هذا الصراع مستمرًا بين الأكاديمية الأفلاطونية وبين مدرسة المشائين لأرسطو.

وكان هنالك دور اليهود المشرِّدين في الأرض. لقد جمعوا رؤوس الأموال، وأخذوا الربا وعملوا على الاحتكار والاستثمار. وكلُّها أمور تؤيِّد الفرديَّة.

وكان هنالك قياصرة في الغرب وأكاسرة في الشرق، وأباطرة في مصر واليونان، دعموا بنظمهم رُوح الفرديَّة.

حتى جاء المسيح ﷺ، وكان من بين دعوته «نجاة الفرد»، وبعد المسيح حذت الكنيسة في تفكيرها حذو أرسطو، فطغت الفرديَّة طغيانًا جارفًا. ولكن الله المقسط وضع سُنته ونظامه الطبيعي والأدبي بالقسط. فكلِّما خرج شيء من العالم الطبيعي أو الأدبي عن القسط والاعتدال، أنتج عكس العمل واندفع إلى الضدِّ.

وهكذا وقع صراع عملي، بل ودموي، بين الفرديَّة والاشتراكيَّة، كما كان هناك صراع فكري منذ زمن بعيد. فقام «مزدك» المعروف في فارس بفكرة اشتراكيَّة بحثة على مستوى الشيوعيَّة، وكانت هناك ضجَّة كبرى وصدام عنيف قبل ميلاد سيِّدنا ومولانا محمَّد ﷺ بقليل.

إنَّ المسائل الفلسفيَّة المرتبطة بالطبيعة والعناصر والأجسام والأفلاك، إذا وقع بشأنها خلاف بين العلماء والفلاسفة، فلا يترتب عليه أي أثر



اجتماعي. وأما الأمور المتعلقة بالفلسفة الاجتماعية، كمسألة فردية الإنسان واشتراكيته، فهي من المسائل التي تفضي إلى النزاع، بل إلى الصدام الدموي. والدّين في ذاته هو الحجر الأساسي للعلوم الاجتماعية، وهو الذي يقرّر علاقة الفرد بالفرد وعلاقته بالمجتمع، وعلاقة الإنسان بالمبدأ المقدّس الذي هو عين الحقّ ومصدر الخير وينبوع الجمال.

لهذا بعث الله محمدًا ﷺ، وأنزل عليه الفرقان الذي قضى على الإفراط والتفريط في الفردية والاشتراكية، وهما اللذان كانا على صراعٍ دائمٍ ولا يعرفان الوَسْطَ» اهـ.

وفي العصر الحديث قام النزاع، واشتد الصراع مرّة أخرى بين الفردية والجماعية في المجالات الفكرية والعملية كما نرى ذلك واضحًا في تاريخ الفكر الغربي الحديث.

«فقد كانت النزعة الفردية (L'individualism) قويّة في القرن الثامن عشر - كما ظهر ذلك في المذاهب الأخلاقية الكبرى - فقد اتجهت إلى ذات الفرد مهملة سُلطة المجتمع.

ولكنّ القرن التاسع عشر قد تصدّى لمقاومة هذه الفردية وتغليب النزعة الجماعية، وكان من دلالات هذا أن نهض «كونت» بإقامة علم الاجتماع والانتصار لسلطة المجتمع ردًا على الفردية التي اعتقد أنها كفيلة بنشر الفوضى والتحلل.

وفي مطلع القرن العشرين ارتدّ المفكّرون إلى الفردية، ونشأ المذهب التاريخي «L'historicism» على يد «بندتو كورتشه» ١٩٥٢م، و«آرون» وبه أصبح نشاط الذات مركزًا يدور حوله كلُّ شيء، فإذا كان

«كونت» وأقرانه من مفكري القرن التاسع عشر قد زعموا أن التاريخ يوجه الفرد، فإن أصحاب المذهب التاريخي يقولون: إن الفرد هو الذي يُحدّد معنى التاريخ.

واشتدّت صيحات الاحتجاج على طغيان المجتمع على حرّية الفرد، وتجلّى هذا عند القصاصين والفنانين والاقتصاديّين ممّن رفضوا سيطرة الحكومة والهيئات على النشاط الاقتصادي، ورأوا في حرّية التصرف عند الفرد مصدر ثراء لا يخفى. وجرى في التيار طلاب الحرّية السياسيّة والداعون إلى حقوق الإنسان، وفي ميدان علم الاجتماع تجلّى الخلاف بين «دوركايم» و«تارد» في مطلع القرن العشرين، فجاهر تارد - ردّاً على دوركايم - بإرجاع الظواهر الاجتماعيّة إلى الظواهر النفسيّة المتبادلة بين الأفراد، عن طريق التقليد الذي يوجد بين الأفراد، ويجعل الضمير الاجتماعي مجرد انعكاس لضروب مختلفة من هذا التقليد.

ويقول «إميل برييه»: «إننا إذا أخذنا بوجهة النظر التي قال بها «جورج جورفتش» في مؤلفه الحديث «الاتجاه الحالي لعلم الاجتماع» قلنا: إن المناقشة في موضوع العلاقة بين الفرد والمجتمع قد أصبحت اليوم غير ذات موضوع، فمن المستحيل أن ننظر اليوم إلى الفرد والمجتمع، كما لو كان كلّ منهما منعزلاً عن الآخر ومستقلاً بذاته. وقد انتهى «جون ديوي» بعد البحث في آراء الكثيرين من علماء الاجتماع المعاصرين، إلى أن لفظي الفرد والمجتمع غامضان غموضاً شديداً، وأن هذا الغموض سيستمر قائماً طالما اعتبر الفرد والمجتمع لفظين متضادين.

وقد رفض المعاصرون من علماء الاجتماع - فرنسيين وأمريكيين - رأي دوركايم الذي اعتبر فيه الفرد دمية يحرك المجتمع خيوطها،

وتخضع لنظام لا دخل لها في وضعه إطلاقاً، فذهب «مارسل موس» إلى أن الإنسان يتصف بجميع الصفات التي يتصف بها المجتمع بأكمله. وصرّح «كيفلييه» في كتاب وضعه حديثاً تحت عنوان: «محصل علم الاجتماع» بأنّ الفضل في إيضاح العلاقة بين الفرد والمجتمع مرده إلى علماء النفس الذين عالجوا البحث في المشكلة الخاصة بمعرفة الآخرين. فرفضوا الرأي الذي ذهب فيه علم النفس التقليدي إلى أنّ معرفة الآخرين تتم نتيجة استدلال يقوم على المقارنة، واعتبر شعورنا عالمًا صغيرًا مغلقًا، فذهب المعاصرون من علماء النفس إلى أنّ الطبيعة البشرية لا توجد كاملة منذ ولادة الإنسان، بل يكسب الإنسان وجودها بالتدرّج أثناء حياته في المجتمع. وصفوة القول: إنّ الفرد في نظر المعاصرين من الاجتماعيين والسيكولوجيين مرّكب تركيباً اجتماعياً يتعذّر الفصل بين أجزائه»^(١).

وهكذا انتهى الفكر المعاصر المعتدل - بعد لأيّ وجهد - إلى ما جاء به النبيّ الأمّيّ محمّد بن عبد الله منذ أربعة عشر قرناً، من المنهج الوسط الذيوازن بين الفرد والمجتمع، في الحقوق والواجبات، بلا إفراط ولا تفريط، وأقام على هذا المنهج الأمّة الوسط التي كانت خير أمّة أخرجت للناس.

* * *

(١) فلسفة الأخلاق: نشأتها وتطورها للدكتور توفيق الطويل ص ٢٦٤ - ٢٦٦، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٦م.

علاج المشكلات من جذورها

إنَّ الحلَّ الوحيدَ الَّذي يعالج المشكلة من جذورها، ويتناولها من جميع زواياها فلا يكتفي بالطفو على السطح، ولا يعالج البثرات التي تظهر فوق الجلد على حين يمور الجوف بأسباب الداء.

إنَّه يعنى بالجانب الاقتصادي في الحياة، والجانب المادي في الإنسان، ويعنى عناية كبيرة بتدبير المعيشة، وزيادة الإنتاج، والمحافظة على الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، والعمل على تنمية الثروة، والعدل في توزيعها، ويعمل على تحقيق التأمين الاجتماعي والتكافل الاجتماعي، كما يهتمُّ بالجسم الإنساني وصحته وقوته، ولكن لا يرتضي ذلك غايةً للمسلم ومحوراً لحياته، ولا يجعله أكبر همٍّ ومبلغَ علمه.

الحياة ليست اقتصاداً فحسب، وليست كلُّ مشكلتها نقص الإنتاج، أو سوء التوزيع. وليس الإنسان مجرد «حيوانٍ اقتصادي» كما يزعم المتطرفون، كلُّ همٍّ إشباع رغباته المادية، وكل عمله البحث عن وسائل إشباعها، فإذا زدنا الإنتاج، ونظَّمنا توزيع السلع والخدمات، فقد انحلت العقدة، وارتفعت الشكوى، وطابت الحياة وسعد الإنسان!

لقد نسي هؤلاء أنَّ النفس الإنسانية، وما تملكه من فكرة عن الوجود ونظرة إلى الحياة، ومثل للسلوك، هي العامل الأول، الَّذي بدونه يفشل

كل حل، وينتكس كل علاج، ولقد كان الشاعر العربي القديم أدق نظرة وأعمق فكرة، من هؤلاء الذين يدعون العلم والخبرة بشؤون الناس والحياة، حيث قال:

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادُ بَاهِلِهَا وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ^(١)!

وما أصدق القرآن الكريم حين بيّن سُنّة الله تعالى: أَنَّ التَّغْيِيرَ المَادِّيَ للجماعات إِنَّمَا يَتَّبَعُ تَغْيِيرَ أَنْفُسِهَا (على عكس الماركسيّة تمامًا). فإذا أردنا تَغْيِيرَ حَيَاتِنَا الاقْتِصَادِيَّةَ إِلَى حَيَاةٍ أَفْضَلَ فَلْنُغَيِّرْ حَيَاتِنَا النَفْسِيَّةَ، فَلْنُغَيِّرْ أَخْلَاقَنَا وَأَفْكَارَنَا وَسُلُوكَنَا أَوَّلًا إِلَى مَا هُوَ أَهْدَى وَأَقْوَمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إِنَّ عَيْبَ تِلْكَ الْحُلُولِ الْمُسْتَوْرَدَةِ كُلِّهَا أَنَّهَا حُلُولٌ مَادِّيَّةٌ مُحْضٌ، لَا يَهْتَمُّهَا فِي الْحَيَاةِ إِلَّا الْجَانِبُ الاقْتِصَادِي، وَلَا يَعْنِيهَا مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا دُنْيَاهُ الْعَاجِلَةُ، وَإِلَّا غِلَافَهُ الْجَسَدِي وَغَرَائِزُهُ الْحَيَوَانِيَّةَ، فَأَمَّا الدَّارُ الْآخِرَةُ وَحَسَابُهَا، وَأَمَّا الرُّوحُ وَأَشْوَاقُهَا وَتَطَلُّعَاتُهَا إِلَى عَالَمِ الْخُلُودِ وَالْكَمَالِ، وَظُمُوهَا إِلَى الْاِتِّصَالِ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَالْقَرَبِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَهَذَا شَيْءٌ لَا يَخْطُرُ لِهَذِهِ الْأَنْظُمَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْجَدِيدَةِ عَلَى بَالٍ، هَذَا إِنْ لَمْ تَنْكَرْهُ وَتَطَارِدْهُ وَتَضْطَهِّدْهُ وَتُضَيِّقَ عَلَيْهِ الْخَنَاقَ فَكَّرًا وَعَمَلًا.

عَيْبُ تِلْكَ الْحُلُولِ الْبَشَرِيَّةِ أَنَّهَا دَائِمًا قَاصِرَةٌ وَعَاجِزَةٌ عَنِ النَّظَرَةِ الشَّامِلَةِ، وَالنَّفَازِ إِلَى الْأَعْمَاقِ، وَالْإِحَاطَةِ بِجَمِيعِ الْجَوَانِبِ؛ فَهِيَ جَزْئِيَّةٌ وَوَقْتِيَّةٌ وَمَوْضِعِيَّةٌ وَسَطْحِيَّةٌ وَنَاقِصَةٌ، وَهَذَا شَيْءٌ «ذَاتِي» فِيهَا لَا أَمْرٌ

(١) البيت لعمر بن الأَهم، كما في المفضليات للمفضل الضبي ص ١٢٧، تحقيق أحمد شاعر وعبد السلام هارون، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٦.

عارض لها، وما بالذات لا يتخلف، كما يقول أهل المنطق؛ ذلك لأنّ هذا القصور يرجع إلى طبيعة الذين وضعوها وإلى حدود طاقتهم وإمكاناتهم، أي يرجع إلى طبيعة الإنسان.

«فالإنسان لأنّه أوّلاً محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان، إذ هو حادث في زمن، يبدأ بعد عدم، وينتهي بعد حدوث، ومتحيز في مكان، سواء أكان فرداً، أو كان جيلاً، أو كان جنساً، لا يوجد إلّا في مكانه، ولا ينطلق وراء المكان، كما أنّه لا يوجد إلّا في زمان - ولا ينطلق وراء الزمان، ولأنّه محدود الكينونة من ناحية العلم والتجربة، والإدراك، يبدأ علمه بعد حدوثه، ويصل من العلم إلى ما يتناسب مع حدود كينونته في الزمان والمكان، وحدود وظيفته كذلك، ولأنّه - فوق أنّه محدود الكينونة بهذه الاعتبارات كلها - محكوم بضعفه وميله ورغبته، فوق ما هو محكوم بقصوره وجهله.

الإنسان - وهذه ظروفه - حينما يفكر في إنشاء تصور اعتقادي من ذات نفسه، أو في إنشاء منهج للحياة الواقعية من ذات نفسه كذلك - يجيء تفكيره محكوماً بهذه السّمة التي تحكم كينونته كلها، يجيء تفكيره جزئياً: يصلح لزمانٍ ولا يصلح لآخر، ويصلح لمكان ولا يصلح لآخر، ويصلح لحالٍ ولا يصلح لآخر، ويصلح لمستوى ولا يصلح لآخر، فوق أنّه لا يتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه، وجميع ملابساته وأطواره، وجميع مقوماته وأسبابه؛ لأنّ هذه كلها ممتدة في الزمان والمكان، وممتدة في الأسباب والعلل، وراء كينونة الإنسان ذاته، ومجال إدراكه. وذلك فوق ما يعتور هذا التفكير من عوامل الضعف والهوى، وهما سِمَتان إنسانيتان أصيلتان.

لذلك لا يمكن أن تجيء فكرة بشرية، ولا أن يجيء منهج من صنع البشرية، يتمثل فيه الشمول أبداً، إنما هو تفكير جزئي وتفكير وقتي، ومن جزئيته يقع النقص، ومن وقتيته يقع الاضطراب الذي يُحتم التغيير، ويتمثل في الأفكار التي استقلَّ البشرُ بصنعها، وفي المناهج التي استقلَّ البشر بوضعها دوام «التناقض» أو دوام «الجدل» المتمثل في التاريخ الأوربي.

فأما حين يتولَّى الله سبحانه ذلك كله، فإنَّ التصوُّر الاعتقادي، وكذلك المنهج الحيوي المنبثق منه، يجيئان بريئين من كلِّ ما يعتور الصفة البشرية من القصور والنقص والضعف والتفاوت»^(١).

وهكذا كان الحلُّ الإسلامي - وهو ربَّاني المصدر - متميِّزاً بشمول النظرة وعمقها إلى الحياة بجميع جوانبها، وإلى الإنسان بجميع خصائصه وجميع حاجاته الظاهرة والباطنة، الماديَّة والروحيَّة، الفرديَّة والاجتماعيَّة؛ لأنَّه لا يحيط بجميع خصائص الإنسان، وجميع حاجاته إلَّا خالق الإنسان، ورب الإنسان: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

الحلُّ الإسلامي هو الَّذي يتجاوز الجانب المادي إلى الجانب النفسي والمعنوي، فيوجه عناية بالغة إلى «الكائن الداخلي» في الإنسان، إلى تلك المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

القلب هو تلك اللطيفة الربَّانيَّة التي بها يحسُّ الإنسان ويشعر، ويحلِّق ويدرك بالبصيرة ما لا يدرك بالبصر، ويفقه من الحقائق

(١) خصائص التصور الإسلامي للشهيد سيد قطب ص ٩٥، ٩٦، خصيصة: الشمول، نشر دار الشروق، القاهرة.

ما لا يستوعبه المنطق: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١).

ذلك القلب الذي لا يستشعر الطمأنينة إلا بمعرفة الله تعالى وذكره، والاعتصام به، ولا تهب عليه نسمات السكينة المنعشة إلا من رياض الإيمان بالله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

الحلُّ الإسلامي هو الحل الوحيد الذي يقوم على أساس من العلم بحقيقة الإنسان والاعتراف بالواقع والفطرة، ولهذا يعترف بهذا الكائن المعنوي في الإنسان «القلب» أو «الروح» أو «الضمير» ويسعى لري ظمئه، وإشباع نهمه، وقضاء وطره، بذكر الله تعالى وشكره، وحسن عبادته، ويعده لحياة الخلود في الآخرة، فهو حلٌ يصل الدين بالدنيا، وينير العقل والقلب، ويبني المسجد مع المصنع، ويُعلي المئذنة كما يُعلي المدخنة، وبهذا تتكامل الحياة ويسود التوازن، وتسير فيها الروح والمادة جنباً إلى جنب، والاقتصاد والعبادة كتفاً إلى كتف، والدنيا والآخرة قدماً إلى قدم: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

إنَّ أثمن ما على هذه الأرض وما فيها ليس قمحها وفاكهتها، ولا نبطها وحديدتها، ولا فضتها وذهبها، إنَّ أثمن ما في الأرض

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٨٢٧)، عن أبي هريرة.



وما عليها هو الإنسان، الإنسان الذي كَرَّمه الله وجعله في الأرض خليفة، الإنسان الذي سَخَّر كل ما في الأرض وما فوقها لخدمته ومنفعته. وأثمن ما في الإنسان ليس هيكله العظمي وما يكسوه من لحم، وما يحتويه من عصب، وما يجري في عروقه وشعيراته من دم، فربما كان لبعض الحيوانات هياكل أقوى وأضخم ممَّا للإنسان.

إنَّ أثمن ما في الإنسان رُوحه وقلبه الذي ميَّزه الله به على غيره وجعله جهاز الاتِّصال الذي يصله بالسماء، ويُدنيه من ربِّه الذي فتح له بابه، ولم يجعل عليه حارسًا يردُّ الطارقين أو يزجر السائلين، بل يقول في كتابه الخالد: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ويقول في حديثه القدسي: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه، وإنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ باعًا، وإنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»^(١).

قد يقول السطحِيُّون: ما دخل هذا الكلام في علاج المشكلات الاجتماعية والاقتصادية؟

ونقول: إنَّ أساس المشكلة كُلِّها هو الإنسان. وكلُّ علاج لها يتجاهل حقيقة الإنسان وحاجات روحه وأشواق قلبه، إنَّما هو علاج سطحي، أشبه بالأقراص المسكَّنة، والأدوية المخدِّرة، التي تهدِّئ الألم ساعاتٍ من الزمن، ولكنها لا تقتلع جرثومة الداء، ولا تصل بالمريض إلى نهاية الشفاء.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة.

إِنَّ الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى الْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِهِ «حَيَوَانًا مُنْتَجًا» أَوْ «كَائِنًا اِقْتِصَادِيًّا» لَا غَيْرَ^(١)، كُلُّ عَمَلِهِ أَنْ يَنْتِجَ وَيَسْتَهْلِكَ، وَكُلُّ هَمِّهِ أَنْ يَأْكُلَ وَيَتَمَتَّعَ، قَدْ جَهِلُوا الْإِنْسَانَ أَكْبَرَ الْجَهْلِ، وَبَخَسُوهُ حَقَّهُ أَعْظَمَ الْبَخْسِ، وَأَسَاءُوا إِلَيْهِ أَعْظَمَ الْإِسَاءَةِ، وَكَانَ مِنْ نَتِيجَةِ جَهْلِهِمْ بِحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَحَقِّقُوا لَهُ السَّكِينَةَ وَالسَّعَادَةَ الَّتِي يَنْشُدُهَا، بَلْ زَادُوا حَيَاتِهِ بؤْسًا وَنَكَدًا، وَزَادُوا بِحُلُولِهِمُ الْقَاصِرَةَ مُشْكَلاتَهُ تَعْقِيدًا عَلَى تَعْقِيدِهِ.

إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بَدَأَ فَأَقْتُلْ مَا أَعْلَلَكَ مَا شَفَاكَ^(٢)

إِنَّ الْإِسْلَامَ - كَمَا قَالَ عَالِمٌ هِنْدِي مُسْلِمٌ - يَذْهَبُ إِلَى أَعْدَمِ مِمَّا تَذْهَبُ إِلَيْهِ الرَّأْسِمَالِيَّةُ وَالشَّيْوَعِيَّةُ، حِينَ يَنْظُرُ إِلَى الْإِنْسَانِ نَظْرَةَ تَسْمُو بِهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَجْرَدَ «مَحْصُولَةٍ» كِيمَاوِيَةٍ لَغَدْدِهِ الصَّمَاءِ. وَالْمَفْهُومُ الْبَلْشَفِيُّ «الشَّيْوَعِي» لِلْفِرْدَوْسِ الْاجْتِمَاعِيِّ لَا يَذْهَبُ إِلَى أَعْدَمِ مِنْ إِقَامَةِ «حَدِيقَةِ حَيَوَانٍ» يَضْمَنُ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِيهَا - بَعْدَ اعْتِنَاقِهِ الْبَلْشَفِيِّ - أَنْ يَطْعَمَ وَيَتَنَاسَلَ، وَأَمَامَ قَضْبَانِ كُلِّ قَفْصٍ تَصْطَنَعُ مَشَاهِدَ فَجَّةٍ لِلتَّسْلِيَةِ وَالتَّرْفِيهِ، بَعْدَ أَنْ تَجِيزَهَا رِقَابَةٌ صَارِمَةٌ! أَمَّا الْإِسْلَامُ فَهُوَ يَضْمَنُ فِرْدَوْسًا كَامِلًا دُونَ حَوَاجِزٍ أَوْ عِرَاقِيلٍ مَكْدَّرَةٍ.

(١) أقام ماركس نظريته على أساس أنَّ الإنسان حيوان منتج، وبالتالي أصبح الإنتاج أعظم مقومات الحياة في المجتمعات البشرية، وأصبح أسلوب الإنتاج الذي يتألف من القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج هو العامل الحاسم في سير التاريخ وتوجيه أحداثه. ولكن بعض نقاد ماركس قد لاحظوا أنَّ الإنتاج نفسه تميزه صفات للإنسان تجعله ممكنًا، منها أن تكون للإنسان مطالب غير مطالب الحيوان، وقدرة تمكنه تدبير مطالبه بالإنتاج، وإنتاج ما يريد وفقًا لمطالبه وكفاياته. وهذه مقدمات ينشأ عنها الإنتاج، ولا يكون سببًا في وجودها!

(٢) من شعر أبي الطيب المتنبي، كما في ديوانه ص ٥٦٧، نشر دار بيروت للطباعة والنشر،



الحل الأول هو الحل الأخير:

وهذا الذي نقوله قد قاله وأعلنه بعض الزعماء العرب الذين يدعون اليوم إلى الحل الاشتراكي الثوري، ويرونه حتمًا لازمًا لعلاج مشكلات أمتنا، وأكتفي هنا بما كتبه الرئيس المصري الراحل في مقدمة كتاب «العدالة الاجتماعية وحقوق الفرد» الذي صدر في سلسلة «اخترنا لك» سنة ١٩٥٤م فكان ممّا قال: «ثم يميل بعضهم إلى هذا الجانب، ويميل بعضهم إلى ذلك، وتتعدد الآراء، وتتعارض المذاهب، وتصطرع العقول والقلوب، وتنشأ الجماعات المختلفة تدعو كل جماعة منها لمذهب ويشغل الفلاسفة وأهل الفكر في كل أمة ليخترعوا «نظامًا» يفضّ المشكلة، ويحلّ العقدة، ثمّ نسمع عن: الرأسمالية والاشتراكية والنازية والفاشية والشيوعية والفوضوية، وعن نظم ماديّة أخرى لا يكاد يبلغها الإحصاء وليس في واحد منها حلّ صحيح لمشكلة الفرد والمجتمع؛ لأن مشكلة الفرد والمجتمع مشكلة إنسانية قبل أن تكون مشكلة ماديّة، فلا سبيل إلى حلّها إلّا بتربية الشعور الإنساني في نفوس الجماهير، وتوثيق أواصر الأخوة الإنسانية بين البشر.

ونقف نحن العرب والمسلمين في هذا الجانب من العالم نشهد الصراع الذي يدور بين هذه المذاهب الماديّة المبتدعة، ونرقب المعارك الناشبة بين الشعوب وحكوماتها حول تلك المذاهب، فنعجب أشدّ العجب، من تلك المذاهب والذاهبين في سبيلها من الحكومات ومن الشعوب على السواء؛ لأن مشكلة الفرد والجماعة التي حيّرت كل المفكرين والفلاسفة، في أوربا منذ قرنين أو منذ قرون، قد وجدت الحل الصحيح في بلادنا، منذ ألف وثلاثمائة سنة، منذ نزل القرآن على محمّد بن عبد الله، يدعو إلى الأخوة الإنسانية، ويفصّل مبادئ العدالة

الاجتماعية، على أساس من التراحم والتكافل الأخوي، والإيثار على النفس في سبيل النفع العام للجماعة، من غير طغيان على حرية الفرد، ولا إذلال له، ولا إنكار لذاتيته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

«ذلك هو النظام.

«فليكتفِ المفكرون والفلاسفة بما بذلوا من جهد، ولا يبحثوا منذ اليوم عن حلولٍ أخرى لمشكلة الفرد والمجتمع.
إن عندنا الحل.

الحل الأول الذي نزل به الوحي على نبينا منذ ألف وثلاثمائة سنة، هو الحل الأخير لمشكلة الإنسان».

فليت شعري أين من هذا الكلام النابض بالحياة، الزاخر بالأصالة، ما يقال اليوم عن «حتمية الحل الاشتراكي» وضرورة التغيير الثوري، والسيطرة الكاملة على وسائل الإنتاج، وتصفية الرجعية، وأن «الاشتراكية العلمية» - أي الماركسية - هي الصيغة الملائمة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم.. وأن أي منهج آخر لا يستطيع - بالقطع - أن يحقق التقدم المنشود^(١)، وأن الصراع الحتمي والطبيعي بين الطبقات لا يمكن تجاهله أو إنكاره^(٢).

ترى هل نسخت الاشتراكية العلمية التي جاء بها اليهودي العريق «ماركس» الحل الأول الذي نزل به الوحي على نبينا منذ ألف وثلاثمائة سنة؟! *

(١) الميثاق ص ٧٣.

(٢) المصدر السابق ص ٦٣.



تكوين الإنسان الصالح

إنَّ الليبرالية الديمقراطية غفلت - أو عجزت - عن شيء جد مهم، وجد ضروري، وهو: تكوين «الإنسان الصالح»، الذي عليه يقوم الحكم الصالح، الإنسان الذي يحسن اختيار ممثليه إذا كان منتخبًا، ويحسن تمثيل منتخبه إذا كان نائبًا، ويحسن القيام بأمانة المسؤولية إذا كان حاكمًا، وبدون هذا الإنسان الصالح لا تصلح حكومة ولا يصلح مجتمع، وإنْ أجرى الانتخابات، وأقام البرلمان.

لهذا نظر كثير من المؤرخين والمفكرين إلى الديمقراطية باعتبارها وهمًا لا حقيقة، حتَّى قال «جان جاك روسو»: «إنَّ الديمقراطية الحقيقية هي حكم الآلهة لا حكم البشر»^(١)!

وقال «جاك مارينان»: «إنَّ مأساة الديمقراطيات الحديثة، هي أنَّها لم تنجح في تحقيق الديمقراطية»!

وما غفلت، أو عجزت عنه الديمقراطية، لم تنتبه له أو تقدر عليه الاشتراكية، إنْ لم تكن أكثر غفلة وعجزًا عنه.

(١) انظر: الإسلام وتحديات العصر للدكتور حسن صعب ص ١٢٦، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، ١٩٧١م.

أما النظام الإسلامي فإن أول ما يعنى به هو تكوين الإنسان الصالح، وعلى هذا الأساس تقوم أجهزته كلها في جوانب التربية والتثقيف والإعلام والتوجيه والتشريع والتنظيم.

ومن هنا نجد «الحلَّ الإسلامي» لا يعتمد على سيف السلطان، وسوط القانون، ورقابة الحكومة فحسب، كما هو شأن الحلول البشريّة الأخرى، إنّما يعتمد بجوار ذلك على الضمائر الحية، والقلوب المؤمنة، التي تحوطه وترعاه وتستجيب لأوامره، وتنتهى عن محظوراته؛ ذلك لأنّه ليس حلًّا ناشئًا من الأرض، ولكنه منزل من السماء، ليس حلًّا صادرًا عن عقل بشر، ولكن من عند الله ربّ العالمين.

والحلّ الذي لا يقوم إلّا على إرهاب السلطة التنفيذية، حل فاشل عاجز، فإنّ الإفلات من قبضة هذه السلطة مع ارتكاب أشنع الجرائم، أمر مستطاع وميسور، وماذا يستطيع أن يعمل القانون أمام لصّ أو مرتشٍ أو مزوّر أو مخربٍ يتصرف في جريمته بإحكام واحتيال، بحيث لا تراه عين، ولا تضبطه يد، فلا يجد القانون إليه سبيلاً وخاصّة إذا كان الأمر أمر عصابة، متعاونة على الشر، تدبر أمرها بإحكام، وتخفي جرائمها بدهاء ومكر، إن صمام الأمان هنا هو الضمير، هو الخلق، ولا ضمير ولا خلق بلا إيمان.

لقد أنشأ النظام الاشتراكي في مصر جمعيات تعاونيّة استهلاكيّة، كان الهدف منها - كما قالوا - خدمة الشعب، وتقديم أجود السلع له بأرخص الأسعار، فماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة سرقات هائلة، وخيانات شنيعة، بأرقام مذهلة، واحتيالات عجيبة، للإثراء على حساب الشعب، وممن؟ من القائمين

على أمر هذه الجمعيات أنفسهم من المديرين ومن وراءهم، ممّا جعل الشعب المصري الساخر يردّد المثل القائل: «حاميها حراميها»، وكما قال الشاعر:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب^(١)؟
وأنشئت مصانع ضخمة وأعدّت لها أفخم المباني، وأُحضرت لها أرقى الأجهزة ولم تَمْضِ سنوات قليلة حتّى عطل كثير من الماكينات، وخرب كثير من الأدوات، وأصبح المشروع يخسر أكثر ممّا ينتج ويربح، وقال في ذلك الرئيس المصري: ماذا نفعل أكثر ممّا فعلنا؟ لقد استوردنا المصانع، واستوردنا الأدوات، واستوردنا الأساليب، فهل نستورد الرجال أيضًا؟ هل نستورد الضمائر والأخلاق؟

ولكن ممّا لا حيلة فيه أنّ الضمائر والأخلاق لا تُشترى ولا تُستورد؛ لأنّها صناعة محلّية ذاتية، ولا يصنعها في ديارنا إلّا شيء واحد مجرّب، هو الإيمان، الإيمان بالله تعالى ورسالاته والدار الآخرة، وبعبارة موجزة: «الإيمان برسالة الإسلام».

كثيرًا ما كتب الكاتبون عن فقدان الشعور بالمسؤوليّة، وأنّه الداء الكامن وراء كل إهمال للواجبات وكل تعطيل للطاقات، وكل تعويق للمشروعات وكل تأخير للعمل، وكل خيانة للأمانات.

وكثيرًا ما كتب الكاتبون كذلك أنّ دواء هذا الداء المنتشر انتشار النار في الحطب إنّما هو غرس هذا الشعور الراقى في أنفس المواطنين، وتوجيههم له، وتوعيتهم به.

(١) ذكره من غير نسبة: الدميري في حياة الحيوان الكبرى (٥٠٤/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٤هـ.

ولكنني أسأل: أي مسؤولية تلك التي نريد أن نغرسها في نفس المواطن؟ أهى المسؤولية أمام الوطن أو المجتمع أو التاريخ؟ ألا ما أجملها من عبارات حلوة الوقع على الأسماع! ولكنها لا تنتج في مجال السلوك عفافاً ولا أمانةً ولا فضيلة.. فما الوطن وما التاريخ وما المجتمع بالنسبة للفرد العادي؟ إنها ألفاظ جوفاء، لا مدلول لها عنده ولا أثر.

سيقول بعض الناس: إنَّ هذه الأشياء يمكن أن تتجسد في جهاز إداري أو قضائي يراقب كل عمل، ويسأل كل مقصر عن تقصيره، وكل مسرف عن إسرافه، وكل معوّق عن تعويقه.

ولكن هل هذا يغني ما دام في الناس الشطار والأذكياء الذين يعدّون لكل أمر عُدته، ويحضّرون لكل سؤال جواباً، ويُعفّون على آثار كل جريمة، وفي التمويه مجال، وفي الكذب متسع، وفي إلقاء التبعة على الغير فرصة، وخاصّة إذا كان وراء الأمر عصابة تخطط له وتحكمه وتنظمه؟

ثم يزداد الطين بلة، والداء علة، إذا عمّ البلاء وطفح الكيل، واستشرى الفساد هنا وهناك وهنالك، حينئذٍ يستعصي الأمر على من يريد إصلاحه من السطح لا من الجذور. لقد اقترح أحد المحافظين في الجمهورية العربية المتحدة على وزير الإسكان نقل القائمين على شؤون الإسكان في محافظته بعد أن كثرت فيهم الشكوى، وعُرف منهم الخيانة، فقال الوزير للمحافظ بصراحة: إذا كان الكل هكذا، فمن أين آتيك بالشرفاء والطيبين؟!



لا بدّ إذن من غرس المسؤولية أمام الله في الآخرة. هذه وحدها هي التي تجدي، وتصنع الضمائر الزاكية، والأنفس اليقظة. إنّه لا بدّ لاستقرار المجتمع من سيادة القانون، ولا يمكن سيادة القانون إلّا بسيادة الأخلاق، ولا يمكن أن تسود الأخلاق إلّا في رحاب الإيمان^(١).

* * *



(١) راجع كتابنا: الإيمان والحياة ص ١٨١ - ٢٣٣، فصل: الإيمان والأخلاق.



تحقيق الاستقرار والطمأنينة في حياة الأمة

ومن مزايا الحل الإسلامي: أنه الحل الذي يحقق للأمة الاستقرار والطمأنينة، ويرسي حياتها على دعائم ثابتة لا تهن ولا تتزلزل؛ لأنّها من صنع الله ووحى السماء، وبذلك تأمن الاضطراب بين المذاهب والنزعات، والتقلب بين اليمين واليسار، والتأرجح بين هذا المعسكر وذاك.

ذلك أنّ هذا الحل هو الحل الفذ الذي تتلقاه طبقات الأمة كلها بالقبول، وتستقبله بالرضا؛ لأنّه نابع من روحها، مطابق لعقيدها، نابت من أرضها، متجاوب مع مشاعرها، متّصل بأعماقها، وليس دخيلاً عليها، ولا غريباً عنها. ومن هنا لا يجد عداءً ولا مقتاً ولا مقاومةً ولا سخطاً، ما يجده أي حل آخر يُستورد من الشرق أو الغرب، ويُفرض على الأمة فرضاً بغير اختيارها ولا رضاها، بل بسلطان القوّة وقوّة السلطان. ولهذا يجرّ غالباً إلى الصراع والعنف، والصدام الدموي بين الشعب والسلطة الحاكمة، وقد تستكين أغلبية الشعب لسلطة الحديد والنار، وتغضي على القذى كرهاً، ولكن المرحل سيظل يغلي حتّى ينفجر بعد حين يقصر أو يطول. وهذا هو سرُّ الهزّات الاقتصادية المتكررة، والقلق الاجتماعي الدائمة، والاضطرابات السياسية



المتابعة، والانقلابات العسكرية المتوالية، ممّا جعل كثيرًا من البلاد الإسلامية تخوض بحرًا من الدم، وتعبر جسورًا من الجماجم، وتجتاز كثرًا من أشلاء الضحايا، الذين يُعدمون أو يُسجنون، أو يُطردون، أو يُعزلون من مناصبهم، أو يُحرمون من حق المشاركة في توجيه وطنهم ومصير أمتهم، وأصبحنا لا نكاد نسمع نشرة في إذاعة الصباح إلاّ ونتوقع نبأ ثورة أو انقلاب يطيح بجماعة ويأتي بآخرين، يقومون بتكميل الرواية على نفس المسرح، رواية المادّية القومية العلمانيّة، ما تغير شيء إلاّ الأشخاص والأسماء، وقد تتغير قليلًا طريقة التمثيل واكتساب إعجاب المتفرجين!

وأصبحنا نسمع ونقرأ الحين بعد الحين أنباء ثورة أُخمدت، أو مؤامرة اكتُشفت صدقًا أو كذبًا، لتكون مبررًا لاضطهاد الألوّف وعشرات الألوّف وتسجير تُور العذاب عليهم، وشيّ جلودهم بالسياط والحديد المحمي.

وما يكاد يمضي وقت يسير على محنة هؤلاء حتّى يُعلن ضبط فئة أخرى، ومؤامرة جديدة، يُساق فيها آخرون إلى ما سيق إليه الأولون.

وهكذا دواليك، لا تزال الرحى دائرة، ولكنها لا تطحن الحَبّ، بل تطحن البشر، وحرية البشر، وأمن البشر، وسعادة البشر!

وسيظل العالم الإسلامي كذلك، ما دام القائمون على حكمه يطلبون حلول مشكلاتهم من غير هدي الإسلام، وشريعة الإسلام؛ لأنّهم سيظلون في وادٍ وشعوبهم في وادٍ، فممّا لا جدال فيه أنّ «خامة» هذه الشعوب وأرضيتها «إسلاميّة»، ومهما يحاول المتسلطون العلمانيون إخفاء هذه الحقيقة وطمسها بالقوة أو الدعاية فلن يفلحوا، وستنتصر

طبيعة الشعوب كما رأينا ذلك في «إندونيسيا» وثورتها على يسارية «سوكارنو» وأعوانه الشيوعيين الذين بلغوا درجة من القوة يُخشى خطرهما، وأحدث من ذلك ما رأيناه من ثورة الشعب والجيش السوداني على حكم الشيوعيين الذي لم يستطع أن يستمر أكثر من ثلاثة أيام. وهذا أوضح برهان على أن الإسلام في نظرة هذه الشعوب المسلمة أقوى من كل مذهب دخيل.

وهذا ما يؤكده المراقبون الأجانب والمؤرخون الغربيون، بالنسبة لكل بلد إسلامي كما نرى ذلك فيما كتبه «برنارد لويس»: «حتى في تركيا، في المجتمع المتغرب العلماني المترفع، مجتمع الجمهورية الكمالية، قامت حركات دينية مكافحة تعارض الثورة الكمالية، وكان على زعامتها الإخوة الدراويش، ولم يكن فيها العلماء لأنهم كانوا موظفين رسميين، ففي حياة كمال أتاتورك كانت الحركة النقشبندية رأس حربة المعارضة الدينية، إذ قاد عدد غير قليل من أفرادها ثورات مسلحة، وأهمها في المنطقة الجنوبية الشرقية سنة ١٩٢٥م وفي مينمين سنة ١٩٣٠م، أمّا حديثاً فالحركة التيجانية والحركة النورية هما اللتان تبشّران وتدعوان لمناهضة الثورة الكمالية، ولكنهما لم تحملا السلاح بعد، والسنوات الأخيرة توحى بأن المنظمات الدينية هي في طريق الزوال، فلقد مُنعت في بلاد كثيرة وضُغت عليها في بلاد أخرى. ومن غير المشكوك فيه أن هذه المنظمات لا تزال قائمة تعمل في الخفاء، وأنّها تلقى صدًى مستحّباً عند غالبية الجماهير الشعبية من الطبقات الكادحة في المجتمعات الإسلامية، حتّى إنّ الحكومات - برغم علمانيّتها - تجد نفسها ملزمة - لمصلحتها - بتقدير المشاعر والولاءات الإسلامية فمسيرة الرجعية التركية من قبل عدنان مندريس

وإقامة المؤتمر الإسلامي في الجمهورية العربية المتحدة هما مثلاً على ذلك»^(١).

أجل فرغم المؤامرات الضخمة على خنق التيار الإسلامي في تركيا، فقد أصبح اليوم أقوى التيارات الشعبوية المؤثرة هناك، فهو يستمد قوته من العقيدة الإسلامية الخالدة، ومن إيمان الشعب التركي المسلم بهذه العقيدة، ولا زال هذا التيار يصارع - بقوته الذاتية - الدعوات الدخيلة التي تحملها الماركسيّة والماسونيّة والعلمانيّة، التي تساندها من الخارج الصهيونيّة العالميّة والشيوعيّة الدوليّة، والصليبيّة الاستعمارية.

ولا زالت أنباء هذا الصراع تتوالى تترى، ولا زالت ضحاياه تسقط بين حين وآخر، ولا ندري ماذا يخبئه الغد لهذا الشعب الذي يريد العودة إلى شريعته ورسالته وموارثه ويريد المضللون والمشبهون أن يقاوموا إرادته، ويثنوا عنانه؟

والذي يحدث في تركيا يحدث مثله في بلاد كثيرة، ولشعوب إسلاميّة شتى من عربٍ وعجم.

والسبب واحد، والنتيجة واحدة.

السبب: هو محاولة فئة قليلة مؤيدة من القوى الخارجية السيطرة على الحكم وتوجيه المجتمع وجهة غير إسلاميّة، والسير به في طريق العلمانيّة، يمينيّة أو يساريّة.

(١) الغرب والشرق الأوسط للأستاذ برنارد لويس ص ١٧٧، ترجمة د. نبيل صبحي، لاجوس، ١٩٦٣م.

والنتيجة: هي مقاومة الشعب لهذا الحكم، فإن لم يستطع المقاومة العلنية فهي الكراهية والحق والنفور، والفجوة الواسعة التي تفصل بين الشعب والحكم والصراع الذي لا يثمر إلا ضعف الفريقين، وتمزيق قوى الشعب كله، لمصلحة الأعداء المتربّصين الحاقدين الطامعين.

ولا سبيل إلى الاستقرار السياسي والاجتماعي والفكري والنفسي في بلدٍ ما، إلا إذا استمدّت الأمة من موارثها العريقة العميقة، ما تقيم عليه بناء حياتها الجديدة، فيصُل حاضرها بماضيها، ولا يفصلها عن جذورها وفطرتها وخاصّة إذا كانت موارث هذه الأمة متميزة بسموها وكمالها وشمولها وتوازنها لأنّ أصولها ليست من ابتكار البشر، بل من وحي الله اللطيف الخبير، الذي لا يضل ولا ينسى.

فإن أبت أمة - أو بعبارة أدق: أبنى قاداتها وساستها وموجهو زمامها - إلا أن تنسلخ من أصولها، وتنقلع من جذورها، وتتعرّى من موارثها، فإنّها صائرة - حتمًا - إلى بلبلة لا تستقر، واضطراب لا ينتهي.

يقول الأديب الباحث المعروف الأستاذ محمّد فريد أبو حديد في محاضرة له عن «موارثنا الثقافية» ألقاها بقاعة المحاضرات بالأزهر: «قد سبق أن بيّنا في ثنايا هذا الحديث، ما ينطوي عليه مبدأ «نبذ الموارث» من مغالطة في المنطق.

فلننظر الآن إلى ما ينطوي عليه هذا المبدأ من الخطر الفعلي في الناحية التطبيقية.

من المعلوم أنّ جماهير الشعوب تميل دائماً إلى المحافظة على اتجاهها، ما لم توجد عوامل قوية تعمل على تغيير هذا الاتجاه.

فقانون القصور الذاتي الذي ينطبق عليها كما ينطبق على كل شيء في الوجود، الساكن يبقى ساكناً ما لم يُحرّكه محرّك، والمتحرّك يحتفظ باتّجاهه ما لم تصدمه قوّة مخالفة لاتّجاهه، فيغيّر وجهته، أو يفقد حركته.

وقد تقدّم أنّ العدول عن المواريث الثقافية إنّما هو هدم وإزالة يقتضيان بذل مجهود ضخم لإفناء قوتها وتغيير اتّجاهها.

ومعنى هذا أنّ محاولة القضاء على موارثنا يتطلب بذل جهود النهضة في عملية الهدم، وهذا يؤدّي إلى إضاعة الجهود في محاولة سلبية نتيجة الهدم وحده.

ويعقب هذا - لو فرضنا إمكانه - مرحلة ذبذبة وبلبلّة، يفقد فيها المجتمع إيمانه بمقدساته، ويفقد فيها مقاييسه جميعاً.

ثم هو لم يصل إلى إقامة هيكل جديد يحلّ محلّ تلك المقدّسات، فماذا ينشأ عن هذا سوى الفوضى في كل شيء؟

انفراط العقد، وزوال الرابطة التي كانت تربط الأفراد، وتحدّد علاقاتهم فيما بينهم، أو بينهم وبين المجتمع الشامل الذي يعيشون فيه.

فلا يكون لتلك الحال من علاج سوى وجود قوّة مهيمنة من فرد واحد أو مجموعة أفراد تسلب حريات الآخرين وتفرض سلطانها على الجميع، للمحافظة على كيان هذا المجتمع المفتعل.

وليست الأمثلة بعيدة عنّا؛ فإنّ بعض الدول الإسلامية تعرّضت لمثل هذا الخطر، وما تزال تعاني منه أكبر الأحران.



فسلامة النهضات لا تكون بهدم الموارث الثقافية التي حفظت كيان الأمة في العصور الماضية، بل تكون بإعادة تطبيق تلك الموارث بحيث تلائم ظروف الحياة الجديدة، وهي هي في جوهرها صافية.

ثم إنَّ التاريخ يدلُّنا على أنَّ الأمم التي تقاسي مثل هذه المحن لا تصل إلى نتيجة إيجابية من وراء نهضاتها، بل لا تلبث أن تتبين خطأها وتعود لتلتمس النهضة من الموارث التي نبذتها، ولكن ذلك يكون بعد فوات الأوان؛ لأنَّ النهضة تكون قد استهلكت نفسها في وجود الهدم، ووجود السيطرة التي يجزُّها الهدم من ورائه» اهـ.

وهذا كلامٌ واضحٌ كالشمس، وأوضح وأقرب مثل لذلك هو «تركيا» التي كانت أقوى وأعظم دولة في الشرق، ماذا ربحت من وراء الجمهورية الكمالية العلمانية، وارتمائها في أحضان الحضارة الغربية، وتمرغها على عتبة الفكر الغربي، وضربها عرض الحائط بالثقافة الإسلامية والشريعة الإسلامية؟

إنَّها لم تحقِّق خلال نصف قرن تقدُّماً اقتصادياً ولا تكنولوجياً يُذكر، ولم تزل من الناحية العسكرية والسياسية ذليلاً مهيناً للمعسكر الغربي.





حفظ وَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَالْإِخَاءِ بَيْنَ أَبْنَائِهَا

إِنَّ هَذَا الْحَلَّ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُ عَلَى كُلِّ بَلَدٍ إِسْلَامِي وَحْدَةَ طَبَقَاتِهِ وَتَعَاوُنَهَا، وَيُوَثِّقُ عُرَا الْأُخُوَّةِ فِيمَا بَيْنَهَا، وَيُحْيِي رُوحَ الْحُبِّ فِيمَا بَيْنَ أَفْرَادِهِ وَجَمَاعَاتِهِ، وَيُجَنِّبُهَا التَّسَلُّطَ وَالْبَغْيَ وَالْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ الَّذِي يَصْحَبُ الرُّأْسُمَالِيَّةَ، وَتَنْقَسِمُ بِهِ الْأُمَّةُ إِلَى مُلَّاكٍ وَأَجْرَاءَ، وَطَاعِمِينَ وَمُحْرُومِينَ، أَوْ كَمَا قَالَ الْكَاتِبُ السَّاحِرُ «بِرْنَارْد شُو»: «أَنَاسٌ يَبْحَثُونَ عَنْ طَعَامٍ لِمَعْدَاتِهِمْ، وَآخَرِينَ يَبْحَثُونَ عَنْ مَعْدَاتٍ لَطَعَامِهِمْ».

كَمَا يُجَنِّبُهَا حَرْبَ الطَّبَقَاتِ وَإِثَارَةَ الْأَحْقَادِ، وَدُمُومِيَّةَ الصَّرَاحِ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ الْإِشْتِرَاكِيَّةُ الْمَارْكَسِيَّةُ، وَتَنَادِي بِهِ سَبِيلًا فِذَا لِلْخِلَاصِ، وَأَمْرًا لَا مَفَرَّ مِنْهُ، وَبِذَلِكَ يَنْقَسِمُ الْوَطَنُ الْوَاحِدُ، بَلِ الْبَلَدَةُ الْوَاحِدَةُ، بَلِ الْأُسْرَةُ الْوَاحِدَةُ، إِلَى أَعْدَاءٍ مُتَنَازِعِينَ يَكْرَهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُحَارِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَإِذَا كَانَ الصَّرَاحُ وَالْعَدَاءُ بَيْنَ النَّاسِ حَتْمِيَّةً تَارِيخِيَّةً فِي الْإِشْتِرَاكِيَّةِ الْمَارْكَسِيَّةِ كَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ - عِنْدَ دَعَاتِهَا - أَنْ يُوجَّجُوا نِيرَانَهُ، وَيَهَيَّئُوا لَهُ الْحَطَبَ وَالْفَحْمَ وَالبَتْرُولَ؛ بِإِثَارَةِ الْكِرَاهِيَّةِ وَالْحَسَدِ وَإِغَارِ الصَّدُورِ وَالتَّحْرِيشِ بَيْنَ النَّاسِ، تَمْهِيْدًا لِلثَّوْرَةِ الْبُلْشَفِيَّةِ الَّتِي تَرِيْقُ الدَّمَاءَ وَتَنْتَهِكُ الْحَرَمَاتِ، وَتَدُقُّ الْأَعْنَاقَ وَتَقْتُلِعُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْجُذُورِ.

يقول «ماركس» منكرًا على مدّعي الإخاء بين الناس والدعاة إليه: «لم يكن الناس إخوة في حالٍ من الأحوال، بل أعداء طبقيين يتصارعون». ويقول «زينوفيف» أحد الشُّراح البارزين للعقيدة الشيوعية: «إنَّ صرخة الغضب المشحونة بالحق هي لذتنا ومتعتنا».

ويقول «لينين» في كتابٍ وجهه إلى «مكسيم جوركي»: «إنَّه لا بأس بقتل ثلاثة أرباع العالم ليصير الربع الباقي شيوعيًا».

ومن قرأ ما صنعه الشيوعيون أنفسهم بعضهم ببعض من اضطهاد وتنكيل وتشريد وتعذيب وتقتيل، بالآلوف وعشرات الآلوف ومئات الآلوف، يرى العجب العجائب.

أما الإسلام فينكر كلَّ الإنكار حتمية الصراع بين الطبقات، ويعلن الأخوة مبدأً، وينادي بها فريضة ترتقي إلى درجة العقيدة، الأخوة بين المؤمنين أولاً وبين الناس كلهم ثانيًا. يقول الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ويقول مخاطبًا الناس جميعًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

ويعلن الرسول ﷺ الأخوة بين البشر مع أركان العقيدة الإسلامية الصحيحة، فكان يقول في دُبُرِ صلاته: «اللهم ربَّنَا وربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه، أنا شهيدٌ أنك أنت الرَّبُّ وحدك لا شريك لك، اللهم ربَّنَا وربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه، أنا شهيدٌ أنَّ محمدًا عبدك ورسولك، اللهم ربَّنَا وربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه، أنا شهيدٌ أنَّ العباد كلَّهم إخوة»^(١).

(١) رواه أحمد (١٩٢٩٣)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الصلاة (١٥٠٨)، والطبراني (٢١٠/٥)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٢٥)، عن زيد بن أرقم.

وإذا كان «ماركس» - تبعًا لفلسفته الخبيثة في تقسيم البشر إلى طبقات متعادية - يوجه ندائه في ختام البيان الشيوعي المشهور إلى العمال وحدهم قائلاً: «يا عمّال العالم اتّحدوا» أي ضدّ الطبقات الأخرى في المجتمع، فإنّ محمدًا ﷺ يوجه ندائه إلى البشر كافةً عمالًا وتجارًا وملاكًا وحكامًا ومحكومين، فيقول: «لا تَدَابَرُوا ولا تَحَاسَدُوا ولا تَبَاغُضُوا، وكونوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(١).

وإذا كان «ماركس» يرى إشاعة الحقد والعداوة والبغضاء بين العمّال وبين سائر الطبقات، ويعدّ ذلك فضيلة بل فريضة، فإنّ الإسلام يُحرّم أشدّ التحريم إثارة العداوة والبغضاء بين الأفراد والطبقات، ويعدّ ذلك من أرذل الرذائل وأكبر الكبائر، التي يروّج لها إبليس وجنوده، لتأكل فضائل النَّاس وحسناتهم، كما تأكل النار الحطب، وينذر بخطرهما الداهم على الأفراد والأمم، ويعتبرها داءً وبيلاً موبقًا.

يقول الرسول ﷺ في ذلك: «دَبَّ إِلَيْكُمْ داءُ الأُمَم من قبلكم: الحسد والبغضاء. والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشَّعر، ولكن تحلق الدِّين»^(٢)، ويقول موصيًا أُمَّته في حجة الوداع: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٣).

وإذا كان الإسلام يُحرّم كلّ التحريم إثارة الحقد والبغضاء والصراع بين الناس، فإنّه يوجب أكّد الإيجاب التدخل بكلّ طاقة ممكنة، لوقف

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة

(٢٥١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢١٢٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب

والترهيب (٦١/٣) حسن لغيره. عن الزبير بن العوام.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، عن جرير بن عبد الله.

الخصومة وطرد شيطان العداوة، وزرع الحب بدل البغض، وإحلال الوئام محل الخصام والسلام محل النزاع. يقول القرآن الكريم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، ويقول: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّبْؤِهِمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

ويقول الرسول ﷺ: «ألا أدلكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟». قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»^(١)، وفي رواية: «لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»^(٢).

بل نجد القرآن يطالب جماعة المؤمنين بالتدخل للإصلاح بين المتخاصمين ولو باستعمال القوة، وأن يعملوا على وقف النزاع، وإنهاء الصراع، وسيادة التفاهم، وتحكيم العدل، فيقول: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَاقْتُلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

وتجعل الشريعة الإسلامية سهماً في مصارف الزكاة لذوي الضمائر الحية والقلوب الكبيرة الذين يقدمون من أموالهم الخاصة للإصلاح بين

(١) رواه أحمد (٢٧٥٠٨)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. وأبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٩)، وقال: صحيح. وابن حبان في الصلح (٥٠٩٢)، وصحّحه الألباني في غاية المرام (٤١٤)، عن أبي الدرداء.

(٢) سبق تخريجه ص ١٦٣.



الأفراد والجماعات، فيُعانون من مال الزكاة على سداد ما غرموا، تشجيعاً لهم ولغيرهم على المضي دائماً في سبيل الإصلاح بين الناس.

ومن هنا نجد اختلافاً جوهرياً بين الفلسفتين: فلسفة اليهودي «ماركس» القائمة على حتمية الصراع الطبقي، وضرورة العداوة فيما بين الناس، ووجوب الاستعانة بهذا الصراع وتقويته، لتحقيق الحلم المنشود.

وفلسفة الإسلام القائمة على فرضية الإخاء، ووجوب تقويته وتوسيع نطاقه وتوثيق عراه، وتحريم التعادي والتباغض وفساد ذات البين، وسدّ كل باب يؤدي إليه، ووجوب الإصلاح بين الناس^(١).

وإذا كان هذا الحلُّ هو الذي تتلقّاه طبقات الأمة كلّها بالرضا والارتياح والقبول فلا غرو أن يكون هو الحل الذي تضحّي الأمة من أجله راضية، وتبذل في سبيله راغبة، وتدافع عنه بالدم والمال مقتنعة، وتقاوم كل من يعاديه مستبسلة، وتصبر على الشظف والتقشّف لإنجاحه مغتبطة.

وذلك أنّها تعتقد أنّها تبذل لدينها، وتضحّي لعقيدها، تبتغي وجه ربها وتجاهد في سبيله، والأمة تصبر على الحرمان والحصار إذا كان ذلك في سبيل الله. أمّا إذا كان ذلك من أجل ملك أو رئيس يدعم سلطانه، ويُقوّي مركز حكومته، أو من أجل مبدأ مستورد من الشرق أو الغرب، فإنّ الناس سرعان ما يتضجّرون ويسخطون إذا شعروا بشيء من الغلاء أو أزمة التموين أو نحو ذلك، نتيجة حصار اقتصادي، أو تدهور مالي، أو ضعف إنتاجي، ويشتدّ الضيق والتذمّر وتعلو موجات السخط والاستنكار إذا اضطرت الدولة إلى حرب بينها وبين خصومها، تلتهم

(١) راجع: بحث الإسلام والصراع الطبقي للدكتور معروف الدواليبي.

المال كما تلتهم الرجال، فما أسرع ما يقول الناس: فيم نُساق إلى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل؟!

نعم، إنَّ أجهزة الدعاية والإعلام تعمل ليلَ نهارَ، بشتَّى الأساليب، مجنّدة كلَّ الطاقات البشرية والماديّة، مستخدمة أحدث الوسائل الفنيّة والعلميّة، لإقناع الأمّة بالحلول الدخيلة المستوردة، عسى أن تستقر في عقلها، وتنفذ إلى أعماق وجدانها، ولكن هيهات هيهات لِمَا يبتغون. إنَّهم يُضيعون هذه الجهود سدى، وينفقونها بلا ثمرة، إلّا إرهاب ماليّة الدولة بعشرات الملايين التي تُنفق في كل عام على هذه الدعاية الفارغة، التي لا تزيد الشعوب إلّا تدمرًا وغضبًا، وهي أشد ما تكون حاجة إلى الدينار والدرهم، لينفق على الجائعين والعراة، والمرضى والعاطلين والأُمّيين.

وحقًا إنَّ السلطات الحاكمة ستُسكّت بالعنف كلَّ صوتٍ حُرٍّ، وتكسر كلَّ قلمٍ حُرٍّ، وتحطم كلَّ قوّة معارضة، وتسخر أجهزة الدولة - حتّى جيشها المُعدّ لأعدائها - لتقوم بتصفية المناوئين، وتُجرّب فيهم عمليّات «غسيل المخ» المستوردة من بلاد الاشتراكيّة الأمّ. ولكن هذه المحاولات الدمويّة لا تجدي فتيلاً، ولا تزيد الشعب إلّا نقمةً، ولا المعارضة إلّا شدّةً، ولا الحكومة إلّا فشلاً، وستزيد مسافة الخُلف بين الأمّة والسلطة، فهيهات أن تحصل يوماً على رضاها أو تحلّم بالتعبير عن إرادتها.

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكُنُهَا فِي السَّمَاءِ فَعَزَّ الْفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلاً!
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْهَا الصُّعُودَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ النُّزُولَ^(١)!

(١) البيتان للعباس بن الأحنف. انظر: ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (٢٦٩/١)، نشر دار الجيل، بيروت.



جمع كلمة الأمة العربية الإسلامية

والحلُّ الإسلامي هو الذي يمكن أن تجتمع عليه الأمة العربية والإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في آسيا وإفريقيا. وهو القادر وحده على إنشاء الكتلة العالمية الثالثة التي تحفظ التوازن بين الروح والمادة، بين الدين والدنيا، بين الفرد والمجتمع، بين الشرق والغرب، ويرز للبشرية أمةً وسطًا، ومذهبًا وسطًا.

إنَّ الأخذ بالحلول الأخرى المستوردة سيمزق الأمة الإسلامية، ويُفَرِّقها بَدَدًا، ويحول بينها وبين الوحدة المنشودة التي فرضها الله عليها. إنَّ بعض الأمة عندئذٍ سيتجه إلى اليمين الليبرالي، وبعضها سيتجه إلى اليسار الماركسي. واليمين نفسه مراتب ودرجات، واليسار كذلك مراتب ودرجات، تختلف وتتنوع وتتقارب وتتباعده، من يمين اليمين، إلى يسار اليسار. كما أنَّ القبلة ليست واحدة، لا عند هؤلاء ولا عند هؤلاء. فمن ناحية تجد قومًا يولون وجوههم شطر لندن، وآخرين شطر واشنطن، وغيرهم شطر باريس. ومن ناحية أخرى تجد بين اليساريين «الحمر» الذين اتخذوا كعبتهم موسكو، و«الصفراء» الذين اتخذوها بكين!

وهكذا تتعدد ألوان التبعية، وأنواع الولاء. ومع هذه الألوان والأنواع يتنوع الصراع ويتعدّد الانقسام، ويتوالى الانشقاق.

وعاقبة ذلك كله، تفريق الأمة الواحدة الكبيرة إلى أمم صغيرة متنازعة وتمزيق الدولة الواحدة إلى دُوِيَّلات، وإن شئت فقل: إلى لُقِيَّمات يسهل ابتلاعها وازدراؤها.

وهذا الخلاف والتفرُّق والانقسام نتيجة حتمية لاختلاف المناهج والسُّبل وتبعاً للابتعاد عن منهج الله وهداه وهذا ما حذر منه كتاب الإسلام ورسول الإسلام.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: خَطَّ رسولُ الله ﷺ خطاً بيده، ثمَّ قال: «هذا سبيل الله مستقيماً»، وخطَّ عن يمينه وشماله ثمَّ قال: «هذه السبيل ليس منها سبيلٌ إلَّا عليه شيطانٌ يدعو إليه»^(١)، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فهذه السُّبل الشيطانية - يمينية كانت أو يسارية - لا بدَّ أن تُفَرِّق كلمة الأمة، وتمزِّق شملها، ومعنى ذلك هو الهلاك والبوار، الذي لا ينجي منه إلَّا الرجوع إلى المحجَّة البيضاء التي تركنا عليه رسول الله ﷺ، فعن العَرَبَاض بن سارية رضي الله عنه أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «لقد تركتكم على مثلِ البيضاء، ليُّها كنهارها، لا يزيغ عنها إلَّا هالكٌ»^(٢).

(١) رواه أحمد (٤١٤٢) وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. والنسائي في الكبرى في التفسير (١١١٠)، وابن حبان في المقدمة (٦)، والحاكم في التفسير (٣١٨/٢) وصحَّح إسناده على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه أحمد (١٧١٤٢)، وقال مخرَّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. وابن ماجه في المقدمة (٤٣)، والحاكم في العلم (٩٦/١)، عن العرباض بن سارية.

وعنه عليه السلام أنه قال: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَيَسِرْ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(١).

ففي ظلّ الإسلام وحده يمكن أن تذوب العصبية القومية والإقليمية وتذوب الفوارق اللونية واللغوية والطبقية، ويجتمع هؤلاء المئات من الملايين من المسلمين على نظام واحد، كما اجتمعوا على عقيدة واحدة، وكما يتجهون جميعًا في كل يوم خمس مرات إلى قبلة واحدة، وكما يجتمع مئات الألوف منهم كل عام في مكان واحد وزمان واحد، لأداء فريضة واحدة، هي فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وقد لاحظ كثير من الأجانب قوّة الترابط الفكري والعاطفي بين المسلمين، ومدى الاستفادة منه في مواجهة التطور الاقتصادي والتقدم الاجتماعي.

يقول «جاك أوستروي» في كتابه عن «الإسلام والتنمية الاقتصادية»: «هناك حوالي (٤٠٠) مليون^(٢) مسلم، وإذا ذكر أنّ واحدًا من كلّ أربعة رجال في العالم هو صيني، كذلك فبإمكاننا القول: إنّ في العالم الحاضر مسلمًا واحدًا في كلّ ستّة رجال.

هذه الكتلة التي تجتمع في صلاة واحدة بدأت تعي مدى قوتها والتحامها الذي لفت منذ زمنٍ طويلٍ أنظار كل زائر.

(١) رواه أحمد (١٧١٤٤)، وقال مخرّجوه: صحيح. وأبو داود في السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح. والحاكم في العلم (١٧٤/١) وصحّحه ووافقه الذهبي، عن العرباض بن سارية.

(٢) الواقع أنّ المسلمين في العالم اليوم يقاربون (٨٠٠) مليون، كما تشير إلى ذلك إحصائية حديثة من الأمم المتحدة، ولكن الغربيين دائمًا يحاولون تقليل عدد المسلمين!

خمس مرّات في اليوم، في جميع أنحاء العالم، أربعمئة مليون إنسانٍ يخزّون ساجدين، قبلتهم مكّة، يشكّلون دائرة واسعة كوردة، كلّ ورقةٍ فيها تكوّن كائنًا حيًّا يركعون ويسجدون، وأنا أتصوّر - لو كان بإمكان النظر أن يحدّهم جميعًا - أنّ الصورة التي تُقدّمها هذه الزهرة الجبّارة تتفتح ثم تغلق بترتيب نظاميٍّ مُشكّلة في مجموعاتٍ غير محدودة من المؤمنين، زهرة غريبة تنفتح على أكثر من قارّة، تفقد أوراقها كلّ ليلة لتستجمعها عند نداء المؤذن في الفجر، زهرة كلّ ورقةٍ فيها مربوطةٌ إلى الأخرى بوشائج الصلاة المتينة، تتجمع كلّها في الكعبة الكثيفة السواد، هذا الإحساس العظيم الذي يشير إليه حماس بعض الموجهين في الشرق الأوسط يفسر - جزئيًّا - هذه الوجهة في السياسة الاقتصادية، الوجهة الرامية إلى الأهداف الجسام^(١).

وإنّ هذه الوحدة الروحية العاطفية الفكرية، لتزداد قوّة وأصالة ووضوحًا حين يكون وراءها نظام واحد، ومنهج واحد، يلتقي الجميع عليه، ويتبعون هداه، إنّ وحدة المنهج - بعد وحدة العقيدة - هي التي تجعل الأمة كالبنيان المرصوص، بل الجسد الواحد، وتباعد بينها وبين أسباب الفرقة والتنازع.

إنّه ليس من الهيّن ولا الأمر البسيط أن يجتمع سبعمئة أو ثمانمئة مليون على نظام واحد يخضعون لقوانينه ووصاياه، ويُقدّسون أوامره ونواهيه؛ لأنّها من عند الله.

إنّ مجرّد خُطور هذا الحلم الجميل بالبال لأمرٍ مخوفٍ كلّ الخوف، ترتعدُّ له فرائص الاستعمار الأسود، والإلحاد الأحمر، والصهيونية الرقطاء.

(١) ترجمة الدكتور نبيل الطويل.

وكان أكبر هم الاستعمار الصليبي الذي حكم معظم الديار الإسلامية في العصر الحديث، أن يحول بين مثقفي الأمة وقادة التوجيه فيها. وبين التفكير في الإسلام والعودة إلى نظامه وأحكامه ومثله، وأن يصطنع سدوداً فكرية ونفسية تحجب عنهم تعاليم الإسلام الحق وثقافته الصحيحة.

وكان من أعظم أهدافه ألا تجتمع الأمة الإسلامية على منهج واحد تعتصم به ولا تنصرف عنه، وخاصة إذا كان هذا المنهج هو الإسلام.

وكان من أساليبها في ذلك:

أ - خلق الاتجاهات القومية الضيقة التي من شأنها أن تجعل من الأمة الإسلامية الواحدة أمماً وجماعات ودولاً؛ فهذه قومية طورانية تركية، وثانية فينيقية سورية، وثالثة فرعونية مصرية، ورابعة آشورية عراقية، وخامسة قومية عربية، وسادسة بربرية، وسابعة إيرانية، وهلم جرا.

ب - إثارة النعرات الوطنية الإقليمية، فآسيا للأسويين، وإفريقيا للإفريقيين، ثم سوريا للسوريين، ومصر للمصريين، والسودان للسودانيين، ولبنان للبنانيين، وهكذا.

ج - خلق المدارس الفكرية المتناحرة في الأدب والفلسفة والتربية والسياسة وسائر مجالات الفكر والثقافة، فهنا صراع بين القديم والحديث في الأدب، وبين المدرسة السكسونية والمدرسة اللاتينية في الثقافة، وبين الماديين والمثاليين في الفلسفة، وبين اليمين واليسار في الاقتصاد والاجتماع، وبين المحافظين والأحرار في السياسة، إلى غير ذلك من ألوان الخلاف والصراع.



د - توسيع الهوية بين الثقافة الدينيّة القديمة التي كانت أساس الثقافة القوميّة الأصيلة، وبين الثقافة الحديثة التي اتسعت لكل معارف العصر وآدابه وفنونه والعمل بكلّ وسيلة على عزل القديم عن الحياة، وإبقائه معصوب العَيْنَيْن عمّا يدور في الدنيا الجديدة، وإظهاره بمظهر المتخلف المتحجّر الذي يقاوم النور وحركة التاريخ.

ومن جهة أخرى يعمل على تعميم ثقافته الجديدة، وترسيخها في العقول، وتحبيبها إلى الأنفس، وهي ثقافة تحمل في طياتها احتقار كل قديم، وتمجيد كلّ جديد، والشكّ في «الغيبّات»، وتشيع في أنحائها بوجه عامّ النظرة القوميّة والعلمانيّة والمادّيّة.

* * *



تجديد رُوح الحياة والقوة في الأمة

إِنَّ الْحَلَّ الْإِسْلَامِي هُوَ الْحَلُّ الْوَحِيدَ الَّذِي يَجْدُّ فِي الْأُمَّةِ مَا بَلِي مِنْ شَبَابِهَا، وَيُحْيِي مَا شَاخَ مِنْ عِزَائِمِهَا، وَيَحْرِّكُ مَا هَمَدَ مِنْ طَاقَاتِهَا الْخَلَاقَةِ، وَيَنْفَخُ فِيهَا رُوحَ الْحَيَاةِ، وَيُجْرِي فِي عُرُوقِهَا دَمَ الْبَطُولَةِ، وَيَصُبُّ فِي كَيَانِهَا كُلِّهِ رُوحَ الْقُوَّةِ وَقُوَّةَ الرُّوحِ.

ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أُمَّةٌ مُؤَمَّنَةٌ بِفَطَرَتِهَا وَبِتَجَارِبِهَا وَبِتَارِيخِهَا.. وَالْإِيمَانُ هُوَ أَوَّلُ مَلَامِحِهَا، وَأَبْرَزُ الْمَعَالِمِ فِي حَضَارَتِهَا، وَهُوَ صَانِعُ أَمْجَادِهَا وَصَاحِبُ الْفَضْلِ الْأَوَّلِ فِي تَارِيخِهَا، وَقَائِدُهَا فِي مَعَارِكِهَا الْكُبْرَى إِلَى النِّصْرِ، بِهِ فَتَحَتْ الْبِلَادَ وَسَادَتِ الْعِبَادَ، وَحَطَمَتْ مُلُوكَ كَسْرَى، وَقَصَّتْ أَجْنَحَةَ قَيْصَرَ، وَبِهِ شَرَّقَتْ وَغَرَّبَتْ فَأَخْرَجَتْ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الْخَلْقِ إِلَى عِبَادَةِ الْخَالِقِ، وَمِنْ ضَيْقِ الْعَيْشِ إِلَى سَعَةِ الْحَيَاةِ، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ.

بِهَذَا الْإِيمَانِ انْتَصَرَتْ فِي حِطِّينَ، وَعَيْنَ جَالُوتَ، وَالْمَنْصُورَةَ، وَانْتَصَرَتْ عَلَى جِيُوشِ التَّتَارِ وَحَمَلَاتِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَبِهِ صَمَدَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَمَامَ الْغَزْوِ الْإِسْتِعْمَارِيِّ الصَّلِيبِيِّ، حَتَّى كَانَ آخِرُ نَصْرِهَا فِي الْجَزَائِرِ بَعْدَ قَرْنٍ وَثَلَاثَ مِنَ الْإِحْتِلَالِ وَمَحَاوِلَةِ التَّغْرِيبِ وَالتَّنْصِيرِ.

إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ شَخْصِيَّةً مُمَيَّزَةً، وَلِكُلِّ شَخْصِيَّةٍ مِفْتَاحًا خَاصًّا تَسْتَطِيعُ بِهِ أَنْ تَدْفَعَهَا بِلَمْسَةٍ مِنْهُ إِلَى الْأَمَامِ مَا شَاءَ اللَّهُ، كَمَا يَصْنَعُ مِفْتَاحُ السَّيَّارَةِ الَّذِي لَا تَدْفَعُ بغيره، وَلَا تَتَحَرَّكُ إِلَّا بِهِ.

وَمِفْتَاحُ شَخْصِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ هُوَ الْإِيمَانُ، بِهِ تُصْنَعُ الْمَعْجَزَاتُ، وَتَتَخَطَّى الْمُسْتَحِيلَاتُ، وَتُسْتَهَيَّنُ بِالْعُقُبَاتِ وَالْمَعْوَقَاتِ.

فَإِذَا أَرَادَتْ أُمَّتُنَا فِي طَرِيقِ تَحْرِيرِهَا وَوَحْدَتِهَا وَبِنَاءِ نَهْضَتِهَا: الْإِنْسَانُ الْقَوِيُّ الَّذِي يَدُوسُ الشَّهْوَةَ، وَالْمُنْتَجِ الَّذِي يَحْتَرِمُ الْوَقْتَ، وَالصَّابِرُ الَّذِي يَتَحَمَّلُ الشُّظْفَ، وَالسَّخِي الَّذِي يَبْذُلُ الْمَالَ، وَالْفِدَائِي الَّذِي يَحْلُمُ بِالْمَوْتِ، فَلَنْ يَصْنَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَّا الْإِيمَانُ، إِيْمَانُ الْإِسْلَامِ.

ذَكَرْنَا فِي كِتَابِنَا «دَرْسُ النُّكْبَةِ الثَّانِيَةِ» مَا قَالَهُ الْمُؤَرِّخُ وَالْفِيلَسُوفُ الْاجْتِمَاعِيُّ الْفَرَنْسِيُّ «جُوسْتَا فِ لُوبُون» عَنْ طَبِيعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَتَأْثِيرِ الدِّينِ فِيهَا، وَلَا بَأْسَ أَنْ نَعِيدَ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ تَبْصِرَةً وَتَذْكَرَةً. يَقُولُ: «تَأْثِيرُ دِينِ مُحَمَّدٍ فِي النُّفُوسِ أَعْظَمُ مِنْ تَأْثِيرِ أَيِّ دِينٍ آخَرَ، وَلَا تَزَالُ الْعُرُوقُ الْمَخْتَلِفَةُ الَّتِي اتَّخَذَتْ الْقُرْآنَ مَرْشَدًا لَهَا تَعْمَلُ بِأَحْكَامِهِ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ مِنْذُ ثَلَاثَةِ عَشَرَ قَرْنًا، أَجَلٌ.. قَدْ تَجَدَّدَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَدَدًا قَلِيلًا مِنَ الزَّنَادِقَةِ وَالْأَخْلِيَاءِ وَلَكِنَّكَ لَنْ تَرَى مَنْ يَجْرُو مِنْهُمْ عَلَى انْتِهَاكِ حُرْمَةِ الْإِسْلَامِ فِي عَدَمِ الْإِمْتِثَالِ لِتَعَالِيمِهِ الْأَسَاسِيَّةِ كَالصَّلَاةِ فِي الْمَسَاجِدِ وَصُومِ رَمَضَانَ الَّذِي يَرَاعِي جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ أَحْكَامَهُ بِدَقَّةٍ مَعَ مَا فِي هَذِهِ الْأَحْكَامِ مِنْ صَرَامَةٍ لَا تَجِدُ مِثْلَهَا فِي صُومِ الْأَرْبَعِينَ الَّذِي يَقُومُ بِهِ النَّصَارَى كَمَا شَاهَدْتَ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْأَقْطَارِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي زُرْتَهَا فِي آسِيَا وَإِفْرِيْقِيَا. وَمِنْ ذَلِكَ: أَتِيحُ لِي أَنْ أَرْكَبَ سَفِينَةَ نِيلِيَّةٍ كَانَتْ فِيهَا أَفْرَادُ عَصَابَةِ عَرَبِيَّةٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ، وَمُتَّهَمِينَ بِأَنْوَاعِ الْجَرَائِمِ، فَقَضَيْتُ الْعَجَبَ حِينَ

رأيتهم - وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقصى العقوبات - لم يجرؤوا على انتهاك تعاليم النبي، حين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاة عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدونه.

وعلى من يرغب في فهم حقيقة أمم الشرق - التي لم يدرك الأوربيون أمرها إلا قليلاً - أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها. وللدين - ذي التأثير الضئيل فينا - نفوذ عظيم فيهم، وبالدين يؤثر في نفوسهم، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين، منذ الثورة التي ضرجت مصر بالدماء» (يعني: ثورة ١٩١٩م).

إلى أن يقول: «إنَّ الرجل الذي يخاطب العرب باسم الله يُطاع لا محالة، ما علموا أنه يتكلَّم باسم الله حقًا.

فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق، الذي استطاع العرب أن يفتحوا العالم به فيما مضى، وهم اليوم يصبرون به على قسوة المصير»^(١).

تلك هي طبيعة هذه الأمة، وذلك هو تأثير الإسلام في أبنائها: العرب وغيرهم من «العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدًا لها».

والمؤرِّخون قديمًا وحديثًا متفقون على هذا الرأي.

يقول الأستاذ «كليرنج» في كتابه عن «الشرق الأدنى.. مجتمعه وثقافته»: «إنَّ الدين مرآة تنطبع عليها القيم الروحية والثقافية للشعوب بأجلى صورها وهو للجماعة كالحدقة من العين. ترتسم عليها صور الحقائق التي توليها الاهتمام».

(١) حضارة العرب لجوستاف لوبون ص ٤١٧، ترجمة عادل زعيتر، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ٣، ١٩٥٦م.

أمّا الأستاذ «أليسون» فيؤكد استنادًا إلى وقائع التاريخ ذاته بأنّ الاستقرار لدى الآسيويين - على الأخصّ - في حاجة دائمًا إلى الاستناد إلى الدين.

وهذا موافق لما ذهب إليه «ابن خلدون» في شأن العرب والترك وغيرهم من شعوب الشرق من حيث قوّة تأثير الدين فيهم، حيث يصبح الوازع لهم من أنفسهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلبة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس^(١).

فمَن أراد أن يصنع بهذه الأُمّة العجائب، ويقتحم بها المخاطر، ويخوض بها لجج المعارك، ويعيد بها أيام خالد وصلاح الدين، فليخاطبها باسم الله، وليقدّها بزمَام الإيمان، وليجمعها تحت راية القرآن وكلمة التوحيد، وقيادة معلّمها الأوّل مُحَمَّد ﷺ. وليربطها بأيام الإسلام، وتراث الإسلام، وأبطال الإسلام.

بهذا تكشف الأُمّة عن خصائصها وأصالة معدنها، ويتجلّى ما تنطوي عليه أعماقها من إيمان غطّاه طلاء الحضارة الزائف، ومن فضائل ران عليها الصداً بفعل المذاهب الدخيلة والأنظمة العميلة، التي أضلّتها عن طريقها، وتركتها في حيرة وفراغ.

إنّ أُمّتنا التي تواجه اليوم الصهيونيّة العالميّة العاتية الطامعة، ومن ورائها قوى الإمبرياليّة الغربيّة والشرقيّة، التي ساندها في إقامة دولتها «إسرائيل» فهي أحوج ما تكون إلى استشارة دفائنها المكنونة، وطاقاتها المذخورة، واستخراج أقصى ما تملكه من الإمكانيات

(١) مقدمة ابن خلدون (٦١٧/٢ - ٦٢٦) الفصل: (٢١ - ٢٧)، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، نشر لجنة البيان العربي، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.



النفسيّة، لتواجه بها أعداءها، ولن يثيرها ويدفعها ويحركها إلا كلمة الإيمان ونداء الإسلام.

إنّ مؤلفات فرويد، ودوركايم، وجون ديوي، أو مؤلفات ماركس ولينين وماو - لا تهزُّ وترًا في قلب أمّتنا، ولا ينبض بها عِزُّق في كياننا، ولن يدع بها أناني أنانيته، ولا كسلان كسله، ولا ماجن مجونه، ولن تحرك جنديًا لإقدام، ولن تقود جيشًا إلى نصر، ولكن كلمة «الله أكبر» أو «لا إله إلا الله، محمّد رسول الله» أو «هَبِّي يا رياح الجنّة» تفعل في الأنفس فعل السحر، وتؤثّر في القلوب تأثير الكهرباء، وتقلب ميزان القوى في المعارك الكبرى.

إنّ صيحة «وإسلاماه» كانت وراء النصر في «عين جالوت». وكلمة «الله أكبر» في العاشر من رمضان، والتي اتّخذها الجيش المصري شعارًا له، كانت وراء ما حقّقنا من العبور الخاطف، وتحطيم خطّ بارليف، وهزيمة الجيش الذي زعم - لفترة طويلة - أنّه القوّة التي لا تُقهر. وستظلّ كلمة الإسلام سرّ النصر في كلّ معركة حاسمة بين المسلمين وأعداء الإسلام.

إنّ العودة إلى الإسلام هي ماء الحياة، الذي يردُّ على الأُمّة رُوحها، ويُجري في أوصالها العافية والقوّة، كما أنّه المصل الواقي الذي يمنحها المناعة ضدّ الجراثيم الفتاكة التي يبثّها أعداؤها.

العودة إلى الإسلام هي التي تصلح ما فسد من هذه الأُمّة، وتُنشئها خلقًا آخر، وتسلمها من جديد زمام التاريخ.

وهذا في الواقع هو ما يخشاه أعداؤها، وما حسبوا - ويحسبون له دائمًا - ألف حساب وحساب.

إنَّهم ساعدوا - ويساعدون - على خلق التيارات العلمانيَّة والمادِّيَّة التي تعزل الأُمَّة عن دينها، وتفصلها عن مصدر قوَّتها، ثمَّ على تغذيتها بعد خلقها وإنشائها فهذه التيارات والنزعات - ليبراليَّة كانت أو اشتراكيَّة - كلها من خلق الاستعمار والصهيونيَّة، بواسطة أو بغير واسطة.

يقول «لورنس براون» في كتاب صدر سنة ١٩٩٤م هذه العبارات الصريحة: «لقد كنَّا نُخَوِّف بشعوبٍ مختلفة، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبررًا لمثل هذا الخوف. لقد كنَّا نُخَوِّف بالخطر اليهودي، والخطر الأصفر (اليابان والصين) والخطر البلشفي، إلَّا أنَّ هذا التخويف كله لم يتَّفَق كما تخيلناه، إنَّنا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهدٍ لهم عدونا الألد، ثمَّ رأينا أنَّ البلاشفة (الشيوعيين) حلفاء لنا، أمَّا الشعوب الصفراء فهناك دول ديمقراطيَّة كبرى تقاومها، ولكنَّ الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قوَّته على التوسُّع والإخضاع، وفي حيويَّته، إنَّه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي»^(١).

وهكذا يرى الكاتب أنَّ في نظام الإسلام قومة كامنة رغم ضعف أهله وتفرقهم، وأنَّ هذه القوَّة المذخورة لا يؤمن خطرها على الاستعمار الأوربي، وأنَّها هي التي يجب أن يُحسب حسابها في السياسة الأوربية، وأنَّ كل ما يخوِّف به المخوِّفون من أخطار آخر ليست أخطارًا في الحقيقة، بما في ذلك الخطر اليهودي والخطر الشيوعي، والخطر الصيني، ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام.

(١) التبشير والاستعمار للدكتورين عمر فروخ ومصطفى الخالدي ص ١٨٤، نشر المكتبة العصرية، بيروت، ط ٥، ١٩٧٣م.

كتب المستشرق البريطاني البروفسور «مونتجومري وات» مقالاً في صحيفة «التايمز» اللندنية في ٨ مارس «آذار» قال في نهايته^(١): «إذا وُجِدَ القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإنّه من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرّة أخرى».

وبعدها استطرد معبّراً عن قلقه، بتأكيد قول أحد زملائه، وهو المستشرق السير «هـ. أ. جب» فيقول: «وكما نوّه السير «هاملتون جب» فإن هناك احتمالاً - من الحكمة للغرب ألا يقلل من شأنه - ألا وهو ظهور الإسلام من جديد، كقوة عالميّة».

ولعله يشير إلى تلك الكلمة التي كتبها «جب» من قبل في مقدمته لكتاب «إلى أين يتجه الإسلام؟» وكان فيها ما يشبه التنبيه والإنذار إلى العالم الغربي ليأخذ حذره ويكيد كيده، وذلك حين قال: «ومع أنّ الوحدة الإسلاميّة قد انتهت من الناحية القانونيّة الرسميّة، ومع أنّ الثقافات القوميّة قد أخذت مكانها في المدارس، ومع أنّ الفوارق الاجتماعيّة قد أصبحت أكثر وضوحاً، ومع أنّ الثقافة الدنيّة التقليدية قد أصبحت محصورة في عدد قليل محدود، مع ذلك كله فالمعاهد الدنيّة نفسها لا تزال قائمة ولا يزال حفاظ القرآن ودارسوه كما كانوا لم ينقص عددهم، ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين. وربما كان تقديس شخصيّة «محمّد» وما يثيره ذكره من حماس في سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم من أهمّ ملامح النهضة الإسلاميّة الحديثة».

(١) الترجمة من مجلة الغرباء اللندنية التي تصدرها جمعية الطلاب المسلمين في المملكة

المتحدة، عدد مايو ١٩٦٨م.



ثم يقول «جب» كلمة المراقب اليقظ: «إنَّ الحركات الإسلامية تتطوّر عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة، فهي تتفجر انفجاراً مفاجئاً، قبل أن يتبيّن المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة في أمرها، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة، لا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد»^(١).

* * *



(١) انظر: الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين (٢/٢١١)، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، ط ٢،

١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

تحقيق الأصالة والاستقلال للأمة

ومزية أخرى نضيفها للحل الإسلامي، فهو الحل الذي يحقق لأمتنا كرامتها، وشخصيتها، ويبرز أصالتها واستقلالها، بل يضعها موضع الأستاذية للأمم الأخرى، حيث تحمل إليها حلاً جديداً لعقد الحياة ومشكلات الكون والإنسان، حلاً غير تلك الحلول اليمينية أو اليسارية التي جرفت الإنسانية إلى شفا الهاوية، وجلبت عليها الشقاء والدمار والقلق والرعب، فباتت في ذعر وأصبحت في خوف، وأمست في اضطراب، ونامت في أحلام مزعجة.

هذا الحل الذي يمزج بين الروح والمادة، ويجمع بين الدين والدنيا، ويوازن بين الفرد والمجتمع، ويعدل بين الرجل والمرأة، ويؤلف بين الغريزة والعقل، ويسوي بين الأبيض والأسود، ويؤاخي بين الإنسان والإنسان، هو الحل الذي يجعل لأمتنا رسالة فوق هذه البسيطة، رسالة تحمل أمانة تنفيذها في خاصّة مجتمعها، وأمانة تبليغها إلى الناس كافة.

فإنّها أمة لم يخلقها الله لتعلق بغيرها كالطفيليات، ولم يخرجها الله لتنحصر في نفسها كحيوان القواقع، وإنّما أخرجها لنفع الناس وهدايتهم، وإقامة الحجّة عليهم بتنفيذ رسالة الله أولاً، وإبلاغها إليهم ثانياً. قال

تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فهي أمة لم تنبت من نفسها كالنبات البري أو الشيطاني بل أخرجها الله تعالى، وأخرجها لهدف هو نفع البشرية جمعاء «الناس» عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المرتبطين بالله.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إنَّ أيَّ حلٍّ آخر نستورده من هناك أو هنالك سيحرمانا من هذه الأستاذية للبشرية وهذه الشهادة على الأمم، بل سيحرمانا من الأصالة، والاستقلال، ويفرغ علينا معنى التبعية، ويجعلنا أذنبًا بعد أن نكون رؤوسًا، فهل يجوز هذا - دينًا أو عقلاً أو عُرفًا - ونحن نملك أعظم حلٍّ لمشكلات الإنسانية؟

وإذا كان تسوُّل الأغنياء القادرين شيئًا تستبشعه الأخلاق، وتعاقب عليه القوانين، فكيف يسوغ لنا - قانونًا أو خُلُقًا - أن نتسوَّل حلًّا لمشكلات حياتنا من عند غيرنا، بل من عند خصومنا، وبين أيدينا الحل الناجع من كتاب الله وهدى نبيه، وتراثنا الفكري والتشريعي العريض؟ وما أصدق ما قال المتنبي:

وَلَمْ أَرْ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ^(١)!

(١) انظر: ديوان المتنبي ص ٤٨٣.



الحلُّ الَّذِي جُرِّبَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَاتَى أَطْيَبَ الثَّمَرَاتِ

وَأخِيرًا..

إِنَّ الحلَّ الإسلامي هو الحل الَّذِي جُرِّبَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ قَبْلِ، فَأَعْطَى نَتَائِجَ بَاهِرَةً، وَحَقَّقَ نَجَاحًا مَنْقُطِعَ النَّظِيرِ، وَسَعَدَتْ تَحْتَ سُلْطَانِهِ بِالطَّمَأْنِينَةِ وَالْعَدْلِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَأَطْعَمَهَا اللَّهُ بِهِ مِنْ جُوعٍ، وَآمَنَهَا مِنْ خَوْفٍ، وَأَعَزَّهَا بَعْدَ ذَلٍّ، وَعَلَّمَهَا بَعْدَ جَهْلٍ، وَهَدَاهَا بَعْدَ ضَلَالٍ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ فُرْقَةٍ، وَتَأَخَّتْ فِي ظِلِّهِ بَعْدَ عَدَاوَةٍ وَشَحْنَاءٍ، وَمَنْ أَنْكَرَ هَذَا فَقَدْ كَذَّبَ التَّارِيخَ، وَنَفَى الْوَاقِعَ، وَجَحَدَ نِعْمَةَ اللَّهِ، وَتَنَكَّرَ لآيَاتِ اللَّهِ، فَقَدْ مَنَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وهكذا كانت الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ عَلَى شَفَا الْهَلَاكِ وَالْدمَارِ فِي عَقَائِدِهَا وَأَخْلَاقِهَا وَمَجْتَمَعِهَا، حَتَّى أَنْقَذَهَا بِالْإِسْلَامِ وَأَخْرَجَهَا مِنْ بَيْنِ الضَّلَالِ

إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، ومن العصبية إلى الأخوة، ومن الفوضى إلى النظام، وبعبارة موجزة: من الظلام إلى النور.

يقول الإمام التابعي المفسر قتادة بن دعام في تفسير: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]:

«كان هذا الحي من العرب أذلّ النَّاس ذلًّا، وأشقاء عيشًا، وأبينه ضلالةً، وأعره جلودًا، وأجوعه بطونًا، معكومين على رأس حَجَرٍ بين الأسدين فارس والروم، لا والله ما في بلادهم يومئذٍ من شيء يُحَسِّدُون عليه، مَنْ عاش منهم عاش شقيًّا، وَمَنْ مات رُدِّي في النَّار، يَؤْكَلُون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلًا يومئذٍ من حاضر الأرض كانوا فيها أصغر حظًّا وأدقَّ فيها شأنًا منهم حتَّى جاء الله وَجَلَّكَ بالإسلام فورثكم به الكتاب، وأحلَّ لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب النَّاس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نعمه، فَإِنَّ رَبَّكُمْ منعم يحبُّ الشَّاكرين، وإنَّ أهل الشكر في مزيد الله، فتعالى ربُّنا وتبارك»^(١).

إنَّ المجتمعات الإنسانيَّة تحاول اليوم جاهدةً القضاء على الفقر، وإغناء الفقراء عن الحاجة، ولم تستطع أنْ تحقق ذلك، لا في مجتمعات الرأسماليَّة ولا الاشتراكيَّة. أمَّا الإسلام قد استطاع حين أُحْسِنَ تطبيقه، وحين استقرَّ الوضع السياسي للمسلمين، وتهيًّا لهم حكم عادل، وخلافة راشدة: أن يمحو الفقر المذلَّ، حتَّى يتحيَّر صاحب الصدقة أين يضعها، ممَّا أظَلَّ النَّاس من عدل الإسلام، وفضل الإسلام.

(١) رواه الطبري في تفسيره (٨٧/٧، ٨٨)، تحقيق الشيخ محمود وأحمد شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة.

روى البيهقي في «الدلائل» عن عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال: «إنما ولي عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهرًا، لا والله ما مات حتّى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتّى يرجع بماله، يتذكر مَنْ يضعه فيه فلا يجده، قد أغنى عمر الناس»^(١).

وقال يحيى بن سعيد: «بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيرًا، ولم نجد مَنْ يأخذ منا، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس»^(٢).

وأسبق من عهد عمر بن عبد العزيز أن بعض الأقاليم التي سعدت بحكم الإسلام وعدله في عهد عمر بن الخطاب، أدركت حظًا عظيمًا من هذا الغنى الذي عمّت بركته أهل الأقاليم كافة، فلم يجد معاذ بن جبل مبعوث رسول الله ﷺ إلى اليمن والذي أقره أبو بكر وعمر من بعده على ما كان عليه - أقول: - لم يجد معاذ باليمن بعد سنوات قليلة من حكم الإسلام بها واحدًا يأخذ منه الزكاة، ممّا جعله يبعث بها إلى عمر في عاصمة الخلافة، وحاضرة الدولة الإسلامية بالمدينة^(٣). بعد حوار ومراجعة بينه وبين أمير المؤمنين في ذلك.

في ظل النظام الإسلامي حققت هذه الأمة رخاءً منقطع النظير، لا بزيادة الإنتاج فحسب، بل بعدالة التوزيع أيضًا. فلا خير في تدفق

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٤٩٣/٦)، وجوّد إسناده ابن حجر في فتح الباري (٨٣/١٣).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٦٥، تحقيق أحمد عبيد، نشر عالم الكتب، بيروت، ط ٦، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٣) راجع كتابنا: مشكلة الفقر وكيف عالجه الإسلام ص ١٥٥ - ١٦١، فصل: انتصار الإسلام على الفقر، ط ٩، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

الغنى والثروة على أُمَّةٍ، إذا نعمت به طائفة أو طوائف، وحُرِّم منه آخرون.

إنَّ أفضل أنواع العلاج هو ما جرَّبه المريض، فحسم داءه، وعجَّل شفاؤه، والأحمق من النَّاس هو الَّذي يدع الدواء المجرَّب الموفور عنده، ليبحث عن دواءٍ جديد، عند الأجنب عنه، بل عند خصومه وأعداء دينه وأمته، مع أن هذا الدواء الَّذي يلتمسه لم يشف أصحابه، ولم يهيئ لهم العافية، ولم يزداهم إلَّا خبالًا.

أجل، إنَّ الحلول الأخرى - سواء أكانت رأسماليَّة أم اشتراكيَّة - لم تجلب السعادة لأهلها، ولم تحقق لهم رغد العيش وطيب الحياة، ولا يزال أصحابها بين حين وآخر يُغيِّرون فيها ويُعدِّلون، وينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس، وبخاصة «الاشتراكيَّة العلميَّة» الماركسيَّة التي فُتِن بها قِلَّة من قومنا، وأعطوها ما يعطي المتدينون لوعي السماء من القداسة والخلود أو أكثر، ثمَّ لم تمضِ السنون حتَّى أصبح دعائها أنفسهم يتراجعون عن كثير من مبادئها، على كرهٍ منهم، ومعارضة من مُتَعَصِّبِيهم، ولكنْ نزولًا على حكم الضرورة، وخضوعًا لمنطق الفطرة، وانقيادًا للغة الأرقام نفسها.

إنَّ «ماركس» رفض «جَنَّة الأديان» التي وعد الله بها المؤمنين في دار الخلود، أملاً في «جنة دنيويَّة» تقيمها الاشتراكيَّة الشيوعيَّة على هذه الأرض، ومضى ما يزيد على خمسين سنة على قيام النظام الماركسي في روسيا، ولم يرَ النَّاس من الجَنَّة الموعودة شيئاً، ولم يذوقوا في ظل «الشيوعيَّة» بردًا ولا شرابًا، إلَّا حميمًا وغساقًا.

لقد خسروا نعمة الحرِّيَّة، ونعمة المِلْكِيَّة، ونعمة الأمن والسكينة النفسيَّة، ونعمة الإيمان بالله ورسوله، ونعمة الأمل في جَنَّة الآخرة، ولم

يكسبوا في مقابل ذلك ما كان يُتَوَقَّع من وفرة الإنتاج، وعدالة التوزيع، ورفاهية الحياة.

لقد عاشت روسيا أشهر الثورة الأولى في شبّه حلم بالدنيا الجديدة السعيدة، وغرقت في حماسة غريبة تقارب «الهستيريا».

أعلن «لينين» مباشرة بعد تسلم السلطة، أنّ المجتمع الشيوعي «اللاطبقي» أصبح في متناول اليد، ولن يتأخر أكثر من ستة أشهر كي يتحقق ويتبلور.

أمّا «تروتسكي» فترك التعابير الاقتصادية العلمية جانباً، وأخذ يتكلم - بشكل تجاوز نبوءات الأنبياء حماسة - في وصف الدنيا الجديدة المنشودة، فتراه يقول: «إنّ الكهنة في جميع الأديان يستطيعون أن يقولوا ما يحلو لهم عن الجنة المقبلة التي ييشرون بها في عالم آخر، ولكننا نحن نعلن بأننا سوف نعطي الجنس البشري جنّة هنا على هذه الأرض، لذا يجب ألا ننسى دقيقة واحدة، المثال الذي نضعه لأنفسنا. إنّهُ أسمى قصد تطلّعت إليه الإنسانية في تاريخها، وهو يعبر عن أشرف وأجمل ما يوجد في جميع العقائد الفاتئة!»

وممّا قاله «تروتسكي» في وصف المجتمع الجديد: «إنّ الإنسان سيصبح فيه - سريعاً - أقوى وأذكى وأكثر حساسية عمّا كان، وإنّ الجسم سينمو بانسجام أكبر، وإنّ الصوت ذاته سيصبح أكثر جمالاً، وإنّ الإنسان العادي نفسه سيرتفع إلى مستوى (أرسطو) أو (جوته)!»

ولكن هذه الأحلام اللذيذة سرعان ما تبدّدت، وواجه الناس ظلام الواقع وظلمه، وداهمتهم المجاعات المتعاقبة، والأزمات المتوالية، وليت الأمر يقتصر على أزمة الغذاء والكساء، وجوع البطون، وعري

الأجساد، ولكن تبع ذلك حملات «التطهير» وحمامات الدم، وكبت الحريات، وتكميم الأفواه، وراح ضحية ذلك ألوف وملايين، منهم «تروتسكي» نفسه! وبذلك أصيبوا بشر مصيبتين يصيبان البشر في دنياهم، وهما: الجوع والخوف: ﴿فَاذْهَبَا إِلَهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

ولقد صدم هذا الواقع المر بعض الأدباء والمفكرين الذين آمنوا يوماً ما بالشيوعية وقدرتها على حلّ مشكلات البشر، وتفادي ما ولدته الرأسمالية من شرور وويلات وانحرافات، فلمّا رأوا بأعينهم حصاد المذهب الجديد، وما حفل به من آثام وأضرار ومنكرات، يندى لها جبين الإنسان، وتقشعر من هولها الأبدان، رجعوا يترحمون على الرأسمالية وأيامها^(١) مرددين ما قال الشاعر:

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ مِنْهُ فَلَمَّا صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ^(٢)!

والعجيب أنّ الناس في النظام الرأسمالي الديمقراطي يستطيعون أن يُروّحوا عن أنفسهم بالاحتجاج والاستنكار، أو بالتأوّه والصراخ على الأقل، ولكنهم تحت وطأة النظام الماركسي لا يُباح لهم أن يتأوّهوا أو يشكّوا، فضلاً عن أن يحتجّوا أو يقولوا: «لِمَ؟» و«كيف؟» فما بالك بـ «لا»؟!

(١) اقرأ على سبيل المثال: الصنم الذي هوى، ترجمة فؤاد حمودة. وهو مجموعة مقالات لستة من كبار كتّاب الغرب آمنوا بالشيوعية أول الأمر، ثم كفروا بها حين تبين لهم واقعها المر الأليم.

(٢) ينسب إلى ابن المعتز. انظر: أحسن ما سمعت للثعالبي ص ٥٢، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.



وقد أراد الشعب المجري يوماً أن يجرب قول: «لا» وقالها فعلاً، فردّت عليه الدبابات الروسية تدك دياره دكاً، وتطحنه طحناً! وبعدها تجربة الشعب التشيكي، وما تجربة بولندا - منّا - ببعيد!

إنّ قول «آه» قد يُخفّف ألم المريض، وإنّ صراخ المظلوم في وجه ظالمه، إنّ لم يشف صدره، قد ينقع بعض غلّته، ولا عجب أن حرّم الله الجهر بالسوء من القول إلّا من المظلوم ينتفض في وجه ظالمه ثائراً شاكياً: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

لقد ذاق الغرب الويل على يدي الرأسمالية الفاجرة، والماركسيّة الكافرة، ومن المحال أن تفشل هذه المذاهب والأنظمة في بلادها، وتفلح عندنا نحن، وهي غريبة عنّا كل الغربة: عن ديننا وقيمنا وشريعتنا وتراثنا وتاريخنا. فإن ظننا أنّنا سنحل بمذهب نستورده مشكلات مجتمعاتنا، ونعالج به فساد أوضاعنا، فنحن كالذي يريد أن يطفى النار فيرميها بالخشب، فيسكت لسانها المندلع لحظات، ثمّ يمتد لهيبها فلا يبقى ولا يذر.

إنّ من حمق الإنسان أن يعالج مشكلةً بخلق مشكلات، وأن يتفادى خطأً فيقع في أخطاء، فيكون كالذي يقضي الدّين بالدّين، أو الذي يستشفى من داءٍ بداء. وقد قال الشاعر:

إذا ما قضيت الدّين بالدّين لم يكن قضاءً، ولكن كان غُرماً على غُرْم^(١)!

(١) من شعر ثعلبة بن عُمَيْر الحنفي، كما في ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (٣٢٥/٤)، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ.

وقال آخر:

إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءٍ بَدَأَ فَأَقْتُلْ مَا أَعْلَكَ مَا شَفَاكَ^(١)!
 إِنَّ الْحَلَّ الْوَحِيدَ الْمَجْرَّبَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ هُوَ الْإِسْلَامُ، وَلَا شَيْءَ غَيْرِ
 الْإِسْلَامِ.

بهذا الحلّ نحفظ ديننا، وأعراضنا، وأموالنا، وأخلاقنا، وتقاليدينا.
 بهذا الحلّ نربح دنيانا ونربح آخرتنا، ونرضي ضمائرنا، كما نرضي
 ربّنا، ونرتبط بماضيينا ولا نفصل عن حاضرنا، كما لا نغفل مستقبلنا.
 إِنَّهُ الْحَلُّ الْحَتْمِي، وَالْحَلُّ الْعَادِل، وَالْحَلُّ الْوَحِيد.
 لَأَنَّهُ الْحَلُّ الَّذِي وَضَعَهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ دَسْتُورًا وَمَنْهَاجًا، وَحَكَمَ بِهِ دَوَاءً
 وَعِلَاجًا.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؟!

* * *

(١) من شعر المتنبي، كما في ديوانه ص ٥٦٧.

غير مرخصة للطباعة

السبيل إلى تحقيق الحل الإسلامي

إذا كان الحل الإسلامي يعني قيام مجتمع إسلامي متكامل، فما السبيل إلى تحقيق هذا المجتمع المنشود، والانتقال به من عالم الأحلام والأمني إلى عالم الحقائق والواقع؟

هناك عدة سبل وطرائق سلكتها فئات من الناس، لكل سبيل منها دعائه وأنصاره، فلنناقش هذه السبل واحدًا بعد الآخر.

نسخة مجانية

أولاً: سبيل القرارات الحكومية

يتصور فريق من الناس أنَّ الحلَّ الإسلامي - أو المجتمع الإسلامي - يتحقَّق في عالم الواقع، إذا قام حاكم ما: ملك أو رئيس أو أمير، وأصدر قرارات أو أوامر أو مراسيم - سمَّها ما شئت - باتِّخاذ الإسلام أساساً للحياة، وتكوين لجنة أو لجان لتغيير قوانين الدولة الوضعيَّة، بما يتفق مع الشريعة الإسلاميَّة، وإن لم يكن لهذا الحاكم أعوان مؤمنون بفكرته، مخلصون لتنفيذها، ولم يكن وراءه قاعدة شعبيَّة صلبة تشدُّ أزره، وتنتصر له. ولا شك أنَّ الحاكم المخلص يستطيع - بما له من سلطة - أن يزيل كثيراً من المفسد، وأن يمنع كثيراً من المنكرات، وأن يحقق كثيراً من المصالح، وأن يساعد كثيراً من دعاة الخير. ولكن إقامة المجتمع الإسلامي، واستئناف حياة إسلاميَّة متكاملة، شيء أكبر وأعمق من ذلك كله.

ولا شكَّ كذلك أنَّ الذين ظنُّوا أنَّ القرارات الحكوميَّة - وحدها - قادرة على تغيير المجتمعات الإنسانيَّة أو بنائها من جديد، - هؤلاء قوم حسَنوا النيَّة، ولكن غابت عنهم حقائق مهمَّة في هذا المجال وهي:

- ١ - معنى أو مدلول مجتمع إسلامي وسعته.
- ٢ - مدى التخريب الذي أحدثه الاستعمار في ديارنا وما خلف من آثار.
- ٣ - مدى قدرة الحاكم الفرد على تغيير مجتمع ما، وبنائه من جديد.
- ٤ - مدى إرادة الحُكَّام الحاليين لتطبيق الإسلام، وإقامة مجتمع إسلامي حقيقي.

٥ - مدى خطورة قيام مجتمع إسلامي حقيقي في عصرنا، وأثره في العالم، وكل عنصر من هذه العناصر الخمسة في حاجة إلى أن نلقي عليه ضوءاً.

١ - مدلول «مجتمع إسلامي»:

أ - ليس المجتمع الإسلامي هو الذي ينص في دستوره على أن دين دولته هو الإسلام، ثم يسير كل شيء له أهمية في الدولة بعيداً عن الإسلام.
ب - وليس هو الذي يعطل دواوينه ووزاراته ومصالحه في أيام الجُمع، ويحتفل بالأعياد الإسلامية، ويذيع من إذاعته الأذان والقرآن، ومع هذا لا يشجع المصلين على إقامة الصلاة، ولا يعاقب المقصرين على ترك الصلاة، وهو كذلك لا يحكم بشريعة القرآن، ولا يأخذ المجتمع بآداب القرآن.

ج - وليس هو الذي يضع قوانين شرعية إسلامية، أو يعدل قوانينه بما يتلاءم مع الشريعة الإسلامية. ثم يدع الحياة الاجتماعية والفكرية والسلوكية تمضي في غير اتجاه الإسلام.

إن المجتمع الإسلامي - كما قلنا ونقول - هو الذي توجهه عقائد الإسلام وتحكمه شرائع الإسلام، وتقوده مفاهيم الإسلام، وتسوده أخلاق الإسلام، وتسيطر عليه تقاليد الإسلام، وتسري في كل جنباته روح الإسلام، ويصنع كل شيء فيه بصيغة الإسلام: ﴿صَبَغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

وحسبنا أن نعود إلى ما كتبناه عن «معالم الحل الإسلامي»، و«شروط الحل الإسلامي» لنعرف بعض ما يجب معرفته عن حقيقة المجتمع المطلوب.

إنَّه مجتمع عقيدة وفكرة، مجتمع دعوة ورسالة، فلا بدَّ أن يتمثل ذلك في جميع نواحي حياته، روحية ومادية، فكرية وسلوكية، تربوية وثقافية، نفسية واجتماعية، واقتصادية وسياسية.

وقد رأينا نماذج من المجتمعات العقائدية في عصرنا، كما في الاتحاد السوفيتي والصين وغيرهما من بلدان المعسكر الاشتراكي. ورأينا كيف عملوا على صبغ الحياة الاجتماعية كلها بصبغتهم المذهبية في السياسة والاقتصاد والتربية والتعليم والإعلام والثقافة والفنون، وباستخدام شتى الوسائل ومختلف الأساليب التي أتاحها العصر لأبنائه.

٢ - مدى التخريب الذي أحدثه الاستعمار في بلاد الإسلام:

إنَّ التخريب الذي أحدثه الاستعمار في ديارنا الإسلامية ليس هيناً ولا سطحياً، إنَّه - من غير شك - تخريب هائل وعميق، ولا أعني التخريب في الحياة المادية والاقتصادية، فهذا يهون بجوار التخريب الآخر، التخريب في الأنفس والضمائر والعقول والحياة الروحية والاجتماعية.

لقد غيَّر المفاهيم الأصيلة في الأمة، مستبدلاً بها مفاهيم غريبة مستوردة لا تُمَّت إلى تراث الأمة بصلة، حتَّى وجدنا في أبناء الأمة من ينكر أن يكون للإسلام علاقة بالدولة، وسياسة الحكم أو سياسة المال.

ووجدنا في أبناء المسلمين من يدعو إلى إباحة الربا، ومن يستنكر تحريم الخمر، ومن يُحرِّض على إباحة الجنس، ومن يُسمِّي الفضيلة «تزمُّتاً»، والتدين «رجعية»، والانحلال «حرية»، والتبعية لهذا المعسكر أو ذاك «تقدمية».



ووجدنا من بنات المسلمين مَن تمشي عارية المنكبين والساقين
والرُكبتين، وما فوق الرُكبتين، متأبّطة ذراع رفيق، لا تخشى من خالق،
ولا تستحي من مخلوق، ولا تتهيّب من شيء.

ووجدنا من رجال المسلمين مَن يطالب بتقييد تعدّد الزوجات في
الحلال، في حين يبيح القانون الوضعي تعدّد الخيلات في الحرام،
ورأينا مَن جراً على المناداة بالمساواة بين الذكر والأنثى في الميراث.

بل وجدنا من زعماء بعض البلاد العربيّة مَن يحمل على فريضة
الصيام؛ لأنّها تقلّل - في نظره - الإنتاج، ويحمل على شعيرة الحج؛ لأنّ
فيها بقايا من الجاهليّة في زعمه كرمي الجمار! بل يحمل على كتاب الله؛
لأنّه يحوي أفكاراً لا يصدقها العقل، كقصة أهل الكهف وعصا موسى.
ويتهمّ الأمة الإسلاميّة بتأليه محمّد ﷺ، يقول ذلك علناً وفي مؤتمر،
دون أن يُحكم عليه بالردّة، وينال عقوبة المرتد!

ووجدنا في بلاد المسلمين كتباً تُطبع، ومجلاّت تظهر، وصحفاً
تُشعر، وأفلاماً تُعرض، وبرامج تُذاع، تناوى الإسلام، وتتحدّى شريعة
الإسلام، وعقيدة الإسلام!

وجدنا من أبناء المسلمين - ممّن اسمه محمّد وأحمد ومحمود وعمر
وعليّ وخالد وصالح الدين - دعاة إلى اليسار، ودعاة إلى اليمين، إلى
قِبلة الشرق وإلى قِبلة الغرب، وإلى كلّ جهة وكلّ قِبلة، إلّا قِبلة الإسلام!

ووجدنا مَن يحاضر في مدينة عربيّة فيقول: أنا عدوّ الأصالة في
الفكر والثقافة! لماذا؟ لأنّ الأصالة تربطه بتراث المسلمين، وهو لا يريد
الارتباط إلّا بفكر سادته الغربيين!

لقد استطاع المستعمر الدخيل الذي سيطر على بلاد الإسلام أن يغيّر القوانين ويغيّر التقاليد، ويغيّر المفاهيم، ويغيّر القيم، وذلك بواسطة وسائل وأساليب استخدمها بمهارةٍ وذكاءٍ حتّى نجح إلى حدٍّ كبيرٍ فيما أراد. وقد تحدّثنا عنها في كتابنا الأوّل «الحلول المستوردة» فلتراجع في الفصل الأوّل هناك.

وأهمُّ ما نجح فيه ذلك المستعمر البغيض أنّه ربّى أجيالاً تؤمن بمفاهيمه وقيمه وتقاليده، وتعيشها بالفعل، شبَّ عليها الصغير، وهرم عليها الكبير، حتّى أصبحت هي «الأصل» وغيرها هو «الطارئ»، وباتت هي «المعروف» وما عداها هو «المنكر»، وهذا شرٌّ ما يصيب المجتمع المسلم، أن تنقلب فيه موازين القيم، فيصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، ثمَّ يتفاقم الأمر، حتّى يؤمر بالمنكر، ويُنهى عن المعروف، بل يُكرّم الأمر بالمنكر، فيكتب في كبريات الصحف، ويبرز على شاشة التلفزيون، ويمنح جوائز الدولة، على حين يكون نصيب الداعي إلى الله، والأمر بالمعروف الناهي عن المنكر «حبل المشنقة» فإنّ رفقوا به ف «زنزانة في السجن» يتمنّى أن يُعامل فيها معاملة القتلة المجرمين!

وفوق هذا كلّ صنع المستعمر على عينه قيادات فكرية وسياسية، سلّم إليها الزمام، وهو مستريح الخاطر، هادئ البال، مطمئن إلى أنّ خطّه مستمر، وأنّه إنّ رحل بجسمه فروحه باقية، بفضل ما غرس من أفكار، وما خلّف من آثار، وما ربّى من تلاميذ أوفياء لمبادئه، أكثر من وفائه هو لها، غربيين أكثر من الغرب نفسه.

وإلى جوار هذا الفساد العريض الذي تركه الاستعمار المخرب، لا ننسى فساداً آخر، تركته عصور الانحطاط الأخيرة في بلاد المسلمين، يتمثل في:



الإيمان بالخرافات والأوهام من الناحية العقلية.
 وشيوع الروح الجبرية والاتكالية والسلبية من الناحية الخلقية.
 التزام التشديد والتزمت والتضييق في الناحية الأسرية والاجتماعية.
 ورفض الاجتهاد والتجديد الصحيح في الناحية التشريعية والفقهية.
 وقبول البدع والغلو والتحريف في الناحية العبادية.

وهذا كله يدلُّنا بجلاء على أنَّ تغيير مثل هذا المجتمع لا يأتي بجرة قلم، ولا بإصدار قرار. إنَّه يحتاج إلى عملية شاقَّة مستمرة من الهدم والبناء، حتَّى يقوم صرحه المكين على تقوى من الله ورضوان. وإنَّ طريق العودة إلى الإسلام ليس مفروشًا بالأزهار، بل هو طريق وعر المسالك، مفروش بالأشواك، محفوف بالمكاره، مليء بالمخاطر والصعوبات.

٣ - مدى قدرة الحاكم على تغيير المجتمع:

لقد أثبت حكيم المؤرِّخين ابن خلدون أنَّ الحكم - أو المُلْك على حدِّ تعبيره - لا بدَّ له من عصبية، أي كتلة أو جماعة قوية تسنده وتحميه، وبدونه لا يبقى، بل بدونه لا يصل صاحب الحكم إلى الحكم ابتداءً^(١).

وهذا أمر يشهد له قراءة الواقع، كما يشهد له استقراء التاريخ.

والحاكم لا يصل إلى مقعد الحكم في ظل كوكبة من ملائكة السماء، بل في ظل كتلة من أهل الأرض، بواسطتها يصل، وبمساندتها يستمرُّ، سواء أكانت هذه الكتلة أو الجماعة دينية كالمهاجرين والأنصار في عهد الراشدين، أو قبليَّة كبنِي أمية ومَن معهم في عهد

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون (٦٠٩/٢، ٦١٠).

الأمويين، أو عسكرية كالمماليك في العصر المملوكي، وكالجوش في بلاد الديكتاتوريات العسكرية إلى اليوم، أو فكرية سياسية مثل كثير من رؤساء الدول في الشرق والغرب اليوم، ممن تسندهم أحزاب عقائدية، أو سياسية.

المهم أن الحاكم لا يصل إلى سلطان الحكم إلا بجماعة، ولا يستمر فيه إلا بجماعة، وهذا في حاكم عادي كلُّ همّه أن يحفظ أمن البلاد في الداخل، ويحميها من الغزو والانتقاص من الخارج، ويُسيّر دفة الأمور على ما هي عليه.

فكيف إذا كان الحاكم صاحب عقيدة، يريد نشرها وسيادتها، وحامل منهاج يريد تحقيقه في حياة الناس؟ وكيف إذا كان هذا المنهاج يتضمن مثلاً علياً، يتطلب تنفيذها إرادةً وصبراً وجهاداً؟ وكيف إذا كان لهذا المنهاج خصوم متربصون وأعداء كثر سافرون ومقنّعون؟! وكيف إذا كان المجتمع الذي تحقق فيه ذلك قد كثر فيه التخريب إلى حدّ يريد بناءه من جديد؟

إنّ هذا يجعل مهمة الحاكم مستحيلة ما لم تكن له أسناد قوية تنصره إذا خُذِل، وتحميه إذا هُدِد، وتقويه إذا ضُعِف، وترشده إذا أخطأ، وتقوّمه إذا اعوج. وما لم يكن معه أعوان مخلصون يؤمنون بما يؤمن به، ويدعون إلى ما يدعو إليه، يجمعون القوّة إلى الأمانة، والكفاية إلى الديانة، يراهم الناس فيرون فيهم فكرة الحكم ماثلة، وعقيدة الدولة مجسّدة.

وبدون هؤلاء الأقوياء الأمناء تظل الأفكار النظرية للحكم المنشود، والدولة المثالية المرتقبة، حبراً على ورق مصقول، أو مواد مرتبة في دستور مجمّد!

ولقد رأينا دساتير بالفعل، هي أقرب ما تكون إلى الإسلام، ومع هذا لم يقيم المجتمع الإسلامي المنشود بمجرد وضعها أو إقرارها. ومن هنا نعلم أن تصوّر حاكم ما لنفسه، أو تصور بعض الناس له، أنه قادر على تغيير صورة المجتمع وحقيقته بقرارات ثورية، أو مراسيم دستورية، تصوّر غير صحيح؛ لأنه مبنيّ على عدم الإحاطة بإمكانية الحاكم، وبتعقيد المجتمع.

إنّ تغيير الأسلحة والأجهزة والأدوات وكل ما يتعلق بشؤون المادة ميسور، وإنّ بناء الحصون والمدارس والمصانع مقدور عليه. ولكن الصعب حقاً هو تغيير الإنسان وبناء الإنسان!

٤ - مدى إرادة الحكّام الحاليين لتطبيق الإسلام:

وهناك شيء آخر غير قدرة الحاكم على التغيير الجذري المطلوب، هو مدى إرادة حكام المسلمين الحاليين لتطبيق أحكام الإسلام، وإقامة مجتمع إسلامي حقيقي، واستئناف حياة إسلاميّة صحيحة.

هل تتوافر لدى هؤلاء الحكّام النية الصادقة، والإرادة الحازمة للعودة إلى الإسلام عقيدةً وشرعةً ونظام حياة؟

إنّ المرء ليشكُّ كثيراً في ذلك، رغم أنّ فيهم من يصلي ويصوم ويحجّ ويعتمر، ولكنهم لا يذهبون في الدين إلى أبعد من ذلك.

فمنهم من تصوّر الدين علاقة فردية بين المرء وربّه، ولا صلة له بالسياسة، ولا شأن له بالدولة، فالسياسة مكرّ ونفاق، والدين طهر ونقاء، فكيف يلتقيان؟!

ومنهم مَنْ وقر في نفسه بعض ما قرأ عن الغرب ونهضته الحديثة، وكيف فصل الدين عن الدولة، وعزل الكنيسة عن السياسة، فطبّق على الإسلام ما جرى في المسيحية، وتوهم أنّ الشرق لا ينهض إلّا بما نهض به الغرب.

ومنهم مَنْ يشكُّ في صلاحية الإسلام لقيادة الدولة المعاصرة، وتوجيه المجتمع الحديث، ومواكبة التطور العالمي؛ نظراً لضعف معرفته بحقيقة الإسلام، وربما كوّن فكرته عنه من خصومه أنفسهم.

ومنهم مَنْ لا ينقصه الفهم للإسلام، وصلاحيته لقيادة النهضة، وإصلاح الأمة، وبناء الدولة، ولكنه أعجز من أن يتبنّا منهجاً للحياة، يدعو إليه، ويصرّ عليه، ويغالي به، ويدود عنه، فهذا التبني في الواقع في حاجة إلى مصلح ذي رسالة، لا إلى مجرد حاكم ذي سلطان.

ومنهم مَنْ يخشى عاقبة الرجوع إلى الإسلام، فتغضب عليه القوى المعارضة للإسلام في الخارج والداخل فيهتز كرسي الحكم تحته، وهو حريص عليه حرصه على الحياة.

ولهذا يصعب على الدارس أن يصدّق أنّه يوجد في هؤلاء الحكام القائمين اليوم على أمر الشعوب الإسلامية مَنْ يريد - بصدق - الرجعة إلى الإسلام، فيعيش به، ويعيش له، أو يموت في سبيله.

إنّ الأمر يحتاج إلى تربية وإعداد وتكوين، لم يتهيأ هؤلاء، ولم يتهيأ له بعد. يحتاج إلى إيمان قوي تهون معه كل تضحية، ويرخص معه كل غالٍ من أعراض الدنيا. ولمّا نرى هذا الإيمان في أحدٍ منهم بعد.



٥ - خطورة قيام مجتمع إسلامي حقيقي على القوى العالمية:

وهذا شيء آخر لا ينبغي إغفاله أو التهوين منه. وهو مدى خطورة قيام مجتمع إسلامي حقيقي في عصرنا، وتأثيره في ميزان القوى العالمية.

إن قيام هذا المجتمع في أيّ رقعة من أرض الإسلام ولو صغيرة، أمر يُحسب له ألف حساب وحساب.

من قِبَل اليهودية العالمية.

ومن قِبَل الصليبية الغربية.

ومن قِبَل الشيوعية الدولية.

ومن قِبَل الطامعين والحاquدين في كل مكان.

إنهم يخشون أن يتسع هذا المجتمع ويمتد سلطانه من بلد إلى بلد، حتّى يتطوّر إلى الشيء الخطر المخوف لديهم: الخلافة الإسلامية.

وهم يخشون أن يجدد هذا شباب الإسلام، فيفيق العملاق من غفوته، ويخرج من قمقمه، ويتصل أمسه بغده، ويعود من جديد خالد وأبو عبيدة وصلاح الدين ومحمد الفاتح وقطر!

وهم يخشون أن يعود المسلمون مسلمين، فتكسّد كثير من تجاراتهم المحرّمة، ولا تجد لها في بلاد الإسلام سوقاً.

وهم يخشون أن يتعاون المسلمون فيما بينهم، على تحقيق الاكتفاء الذاتي، والتكامل الاقتصادي، كإقامة صناعات ثقيلة، تسد حاجتهم وتُغنيهم عن الاستيراد من غيرهم، فلا يتحكم فيهم معسكر شرقي ولا غربي. وفي هذا من الخسارة على القوى المصدّرة لبلاد الإسلام ما فيه!

ولا عجب أن نراهم يقاومون بكل قوّة كلّ حركةٍ إسلاميّةٍ يخافون أن تتحول يوماً إلى دولة، ولا يكتفون بالسجن والاعتقال والاضطهاد والتضييق، بل يصبغون أيديهم بالدم إذا احتاج الأمر إلى الدم. وإلاّ، فلماذا قُتل حسن البنا، وعبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، وسيد قطب، وأحمدو بللو، ومالكولم إكس، وغيرهم من رجال الدعوة إلى الإسلام؟! وهذا يجعل مهمّة أي حاكم يحتضن فكرة الإسلام، مهمة صعبة للغاية؛ لأنّه سيواجه مؤامرات على مستوى عالمي، قد تتفق عليها المعسكرات المختلفة فيما بينها، ما دام العدو هو الإسلام، العدو المشترك للجميع، ووراء هذا أزمات ومضايق، ومحن، لا يقدر عليها إلاّ أولو العزم من الرجال وقليل ما هم.

فما لم يكن للحكم «عصبية» تحميه وتفديه، وشعبية تناصره وتعضده، تجاه المؤامرات والفتن، لم يستطع الثبات والصبر طويلاً أمام ضغطها وتحديها. وقد قال عنه الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]. فكما أيّده الله تعالى بنصره وبملائكته، أيّده كذلك بالمؤمنين المتأخين من أنصاره وأتباعه. وفي هذا إشارة واضحة إلى أهميّة وجود المؤمنين المؤتلفين المترابطين مع كل صاحب دعوة، وحامل فكرة، ولو كان هو النبي ﷺ، فكيف بمن دونه؟!

هذه هي الحقائق الخمس التي قد تغيب عن ذهن من يتصور قيام المجتمع الإسلامي المرتقب بإصدار القرارات أو القوانين.

ثانيًا: سبيل الانقلابات العسكرية

ويتصوّر آخرون أنّ السبيل إلى الحل الإسلامي، وإقامة المجتمع الإسلامي، يتمثل في انقلاب عسكري تقوم به فئة عسكريّة مسلحة من الشعب أو من الجيش أو منهما معًا، تنقضّ على السلطة، وتستولي على الحكم، وتُسيّر كل شيء بعد ذلك وفق حكم الله وشرعه.

مستند أصحاب هذا الرأي:

ويستند هؤلاء في تأييد فكرتهم إلى أمور:

١ - إنّ تغيير المنكر باليد - أي: بالقوة الماديّة - واجب لا يسقط إلّا بالعجز عنه، وأي منكر أكبر من استحلال الحكم بغير ما أنزل الله، وهو كفر وظلم وفسوق بنصّ القرآن؟

٢ - إنّ القوّة هي أضمن طريق لإحقاق الحق، ومن لم يخضع لقوة المنطق، خضع لمنطق القوّة.

وَالنَّاسُ إِنْ ظَلَمُوا الْبُرْهَانَ وَاعْتَسَفُوا فَالْحَرْبُ أَجْدَى عَلَى الدُّنْيَا مِنَ السَّلَامِ^(١)
وكما أنّ القوّة أضمن الطرق. هي أيضًا أسرعها للتغيير المطلوب.

٣ - إنّ الجهاد لإقامة الحكم الإسلامي فريضة على المسلمين، بل الجهاد لإقامته في حال فقدّه أوجب من الجهاد للدفاع عنه حال وجوده. ومن الجهل إغفال استعمال القوّة العسكريّة.

(١) القائل محمد عبد المطلب في قصيدته ظل البردة، انظر: ديوانه ص ٢٦٣، شرح إبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة الاعتماد، ط ١.

٤ - إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ استخدم القوة لقمهر أعدائه عندما لم يجد مناصاً من ذلك، وأذن الله له في قتال مَنْ ظلموه وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم بغير حقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: رَبُّنَا اللَّهُ، ولنا في رسول الله أُسوةٌ حسنة.

٥ - إِنَّ أَحَادِيثَ النَّبِيِّ ﷺ تأمرنا بمعصية الحاكم ومقاومته إذا رأينا منه كفراً بواحاً عندنا فيه من الله برهان. وكيف يمكن مقاومته بغير القوة؟ وفي حديث عن أمراء الجور، قالوا: يا رسول الله، أفلا نناذبهم بالسيف؟ قال: «لا، ما صلّوا»^(١). ومفهومه: أَنَّهُمْ إِذَا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ نَابِذُوهُمْ بِالسَّيْفِ.

٦ - إِنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ نجحوا في استخدام القوة العسكرية، واستولوا بها على السلطة، لخدمة باطلهم ونشر كفرهم وعصيانهم. أَوْ لَيْسَ أَهْلُ الْحَقِّ أَوْلَىٰ بِاسْتِخْدَامِهَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِمْ مِنْهُمْ؟

٧ - إِنَّ الْحُرِّيَّةَ السِّيَاسِيَّةَ في عالمنا العربي والإسلامي مفقودة تماماً في معظم البلدان، وشبه مفقودة في البعض الآخر، وأصبح التحرك أو التجمع الإسلامي الصحيح عملاً ضد الدولة أو النظام. فلا أمل إذن في الوصول إلى الحكم الإسلامي بالكفاح السلمي وبالوسائل الديمقراطية. ولم يبق أماناً إِلَّا الحل العسكري، لتغيير هذا الوضع، وتنحية هذا الطوق. إمَّا لِصَالِحِ الْفِكْرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَوْ لِصَالِحِ الْحُرِّيَّاتِ «مَرَحَلِيًّا» وَإِذَا فَرَضَ عَلَى الْقَلَمِ أَنْ يَسْكُتَ وَجِبَ عَلَى الْمَدْفَعِ أَنْ يَنْطِقَ:

إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْأَسِنَّةُ مَرْكَبٌ فَمَا حِيلَةُ الْمَضْطَرِّ إِلَّا رُكُوبُهَا^(٢)!

(١) رواه مسلم في الإمارة (١٨٥٥)، وأحمد (٢٣٩٨١)، عن عوف بن مالك الأشجعي.

(٢) من شعر كميّ بن يزيد، كما في جمهرة أشعار العرب ص ٧٩٠، تحقيق علي محمد البجادي، نشر نهضة مصر، القاهرة.



٨ - إِنَّ بلادنا تواجه أعداء من كل جانب، وتعاني مشكلات لا يفصل فيها غير الحديد والنار، مثل مشكلة كشمير، ومشكلة فلسطين، ومسلمي الفلبين، ومسلمي إريتريا والحبشة وغيرهم. فلا بدّ من الإعداد والاستعداد لمواجهة هؤلاء الأعداء، استجابةً لأمره تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٩ - إِنَّ الحركة الإسلامية في حاجة دائمة إلى قوّة عسكريّة تحميها من بطش الطغاة من الحاكمين، وهي بدون ذلك، معرضة لأن تُضرب ضربات قاتلة، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها، لأنّها عزلاء. ولا يفل الحديد إلّا الحديد. وهذا يتطلب من الحركة إعداد قوّة مستعدة للدفاع عن النفس - على الأقل - إن لم يكن للوثوب لتحقيق النصر.

١٠ - إِنَّ التدريب العسكري في حدّ ذاته مطلوب للمسلم، وخصوصاً عضو الحركة الإسلامية؛ لأنّه ينمّي فيه معاني القوّة والخشونة والاحتمال والثقة بالنفس وغيرها من الفضائل التي لا تستغني عنها أمة في نهضتها. لا سيما إذا كان لها عدو يهدّد أمنها، أو يحتل جزءاً من أرضها، كما هو شأن العرب مع إسرائيل، التي قام كيانه أساساً على الاغتصاب والعدوان.

مناقشة هذا الرأي:

ورغم ما لهذا الرأي من بريق، وما لبعض الاعتبارات التي استند إليها من وجهة، يؤخذ عليه أنّه أسقط من اعتباره عدة أمور على جانب كبير من الأهميّة، منها:

١ - إنّ النجاح في الاستيلاء على السلطة بالقوة، لا يعني النجاح في تطبيق المبادئ التي قام الانقلاب من أجلها. وكم من فئات حزبية

انقضت على السلطة، وتمكنت من أزمتها، وظلت تحكم عدة سنين، ومع هذا ظلت معزولة عن الشعب مبغضة إليه، وكلما طال بقاؤها، زادت كراهية الناس لها.

إنَّ ما قلناه في مناقشة الطريق السابق يقال هنا أيضًا، وزيادة؛ فالتغيير الجذري - الذي يقوم على دعائم روحية وعقلية ونفسية وأخلاقية، ممَّا لا يتحقق بقرارات حكومية - لا يمكن أن يأتي بانقلاب عسكري، من باب أولى.

٢ - إنَّ تغيير المنكر باليد - أي بالقوة المادية - هو في الأصل واجب كل ذي سلطة في سلطانه، كالأب مع أطفاله، والزوج مع زوجته، والحاكم مع رعيته، أما العكس، كالابن مع أبيه، والمرأة مع زوجها، والرعية مع حاكمها، فالأمر يحتاج إلى أناة وحذرٍ وحكمة، ولا يُفتح الباب فيه على مصراعيه لكلِّ أحد، دون قيد.

ولهذا اتَّفَق فقهاء المسلمين على أنَّ إزالة المنكر وتغييره باليد إنَّما تُشْرَع لمن يملك القدرة على التغيير، وبشرط ألاَّ يترتب على إزالة المنكر منكرٌ أكبر منه وإلاَّ فالواجب هو التغيير باللسان أو بالقلب حسب الاستطاعة، وإلى أن تحين الفرصة.

وهذا مبنيٌّ على القاعدة الشرعية المقررة: ارتكاب أخف الضررين، وتفويت أدنى المصلحتين. وهو مبنيٌّ كذلك على ما جاءت به الأحاديث من الصبر على أمراء الجور، وإنَّ ضربوا الظهر وأخذوا المال؛ وذلك خشية الصدوع والانشقاقات في الدولة الإسلامية، نتيجةً للثورات المسلحة التي يقوم بها رجال مخلصون متحمسون ينشدون المثل الأعلى، غير مقدَّرين للنتائج والعواقب. ولكن هذه

الأحاديث استثنت حالة واحدة: «أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان»^(١).

٣ - إن هذا الرأي أغفل الأضرار والأخطار التي تنشأ عادة من جرّاء إعداد قوّة شعبية عسكرية مسلحة، فضلاً عن استخدامها في الوصول إلى الحكم.

ومن هذه الأخطار أو الأضرار:

أ - الخروج على القانون: فالقوانين الوضعية السائدة تحرّم حمل السلاح بغير إذن، وتحظر تكوين أي جماعة عسكرية. وهذا يؤدّي عاجلاً أو آجلاً إلى الاصطدام الحتمي بالسلطة. وتعرض الحركة لأخطار غير مأمونة العواقب.

ب - اللجوء إلى السريّة: فما دام تكوين الجماعات ممنوعاً قانوناً، فلا بدّ من السرية المطلقة، التي تقتضي إخفاء التنظيم وقيادته وأفراده، إلّا في أضيق الحدود. وفي سراديب السرية كثيراً ما تتسرب عناصر غير مأمونة ولا معروفة، لم تُجرب في النور، ولم تُختبر تحت أشعة الشمس.

وكثيراً ما تكون هذه السرية جماعة داخل الجماعة الكبرى، وقيادة وراء القيادة الظاهرة العليا. فيؤدّي هذا إلى الشائنة والازدواج والتناقض.

على أنّ «التكنولوجيا» الحديثة قد أمدّت رجال المخابرات والمباحث بأجهزة للتعذيب، وأدوات للتأثير على المخ، وأساليب للحرب النفسيّة، جعلتهم أقدر كثيراً على اكتشاف أي تنظيم سري بمجرد

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٥٥، ٧٠٥٦)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)، عن عبادة بن الصامت.

العثور على بعض أفرادهِ ولو عشوائياً. ولا سيما إذا تولّت ذلك فئة لا تخشى خالقاً، ولا ترحم مخلوقاً.

ج - الاستعجال قبل النضوج. وهذه آفة التفكير العسكري غالباً، إنّ هذا النوع بمجرد أن يملك قدرًا من السلاح، وعددًا من الجنود المخلصين المطيعين، لا يطيق الانتظار. إنّهُ يتهم المترشحين بالتردد، والمعارضين بالجبن، إنّهُ يريد أن يضرب ضربته بسرعة، وليكن ما يكون، وهو يُقدّر دائماً النجاح، وقلّما يُقدّر الفشل.

إنّ الحركة الصبيانيّة الطائشة التي أذيع عنها في مصر أخيراً - وهي حركة الكُلّيّة الفنيّة العسكريّة - تدلّنا بوضوح على خفّة هذا اللون من التفكير، الذي لا يكاد ينظر إلى موضع قدميه. كما يدلنا على مبلغ ما يمكن أن تجنيه السّرّيّة المُطلّقة على شبابٍ مؤمنين مخلصين، يقودهم من لا يعرفون، إلى ما لا يعلمون!

٤ - إنّنا إذا غضضنا الطرف عن هذا كله، وافترضنا تفادي هذه الأخطار، فإنّ استخدام القوّة العسكريّة يجب التضييق فيه إلى أبعد حدّ مستطاع، فلا يجوز إلّا لإزالة الكفر البواح، كما سمّاه رسول الله ﷺ، لا لمجرد تقويم انحرافات جزئيّة، أو تغيير منكرات عادية. ولا بدّ من انسداد كل الطرق الأخرى، بحيث يكون اللجوء إلى القوّة من باب الضرورة التي تُقدّر بقدرها.

ولا بدّ من تهيئة الرأي العام لتقبل هذه الخطوة ومناصرتها، بل للمناداة بها قبل أن تقع. ولا بدّ من استكمال كل عناصر القوّة الأخرى اللازمة: من رويّة وأخلاقيّة وتنظيمية وشعبيّة، قبل اللجوء إلى القوّة العسكريّة.

وما أوضح وأبلغ ما قاله في هذه المعاني مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة في مصر والعالم العربي، الشهيد حسن البنا، حين قال في «رسالة المؤتمر الخامس»:

«ويتساءل كثير من الناس: هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟ وهل يفكر الإخوان المسلمون في إعداد ثورة عامة على النظام السياسي أو النظام الاجتماعي في مصر؟ ولا أريد أن أدع هؤلاء المتسائلين في حيرة، بل إنني أنتهز هذه الفرصة فأكشف اللثام عن الجواب السافر لهذا في وضوح وفي جلاء، فليسمع من يشاء.

أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمته وتشريعاته، فالقرآن الكريم ينادي في وضوح وجلاء: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. والنبى ﷺ يقول: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف»^(١).

فالإخوان المسلمون لا بد أن يكونوا أقوياء، ولا بد أن يعملوا في قوة.

ولكن الإخوان المسلمين أعمق فكرًا وأبعد نظرًا من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصوا إلى أعماقها، ولا يزنوا نتائجها، وما يقصد منها وما يُراد بها؛ فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة والإيمان، يلي ذلك قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدها قوة الساعد والسلاح، ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعًا، وأنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفككة

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، عن أبي هريرة.

الأوصال، مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان، فسيكون مصيرها الفناء والهلاك - هذه نظرة.

ونظرة أخرى: هل أوصى الإسلام - والقوة شعاره - باستخدام القوة في كل الظروف والأحوال؟ أم حدّد لذلك حدودًا واشترط شروطًا ووجّه القوة توجيهاً محدودًا؟

ونظرة ثالثة: هل تكون القوة أول علاج أم أنّ آخر الدواء الكي؟

وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف؟ أو من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون؟!

هذه نظرات يلقيها المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه، والثورة أعنف مظاهر القوة، فنظر الإخوان المسلمين إليها أدقّ وأعمق وبخاصة في وطن كمصر جرّب حظه في الثورات فلم يجن من ورائها إلّا ما تعلمون^(١).

٥ - ونضيف هنا شيئاً علّمناه تجارب عقود السنين الأخيرة، وهو: أنّ أية قوة عسكرية شعبية، لم تعد تكفي - في عصرنا - لمواجهة قوات الدولة المسلحة، لبُعد المسافة بين قدرة كل من الطرفين ومدى إمكاناته. فالجيوش الرسمية اليوم - بما تملك من مدرّعات وطيران وأسلحة صاروخية وغيرها - أصبحت قادرة على سحق أية فئة عسكرية مهما يكن تدريبها وتنظيمها.

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ١٣٤، ١٣٥، نشر المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

وأمامنا أمثلة وتجارب عديدة في ذلك قريية العهد، ولا يزال صداها يدوي في الأسماع.

في إندونيسيا تجربة حزب «دار الإسلام» الذي تحصّن بالجبال وقاتل رجاله قتال الأبطال سنين عديدة، صنعوا فيها روائع الأمثلة، ونوادير البطولة، ثمّ دحرهم سلاح الطيران.

وأقرب من ذلك زماناً ومكاناً تجربة الفدائيين مع الجيش الأردني، بعد أن بلغوا مبلغاً عظيماً من القوّة والعدد وتخزين السلاح و«التمركز» في داخل العاصمة (عمّان) والانتشار بين أهليها، مع التأييد المحلي والعربي، ومناصرة دول كثيرة أخرى. ومع هذا كله استطاع الجيش النظامي الأردني أن يقضي على هذه القوّة الهائلة في أيام قليلة. وإن في ذلك لعة.

وهناك تجربة جزيرة «أبا» في السودان: تجربة «الأنصار» مع جيش الحكومة.

وهناك تجارب أخرى في كلّ منها دروس وعظات يجب الاستفادة منها؛ فالسعيد من وعظ بغيره.

وهذا يؤكّد لنا أن محاولة القيام بانقلاب عسكري لا يؤيّد الجيش، محاولة محكوم عليها بالفشل.

والواجب - إذن - على دعاة الإسلام، أن يولوا الجيش عناية أكبر، وأن يعملوا بكل سبيل مشروع لنشر الفكرة الإسلامية الصحيحة بين ضباط الجيش وجنوده، وكسبهم إلى جانب الاتجاه الإسلامي، فما هم إلّا جزء من أبناء الشعب، قبل أن يدخلوا الجيش، وبعد أن دخلوا فيه،

وإذا كان الانضمام إلى الجماعات محظورًا عليهم، فإنَّ قراءة الكتب والرسائل، والمجلات وحضور الندوات والمساجد، والاستماع إلى الخطب والمحاضرات، أمر غير محظور على أحد.

إنَّ الواجب أن يكون الجيش في البلاد الإسلامية حاميًا للإسلام، لا أداة تُتخذ لضربه.

ولا أقصد بالحماية: أن يقوم الجيش بانقلاب لصالح الإسلام، بل منع أي انقلاب يقوم ضده.

فكثيرًا ما استُخدمت الجيوش - للأسف - لضرب الاتجاه الإسلامي الشعبي، في كثير من الأقطار التي يدين أغلبية أهلها بالإسلام. ومن أمثلة ذلك ما حدث في تركيا في زمن حكومة «عدنان مندريس»، حين برز المد الإسلامي الشعبي، وأثبت وجوده في الانتخابات، وأسقط حزب «الكماليين» وجاء بخصومهم إلى الحكم، بعد أن وعدوا الناخبين بأمور في صالح الإسلام. فما كان من الجيش - أو كبار ضباطه على الأصح - إلا أن تحرَّك، لإسقاط الحكومة، والاستيلاء على السلطة ومقاومة الحركة الإسلامية الشعبية.

٦ - إنَّ القول بأنَّ الحل العسكري هو الطريق الأوحـد لإزالة الاستبداد وفرض الحرِّيَّة المفقودة: قول غير مُسلَّم، وغير واقعي.

فالاستبداد لم يكن ولن يكون طريقًا للحرية، والقوة العسكرية لن تفرض الحرِّيَّة، بل غالبًا ما تكون هي التي تخنق الحرِّيَّة!

إنَّ الرجل العسكري بحكم تربيته الخشنة الصارمة، القائمة على «الضبط والربط» وبحكم ماتحت يديه من قوَّة، لا يعتد بالمنطق

والدليل، ولا يفهم لغة الحوار والمعارضة، إنّما يفهم لغة واحدة هي الأمر والتنفيذ، أو القوّة والتهديد. فإذا تمكنت فئة عسكريّة من الوصول إلى الحكم كانت هذه هي لغتها الوحيدة في معاملة المعارضين والمحايدين، بل الأتباع والأنصار أيضًا؛ لأنّها لا تطيق قول «لِمَ؟ فضلًا عن «لا».

فالحريّة لا يفرضها العسكر بل يفرضها الشعب نفسه، إذا بلغ درجة من الوعي والنضوج لا يسمح فيها أن يُقاد كما تُقاد الأنعام!

٧ - بقي ما يقال من الحاجة إلى القوّة العسكريّة لمقاومة أعداء المسلمين من جهة، ولحماية الحركة من جهة ثانية، ولتدريب أعضائها على معاني القوّة والجهد من ناحية أخرى.

فأما مواجهة الأعداء فأمر لا يخصّ الحركة وحدها ويجب أن تقوم به الأمّة كلها، وتدخل فيه الدولة بثقلها.

وأما الحماية فما ذكرناه من تجارب السنين الماضية يكفي في الردّ على هذه الدعوى. وقد كان للحركة الإسلاميّة في بعض البلاد في وقت ما، قوّة عسكريّة شعبيّة منظمة مدّربة، فلم تغن عنها شيئًا، ولم تستطع الدفاع عنها أمام طغيان السلطة.

ولعلّها كانت سببًا في عنف الضربات الموجهة إليها. أو - على الأقل - اتخذوها حُجّة يبرّرون بها هذه الضربات الوحشية.

وأما التدريب العسكري فلا ننكر أهميته وضرورته لتكوين الشخصية الإسلاميّة المتكاملة. ولكن مع وجود التجنيد الإجباري، وقيام منظمات للقوة والحرس الوطني، وغيرها، يمكن أن يتم التدريب المطلوب في

إطار الأوضاع السائدة، دون التعرض لمخالفة القانون، ومعارضة السلطة بغير حاجة مُلِحَّة.

٨ - إنَّ الانقلاب العسكري حتَّى لو قام به الجيش ونجح في تسلُّم زمام السلطة، لا يؤمن أنَّ يطيح به انقلاب عسكري مثله، ومعنى هذا أنَّ تعيش الأمة في بلبلة وفوضى، لا مكان معها لطمأنينة أو استقرار، كما كان هو الحال في معظم عالَمنا العربي طوال ربع القرن الماضي، منذ سنة ١٩٤٩م، حتَّى اليوم.

والحركة الإسلامية يجب أن تنكر هذه الظاهرة الخطرة، لا أن تسهم في بقائها واتساعها، وقد كنتُ كتبتُ بحثًا عن هذه الظاهرة منذ سنوات، لأضعه في مكان من كتاب «الحلول المستوردة» ولكن الطبعة المسبقة سبقتها. ولعلَّ وضعه هنا - ببعض تصرف - أليق وأوفق.

ظاهرة الانقلابات العسكريَّة:

لا يستطيع باحث يتعرَّض لتقويم هذه المرحلة من تاريخ أُمَّتنا دون أن يتحدث عن هذه الظاهرة الخطيرة التي تميزت بها تلك المرحلة، تلك الظاهرة التي لم تنبت في أرض المنطقة نباتًا طبيعيًّا، بل صُدِّرت إليه تصديرًا، والتي كان لها نتائج بعيدة الغور في سياستها واقتصادها ومادياتها ومعنوياتها، تلك هي ظاهرة الانقلابات العسكريَّة.

١ - إنَّ الانقلابات العسكريَّة، وإقحام الجيوش في السياسة كانت له آثار خطيرة في حياتنا كلها. أول آثاره أنَّ حياتنا - مع اعتياد هذه الانقلابات واستسهالها - لم يعد يُرجى لها استقرار. فكلما التقت مجموعة من الضباط المغامرين كان أول ما يفكرون فيه الإطاحة بالنظام القائم، ليتسلَّموا منه الزمام ويظهروا هم على مسرح الأحداث!

ولا تمضي مدة طويلة حتّى يجتمع آخرون فيفكرون في نفس ما فكر فيه الأولون: أن يقوموا بحركة «تصحيح» للمنحرفين بالثورة، أو «تأديب» لأصحاب «ردّة» شباط، أو آذار أو تشرين، أو ما شئت من شهور العام! وبعد مدة قد لا تطول، تقوم فئة أخرى تمثل نفس الدور على نفس المسرح.

وهكذا تصبح «الانقلابات» هي «اللعبة المفضلة» في بلادنا، بحيث أصبح المواطن العربي يتوقع كلما فتح المذياع في الصباح أن يسمع الموسيقى العسكرية والبيان رقم (١) لمجلس قيادة الثورة، والأمر بحظر التجول، واعتقال المتأمرين والمنحرفين، الذين كانوا بالأمس صنّاع المجد، وأبطال النضال!

والأمر بسيط حسبما وصفته «القيادة القومية لحزب البعث»^(١) بعد أن طردها العسكريون القطريون من أعضاء الحزب واستأثروا بالسلطة. قالت القيادة ساخرة: «قم بتشكيل قوّة عسكريّة ضاربة سريعة الحركة، تستولي على الإذاعة، وتعلن نجاح الانقلاب، والقبض على أعضاء القيادة التي لا تعجبك ثمّ أبعد عددًا من الضباط الذين لا يرون رأيك، وقرب أولئك الذين يدينون لك بالطاعة والولاء، وإذا أنت على رأس السلطة»!

لقد أصبحت الانقلابات العسكريّة «مودّة» العصر في العالم العربي - أو في العالم الثالث - كما يسمّونه، الذي قدّر «إدوار لوتواك» أن سبعين بلدًا فيه تعرّضت لانقلابات ناجحة. خلال ثلاث وعشرين سنة مضت. وهذا غير الانقلابات التي لم يُقدّر لها النجاح. وقد كان نصيب العالم

(١) في بيانها الصادر في بيروت في ٣٠ أبريل ١٩٦٦م.

العربي والإسلامي منها غير قليل^(١). حتّى إنّ سوريا وحدها قام فيها منذ ١٩٤٩م بضعة عشر انقلاباً، ابتداءً من حسني الزعيم إلى حافظ الأسد. وأصبح «الانقلاب» فنّاً خاصّاً يؤلّف فيه مثل «لوتواك» - الذي كان آخر عمل له في حقل الشؤون العسكرية والدفاعيّة في الولايات المتحدة! - ليعلم الطامحين والمغامرين كيف يخططون للانقلاب؟ كيف ينفذونه؟ وما شروط نجاحه؟ وما أسباب فشله؟ إلخ، خدمة مجانية - لوجه الله - يقدّمها خبراء الشؤون العسكريّة في الولايات المتحدة، للدول النامية، لا تريد منها جزاءً ولا شكوراً! وهي خدمة للتصدير فقط، لا للاستهلاك المحلي، فأمريكا الشماليّة مثل أوروبا، أغنى الناس عن هذه البضاعة «الانقلابية الثوريّة» فلتقدم شعوبنا الشكر إلى «الولايات المتحدة» ورجالها أمثال: «كوبلاند» جزاء ما ورّدوه إلى بلادنا من «نعم» بغير مقابل، بل بغير طلب أيضاً!

٢ - إنّ الانقلابات كثيراً ما تقذف إلى سدة الحكم بأناس ليس لهم «هويّة» تُعرف، ولا سوابق تُذكر، ولا تاريخ يُعلم. يقفزون فجأة من الظلام إلى الأضواء، وعلى الشعوب أن تُسلم لهؤلاء «المجهولين» قياد حياتها، والتصرف في أخطر شؤونها، والبت في قضايا مصيرها. إنّ «السياسي» عادة لا يصل إلى القمة إلّا بعد أن يبلوه النّاس لزمن طويل، ويسبروا غوره، ويعرفوا أصله وفصله واتجاهاته وولاءاته وارتباطاته في الداخل والخارج، وعلى أساس هذه المعرفة يحكمون له أو عليه.

(١) راجع: الانقلاب لإدوار لوتواك ملحق ص ٣٢١ وما بعدها، ترجمة مأمون سعيد، نشر دار النفائس، بيروت.

أما «العسكري» فهو بطبيعة عمله، وبحكم عزلته، لا يعرفه الشعب ولا يختلط به، ولهذا لا يستطيع أن يحكم له أو عليه، إلا بعد سنين من حكمه.

وهذه هي الخطورة في الحكم الذي يأتي به انقلاب عسكري، يُفرض على الشعب بحكم الثورة. إنَّ الأمر خاضع للمصادفة، فربما ظهر طيباً و«ابن حلال» وربما ظهر خبيثاً و«ابن حرام».

وهذا بخلاف الحاكم الذي يأتي نتيجة اختيار حر، وببيعة عامة، بعد أن ترشحه مواهبه وسوابقه لهذا المنصب الجلل. فأقرب مزاياء: أنه شخص معروف للناس.

٣ - ولا يقف الأمر عند الحاكم العام أو رئيس الدولة فقط. إن كثيراً من المناصب السياسيّة والمدنيّة تُعطى - بحق الفتح والانتصار في ليلة الانقلاب - لضباط أقل ما يقال فيهم: إنهم - بحكم سنّهم وخبرتهم - غير محنّكين، وغير مدربين على العمل في هذه الميادين، وفي هذا عدة أضرار جسيمة منها:

أ - إفساد المناصب المدنيّة والسياسيّة بإعطائها لمن لا يحسنها. وفي هذا خيانة للأمة، وتعريضها للهلكة. وفي الحديث: «إذا ضيّعت الأمانة فانتظر الساعة» قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسدَّ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(١).

ب - إغضاب العناصر المدنيّة التي ترى أنّ هذا المجال مجالها، وبذر بذور «النقمة» عندها على هؤلاء «المغيرين على مواقعها» بغير حق.

(١) سبق تخريجه ص ٦٨.

ج - فتح باب «التطلّعات» لهذه المناصب أمام فئات العسكريين الآخرين، وإلا غضبوا علانية، أو حقدوا سرّاً على الطبقة المدلّلة من زملائهم، الذين يتمتّعون بالحياة الناعمة، والمكاسب الكبيرة في أجهزة الحكم، والمؤسّسات المؤمّمة ونحوها.

د - إفساد الجيوش نفسها، بحرمانها من العناصر القادرة التي تفرّغت للسياسة من ناحية، وزرع الحقد والنقمة لدى زملائهم من ناحية أخرى. هذا الحقد الذي غالباً ما ينتهي بتصفيات وتطهيرات، يُحرم بها الجيش من الكفايات والمواهب والخبرات. وهذا كله على حساب قوّة الجيش وتفوقه ووحدته.

وهذا - بلا ريب - من أسباب ضعف الجيوش العربيّة في عهود الانقلابات العسكريّة.

٤ - وأكثر من ذلك وأخطر: أن يُستخدم الجيش «بوليساً» سياسياً أو جهاز مخبرات، أو نحو ذلك، فتغدو صورته هي إرهاب الشعب، لا الدفاع عنه ضدّ المغيرين عليه. وتصبح مهمته هي حماية «النظام» وبعبارة أصرح: حماية الفئة الحاكمة لا حماية «الوطن».

وفي دراسة لـ «هيئة العمل لتأسيس الحركة العربيّة الشعبيّة»^(١) بدمشق عن أسباب هزيمة ١٩٦٧م حمّلت الدول الثوريّة النصيب الأكبر من تبعاتها لما ارتكبته من أخطاء وانحرافات أهمها: «دخول الجيوش كقوة سياسيّة في الأنظمة الجديدة وابتلاعها جميع القوى السياسيّة الأخرى، وخروجها - كجيوش - من طبيعتها العسكريّة، وإضفاء هذه

(١) وثائق النكسة ص ٩١ - ٩٦، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٦٩م.



الطبيعة بروحها ومظهرها على هذه الأنظمة بحيث أصبحت قطب الرحي ومركز القوى فيها، ودولة ضمن دولتها، إن لم تصبح كل الدولة، وبحيث فرضت سيطرتها المباشرة وغير المباشرة على الحكم وتسُلُّطها على شؤون البلاد والعباد، حسب شريعة الفتح وقانون القوة، ونتيجة طبيعِيَّة لذلك يأتي تغيُّر طبيعة الجيش ودوره وتحوله من مؤسسة عسكريَّة منوط بها درء الأخطار الخارجيَّة عن الوطن، إلى بوليس سياسي وجهاز مخابرات يحصي على النَّاس داخل الجيش وبين صفوف الشعب حركاتهم وسكناتهم، ويسوقهم إلى غياهب السجون وأقبيَّة التعذيب وحتى إلى الموت.

ونتيجة أخرى لذلك يأتي تغيير بنية الجيش بالتصفيات المتعاقبة التي رمت خارجه ألوف الضباط الوطنيِّين القوميِّين الأكفاء، وبروز طبقة جديدة - من الضباط الموالين - بيروقراطية وبوليسية، وجدت في هذه الأنظمة سبيل الهروب من حياة الجندية الشريفة، ومن واجب الدفاع عن شرف الأمة وتراب الوطن، إلى حياة ملؤها التمتع بالملذات والنفوذ ونعومة العيش والحفاظ على الامتيازات التي حصلت عليها عنوةً واقتدارًا، والحصول على المزيد منها.

إنَّ حلول هذه الطبقة العسكريَّة، وصنيعتها الطبقة البيروقراطية التي خلقتها في أجهزة الدولة وفي القطاع المؤمَّم، كان من شأنه تعطيل الحياة السياسيَّة وإلغاء المؤسسات الديمقراطيَّة الشعبيَّة، وفرض وصاية شاملة وجائرة على الشعب كله، وقيام ديكتاتورية طبقية جديدة ذهبت في توكيد وتبرير وجودها مذاهب شتى: من شرعيَّة ثورية مزعومة مستمدَّة من الحق المقدس للانقلاب العسكري، إلى مذهبية عمياء في عبادة الإرهاب

باسم الثورة، إلى ملء أجواء الأثير بلغو الكلام عن الثورة الاشتراكية وحرب التحرير الشعبىة.

إنَّ هذا الانحراف الذي وقعت فيه هذه الأنظمة كان له أثره الماحق في داخل الجيش الذي داهمته حرب «حزيران» وهو مشغول بكلِّ شيء إلا بأمر الحرب، وسلاحه مشهور بتار في وجه كل مواطن ولكنه معقم ومغلول في وجه العدو، وألويته خفاقة للحفاظ على نظام الحكم ودولة المخابرات ولو على حساب تراب الوطن وكرامة الشعب»^(١).

٥ - إنَّ الانقلاب العسكري معناه فرض اتجاه معيَّن أو رأي معيَّن أو شخص معيَّن، بقوة السلاح، لا بالحُجَّة ولا بالإقناع؛ فالغلبة للقوة لا للمنطق، والكلمة للأقوى لا للأصلح ولا للأحق. الكلمة لمن معه الدبابة والمدرعة لا لمن معه الشعب، ومن معه الحق. ويزيد الأمر خطورة أنَّ بعض العسكريين الذين يشغلون مناصب سياسية يظنون يحتفظون بمناصبهم ورتبهم العسكرية، فهذا نائب لرئيس الجمهورية أو مدير لمكتبه، أو نائب لرئيس الوزراء، أو وزير أو عضو مجلس القيادة، وهو في الوقت ذاته قائد عام للقوات المسلحة، أو لواء أو عميد بسلاح المدرعات، أو سلاح الطيران أو غيرها.

وإنَّ من شرِّ ما يؤذي الإنسان ويعذِّبه أن يحكمه من لا يرضى عنه، وشرُّ من ذلك أن يُرغم - تحت تهديد القوة الباطشة - على تأييد من يكره، والتصفيق لمن يلعنه بلسانه وقلبه.

(١) وثائق النكسة ص ١٨٥، ١٨٦.

لقد جاء في الحديث: «إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُودّع منهم»^(١). فكيف إذا أُجبرت الأمة على أن تقول للظالم: أيها المنقذ، أو المحرّر، أو البطل العظيم؟!

٦ - يضاف إلى ذلك أنّ العقل العسكري - بحكم تكوينه، وطبيعة عمله وظروف عزلته - يميل إلى الاستعلاء، والاستبداد والعنف والسرعة في إصدار القرارات، ولو كانت مصيرية، دون استماع إلى آراء الخبراء والمجربين، وهذا ممّا جعل الحكم العسكري في عزلة عن الشعب - وبخاصة الأحرار المثقفين - ويحفر بينهما هوة تعمق وتتسع بمضي الزمن. ولهذا كثر الحديث عن «أزمة المثقفين» وموقفهم السلبي من الحكم العسكري الثوري.

وسكوت الشعوب على الحكم العسكري كارهة وعلى ماض، لا يعني رضاها أو استسلامها للأمر الواقع، فإنّ النقمة ستظلّ تعتمل وتغلي في صدورها، وكلّما زاد الضغط زاد الغليان، حتّى تنفجر القدر يوماً، أو تتكسر، ويومئذٍ يحدث ما لا يعلم إلّا الله نتائجه ومداه.

هذا مع أنّ الحكام العسكريين هم أكثر الناس حديثاً عن «الشعب» و«الشعبية» و«الجماهير» وما شابهها من العبارات التي يتّخذونها ستاراً للديكتاتورية المستبدة، التي تنفّذ ما تراه وما تريده، بدون التفات إلى أحد.

(١) رواه أحمد (٦٧٨٤)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والحاكم في الأحكام (٩٦/٤)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، والبخاري (٢٣٧٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١١٠): رواه أحمد والبخاري بإسنادين، ورجال أحد إسنادي البخاري رجال الصحيح، وكذلك رجال أحمد. عن عبد الله بن عمرو.

ولهذا لا يسمح الحكم العسكري للمواطنين بحرية التفكير، وحرية التعبير. بإنشاء صحافة حرّة ونحوها. وحرية التجمع السياسي، وحرية النقد والمعارضة لسياسة الحكومة، مستخدماً سلاح الاتهام - لكلّ من يعارضه - بالعمالة والرجعيّة ومعاونة الاستعمار والإمبرياليّة وغيرها من «الأكليشيّات» المحفوظة! بل رأينا العسكريين من الحزبيين العقائديين، حين لاحت لهم الفرصة وثبوا على الحكم، وطرّدوا منه زمرة المدنيين من «رفقائهم» في الحزب والعقيدة. وعاملوهم معاملة الخصوم الأعداء.

٧ - ويترتب على عزلة الحكم الانقلابي العسكري عن الشعب: شعوره دائماً بالحاجة إلى حماية «من داخل الجيش أو من خارج الوطن في كثير من الأحيان» ضد أي حركة معارضة تنبع من بين الشعب، تقول للحاكمين: لماذا؟ أو: لا.

وهذا يجعل الحاكم نفسه يعتمد على مراكز القوى في الجيش، وفي أجهزة المخابرات، وهو في نفس الوقت يخافها ويخشى من مطامعها وتقلباتها. ولهذا يتملّقها، ويتغاضى عن أخطائها، بل خطاياها وانحرافاتهما. ويرضي أطماعها بما تطلب لنفسها ولأتباعها ومحاسبيها من مكاسب وامتيازات، على طريقة «أطعم الفم؛ تستح العين»!

وهذا ليس أمراً عارضاً، بل هو كامن في طبيعة الأنظمة العسكرية الثوريّة، التي تستند في قيامها وفي بقائها على حماية القوات المسلحة.

٨ - وهذا الذي قلناه يسلمنا إلى خطر آخر من أهم ما يُذكر من أخطار الانقلابات العسكريّة وهو أنّ الانقلاب إذا فشل في تحويل نظام

البلد إلى شرعية مستقرة، لها أصول راسخة في الحكم والمعارضة،
وتغيير الحكام، وأصبح الانقلابيون مكروهين من الشعب، فلا تبقى
وسيلة لتغيير هذا الوضع إلا أن يقوم انقلاب عسكري آخر. ومعنى هذا
أن الانقلاب لا يُعالج إلا بالانقلاب، على نحو ما قال أبو نؤاس: ودأوني
بالتّي كانت هي الدّاء^(١)!

لذلك نرى سلسلة الانقلابات مستمرة، وخاصّة في دول العالم
الثالث - مسرح تجارب الإمبرياليات القديمة والجديدة: الإنجليزية
والأمريكية والروسية والصهيونيّة وغيرها - حيث ينقضّ فريق من
الانقلابيين على فريق سابق، ويفقد البلد بسبب ذلك عددًا كبيرًا من
الخبرات والكفايات، من شبابه، ورجاله، والعناصر النشطة الفعّالة فيه،
من عسكريين ومدنيين ممّن أنفق عليهم الوطن الكثير حتّى تعلّموا
وتخرّجوا وتدرّبوا، ووصلوا إلى مستوى عالٍ من الكفاية الفنيّة، فإذا هم
يُعدمون أو يُسجنون أو يُعزلون أو يهربون!

إنّ بعض العسكريين يندفعون بإخلاص لتحرير وطنهم من حكم
ظالم أو فساد عريض، وقد لا يكون الحكم هو هدفهم في أول الأمر،
ولكن سحر السلطة يشدّهم إليه، وبريق النفوذ والجاه يخطف أبصارهم،
فلا يقبلون التنازل عن السلطة وقد أمست في أيديهم. وهذا معناه أنّ
الشعب بقيام أول انقلاب عسكري، يدخل قمقم الأحكام العسكريّة،
فلا يخرج منه، ولا أمل في خروجه منه، لأنّ كلمة السرّ - التي يفتح بها
«سمسم» غطاء القمقم - في يد الحاكم العسكري الذي لا يعطيها - طوعًا
أو كرهًا - إلاّ لعسكريّ مثله.

(١) انظر: الرسائل الأدبية للجاحظ ص ٤٥، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ٢، ١٤٢٣هـ.

ويصدق هنا ما قاله شاعر مجيد في وصف جماعة انقلابية من هذا النوع:

أَغَارُوا عَلَى الْحُكْمِ فِي لَيْلَةٍ فَفَرَّ الصَّبَاحُ وَلَمْ يَرْجِعْ!

فكيف النجاة من هذه الحلقة المفرغة؟

إنَّ من الصعب أن تقوم ثورة شعبية شاملة تُسقط الحكم العسكري؛ لأنَّه بقوة الجيش سيسحقها. ولم يتكرر - فيما علمنا - مثل ثورة أكتوبر سنة ١٩٦٤م في السودان، تلك الثورة الشعبية الإجماعية التي أسقطت حكم «عبود» العسكري الخامل، ولكن يُلاحظ أنَّه لم يكن ثوريًا ولا اشتراكيًا ولا عقائديًا.

إنَّ الخطر سيظل قائمًا، والاستقرار سيظل معدومًا، والشرعية ستظل حلمًا بعيد المنال، ما لم يعد إلى الجيش يقينه بأنَّ مهمته الدفاع عن حدود البلاد لا الحكم والسياسة.

ومن النَّاس مَنْ يقبل تدخل الجيش في حالة واحدة: حالة تفريط السلطة القائمة في أرض الوطن أو في وحدته، أو في عقيدة الشعب ودينه، أو نحو ذلك ممَّا يتعلق بكيانه ومصيره، وعجز القُوَى المدنية المخلصة عن مواجهة السلطة وتقويمها. فهنا - من باب الضرورة كما يقول الفقهاء - يتدخل الجيش للإنقاذ على شرط أن تكون مهمته ردَّ السلطة إلى الشعب، أي إلى المدنيين، ثمَّ يرجع الجيش إلى مواقعه مشكورًا.

فالتدخل العسكري يجب ألاَّ يُباح إلاَّ لضرورة تُقدَّر بقدرها.

ولكن المخوف في مثل تلك الحالة دائمًا أنَّ العسكريين بعد أن تصبح السلطة في قبضتهم، ويدوقوا لذة الحكم، يصعب عليهم أن



يسلّموها لغيرهم راضين مختارين، وهم في رأي أنفسهم ليسوا أقل من غيرهم مواهب ومقدرة على تصريف الأمور.

وهنا تكمن المشكلة، فما لم يكن هناك وعي عام في الجيش كله يؤمن بضرورة الابتعاد عن السياسة، وتركها لأهلها، والحرص على سيادة الشرعيّة فلا يُرجى تراجع العسكريين عن موقفهم.

ولا يتم ذلك إلا بوجود فئة مخلصّة من الضباط والقادة العسكريين يؤمنون بأنّ مهمة الجيش الدفاع عن حدود الوطن فقط، ويؤثرون مصلحته العامّة على مكاسبهم الخاصة، فيحاربون فكرة الانقلابات، ولعبة السياسة، ويعملون لتعميم هذا الوعي بين الضباط، بُغية استقرار وطنهم، ودعوته إلى الأوضاع الطبيعيّة والشرعيّة.

كما أنّه لا بدّ بجانب ذلك من توعية الشعب نفسه، بحيث يرفض الانقلابات والحكم العسكري أيّا كان اتّجاهه والقائمون به، ولا بدّ من تعميق هذا الوعي حتّى يغدو عقيدة سياسيّة توقن بها جماهير الأمة، ولا تفرط فيها، ولا تبغي عنها حولاً، ومن الشعب تنتقل إلى العسكريين، ويلتقي الجميع على إقرار الشرعيّة والولاء لها. وبدون هذا وذاك لا أمل في استقرار.



ثالثاً: سبيل الوعظ والإرشاد

ويتصوّر آخرون من المتديّنين أنّ تغيير المجتمع القائم، وتحويله إلى مجتمع إسلامي ملتزم، يمكن أن يتمّ عن طريق الوعظ والتذكير، والتبليغ والإرشاد في المساجد والجوامع، فعن طريق الكلمة المخلصة، والخطبة المؤثرة، ورقائق الترغيب والترهيب، التي ترطب القلوب بالرجاء، وترقق الأفئدة بالخشية، يمكن أن يتوب العصاة، وينتبه الغافلون، ويعود الناس إلى رحاب الله.

ولا ريب أنّ الوعظ والإرشاد وسيلة هامة من وسائل الدعوة إلى الله، لا يُستغنى عنها بحال، ولا يجوز التهوين من تأثيرها على كثير من الناس، ولا سيما إذا قام بها داعية ذو قلب حي، وعقل نيّر، فإنّ الله قد يهدي به الألوف من الناس، فإنّ الكلام إذا خرج من القلب وصل إلى القلوب، وكثيراً ما رأينا وقرأنا وسمعنا عن «مشايخ» و«مرشدين» من ذوي الإخلاص، أخرج الله بهم كثيرين من ظلمات المعصية والانحراف إلى نور الطاعة والاستقامة.

وقد كان الإرشاد والوعظ جزءاً من مهمة الأنبياء والمرسلين، الذين بعثهم الله مبشرين ومنذرين. وستظل جزءاً من مهمة ورثة الأنبياء وحملة دعوتهم في كل زمان ومكان: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

الوعظ والإرشاد لا يكفي:

ولكن هذه الوسيلة وحدها - برغم جلالها وتأثيرها - لا تكفي لتحقيق الهدف المراد. وذلك لأسباب:

١ - إِنَّ تأثيرها محصور في رَوَاد المساجد وأشباههم مَمَّن لا يزالون على اتصال بالتدين والعبادة. وإن كان فيهم بعض تقصير أو غفلة عن الله والآخرة. أمَّا الملاحدة والإباحيون وحملة الأفكار الهدامة، والعقائد الضالَّة، فهؤلاء لا يحضرون أماكن الوعظ أصلاً، ولو حضروا ما انتفعوا به؛ لأنَّ الخراب الذي في عقولهم أعمق من أن تؤثر فيه كلمة أو خطبة، إلا ما شاء الله.

٢ - إِنَّ تأثير الواعظ الجيد محدود من حيث الزمان أيضاً، بجوار محدوديته من حيث المكان والنوعية؛ فالمستمعون يتأثرون بالواعظ عند السماع، وقد تذرف أعينهم الدمع، وقد تقشعر منهم الجلود خشية لله، ثمَّ ينصرف الواعظ والموعوظون كل إلى حال سبيله، فالواعظ لا يملك متابعة موعوظيه، ولا يربطهم برباط واحد، وسرعان ما يتبخر أثر وعظه إذا دخل النَّاس في لجة الحياة، وألهتهم مشاغلها، وقديماً شكَّا النَّاس من ذلك فقالوا:

نُرَاعُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ عِنْدَ سَمَاعِهِ وَنَخْرُجُ لِلدُّنْيَا فَنَلْهُو وَنَلْعَبُ^(١)!

٣ - إِنَّ الوعظ والإرشاد وسيلة يُقصد بها التأثير على الأفراد. أمَّا تغيير المجتمعات بتبديل مفاهيمها وقيمها وتقاليدها وقوانينها، رغم مَن يسند هذه الأوضاع من رجالات كبار على مستوى السياسة، ومستوى الفكر، ورغم ما يغذيها ويحميها من مؤسسات وقُوى منظورة وغير منظورة - في الداخل وفي الخارج - فهذا أمر فوق قُدرة الوعظ، وفوق طاقة الواعظ.

(١) من شعر: محمد بن وهيب الحميري. انظر: اللطائف والظرائف للثعالبي ص ١٢، نشر دار المناهل، بيروت.

٤ - إنَّ أجهزة التأثير المضادة لمنبر الوعظ أصبحت أعظم خطرًا، وأبعد أثرًا فلم تعد الكلمة المسموعة - بصفة عامّة - وحدها هي العنصر المؤثر في التوجيه والتغيير. فهناك الكلمة المكتوبة، تفيض بها أنهار الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية، والكتب الدورية وغير الدورية، ممّا تقذف به المطابع للقراء في كل مكان.

وهناك الكلمة المسموعة مع الصورة المشاهدة في التلفزيون والسينما والمسرح، وتأثيرها أفعل وأقوى وأنفذ، لاجتماع حاستي السمع والبصر على التأثير بها، ولتكرارها اليومي، ومصاحبتها للناس ساعات طويلة كل يوم، حتّى في مخادعهم.

حتى الكلمة المسموعة نفسها لم تعد مقصورة على خطبة المنبر أو درس المسجد، بل أصبحت تذاع على الناس من خلال المذياع في صورة برامج متنوعة: إخبارية، وثقافية، وترفيهية، يُستخدم فيها الشعر والنثر، والقصص والحوار، مع التمثيل والغناء والموسيقى، وكل ما يحوطها بقوة التأثير والنفوذ إلى العقول والقلوب.

فليت شعري ماذا عسى أن تصنع خطبة الخطيب أو درس الواعظ أمام هذا السيل من الكلام المسموع والمقروء والمكتوب؟ ماذا يغني المنبر أمام المذياع والتلفاز والمسرح والسينما والصحيفة والمجلة وسائر أجهزة الإعلام والتأثير؟ وكم يكون تأثير الواعظ البليغ إذا كانت هذه الأدوات الجبارة والأجهزة المخدومة، تسير في اتجاه غير اتجاهه، وتعمل لمهمة غير مهمته وقديمًا قال الشاعر:

مَتَى يَبْلُغُ الْبَيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ^(١)؟

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٨/٣).

وهذا لو تساوت طاقة البناء وطاقة الهدم، فكيف إذا كان عدد الهدّامين أكثر، وطاقتهم أكبر، وطريقهم أيسر؟ فالهدم بطبيعته أخف وأسهل حتّى قال الشاعر:

وَلَوْ أَلْفٌ بَانَ خَلْفَهُمْ هَادِمٌ كَفَى فَكَيْفَ بَانَ خَلْفُهُ أَلْفٌ هَادِمٌ^(١)؟!

وقد قال الشاعر ذلك في هدّامين أدواتهم المعاول والفؤوس، فكيف لو رأى الهدّامين في عصرنا وأدواتهم الألغام والموادّ الناسفة، التي تحيل ناطحة السحاب، في لحظات إلى تراب؟!

وما أشبه الهدم في المعنويّات بالهدم في الماديّات!

٥ - إنّ الواعظ قد يحتاج إلى أن يقول كلمة الحقّ في وجه الحكّام، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر. وكيف يستطيع ذلك، وقوّته وقوّت عياله بيد هؤلاء الحاكمين، الذين استغنوا عن دينه واحتاج هو إلى دنياهم فهو موظف لديهم، وأسير دنياهم ومعاشهم. وقديماً قال أحد الأمراء في شأن الحسن البصري، وسرّ شدّته عليهم، ومكانته لديهم: احتجنا إلى دينه، واستغنى عن دنيانا^(٢)!

ولكن إذا انعكس الوضع كما هو اليوم، فإنّ الواعظ المخلص يواجه محنة شديدة لا يصبر عليها إلّا أولو العزم. وقليل ما هم!

٦ - وحتّى الواعظ المتطوع لا يجد الحرّيّة دائماً ليقول ما يريد، ففي عهود الديكتاتوريات يصبح المنبر موجّهاً، شأنه شأن الاقتصاد والإعلام

(١) من شعر عبد الله بن الرّيّة المالقي. انظر: أعلام مالقة ص ٢٢٧، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٢) فيض القدير للمناوي (٤٨١/١)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ١، ١٣٥٦هـ.

والسياسة. فَمَنْ لم يسر في خطِّ الحاكم لم يبق له مكان، إِلَّا في السجون والمعتقلات.

٧ - ثَمَّ من أين لنا العدد الكافي من الوعَّاظ الموهوبين المؤثرين؟! إِنَّكَ قد تذرّع قُطْرًا بأكمله طولًا وعرضًا، فلا تجد إِلَّا واحدًا أو اثنين أو ثلاثة، وقد لا تجد أحدًا يملأ سمعك وقلبك وعقلك، فلا تملك إِلَّا أَنْ تردّد قول الشاعر:

إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ، وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدًا^(١)!

* * *

(١) من شعر: دعبل الخزاعي. انظر: العقد الفريد (١٥٢/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١،



رابعًا - سبيل الخدمات الاجتماعية

سبل العمل الاجتماعي:

ويُخَيَّل إلى فئة أخرى من النَّاس أنَّ المجتمع الإسلامي يمكن أن يتحقَّق إذا نشط أهل الدين، وعشَّاق الخير، في إنشاء المؤسسات الاجتماعية، والجماعات الخيرية، التي تُسهم في تخفيف البؤس، وإشاعة البر، ومساعدة المحتاج، ومحاربة الأعداء الثلاثة: الفقر والجهل والمرض.

ولهذا يسعون إلى إنشاء جمعيات أو لجان خيرية شتى:

فجمعية أو منشأة أو لجنة لجمع الزكاة أو تنظيم الإحسان.

وأخرى: لإنشاء المساجد أو ترميمها.

وثالثة: لتكفين موتى الفقراء ودفنهم.

ورابعة: لعمل مستوصفات طبية مجانية أو شبه مجانية.

وخامسة: لبناء مدارس لتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الدين.

وسادسة: لكفالة الأرامل والعجزة.

وسابعة: لإيواء الأطفال المشردين والأيتام وتعليمهم.

وثامنة: لمحو الأمية.

وتاسعة: لمكافحة المخدرات والآفات الاجتماعية.

وعاشرة: لإصلاح ذات البين.

وغير ذلك كثير وكثير.



اتجاهان متباينان في تقدير الخدمات الاجتماعية:

وأود أن أبين هنا أن في هذه القضية اتجاهين متناقضين تمامًا لا يلتقيان ولا يتفاهمان.

الاتجاه الأول: اتّجاه يبالغ في تقدير أهميّة الأعمال والخدمات الاجتماعية ويجعلها أكبر همّ، ومحور نشاطه، وفي رأيه أنّها لو اتّسع نطاقها، وكثر عشاقها، لأمكن أن تغيّر المجتمع بغير انقلاب ولا ضجيج.

وينسى هؤلاء أمورًا ثلاثة في غاية الأهميّة:

أولها: أنّ الفساد الاجتماعي الذي نشكو منه، قد تغلغل في أعماق المجتمع وسرى في كيانه كلّ مسرى السم في البدن، فلم يعد يجدي فيه الترقيع الجزئي، والإصلاح الجانبي، فإنّ هذا أشبه ما يكون بإعطاء «المسكّنات» للمريض بمرض يحتاج علاجه إلى عملية جراحية، أو إقامة طويلة في مستشفى معيّن تحت إشراف خاص.

إنّ العاقل لا يكفي أن تعطيه دريهمات يقضي بها حاجة عاجلة لشخصه أو لأسرته، وإنّما يجب أن يُهيأ له عمل مناسب يكسب منه ما يكفيه وأسرته كفاية تامة. وهذا لا تقدر عليه جمعية أو لجنة. إنّما هو من وظيفة الدولة المسؤولة.

وقيام لجنة بجمع الزكاة من عشرة أو مائة من متوسطي الحال أو المستورين من الناس لا يغني غناء قيام «مؤسسة للزكاة» تحت إشراف الدولة المسلمة، تأخذ من كل مالك للنصاب، وبخاصة أصحاب الألواف والملايين، لا بدّ إذن من إصلاح كلي شامل.

والثاني: أن المجتمع وحدة لا تتجزأ أشبه بجسم الشخص الواحد، ذي الأجهزة والأعضاء والخلايا المتعددة، فكلها يؤثر بعضها في بعض صحةً وسقمًا واستقامةً وانحرافًا. ولهذا نرى من الخطأ النظر إلى النواحي الخيرية والاجتماعية مفصولة عن جوانب المجتمع الأخرى.

فهناك ارتباط متين بين الفساد الاجتماعي، والفساد الفكري، والفساد الخلقي، والفساد التشريعي، والفساد التعليمي، والفساد الإداري، والفساد السياسي، والفساد الاقتصادي، ومحاولة إصلاح جانب واحد من هذه الجوانب مع إغفال الأخرى، عبث وغفلة عن طبيعة المجتمع والحياة.

والثالث: أن الذي نريده من المجتمع شيء أكبر من محاربة الفقر أو المرض أو الجهل وإن كان ذلك من أهم ما نهدف إليه.

لقد قلنا وأكدنا من قبل: إننا نريد مجتمعًا جديدًا، مجتمعًا إسلاميًا بمعنى الكلمة، مجتمعًا يعيش بالإسلام، ويعيش للإسلام، لرسالة الإسلام الكبرى وأمة الإسلام العظمى. فيجاهد من أجل تبليغ الدعوة الإسلامية، وتحقيق الوحدة الإسلامية المنشودة، والخلافة الإسلامية المفقودة، حتى يتخلص المسلمون من الإثم الذي لحقهم بإضاعة هذا الواجب سنين عديدة، مع أن رسولهم ﷺ يقول: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ لِإِمَامٍ، مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً»^(١).

وهذا المجتمع العقائدي المتميز بأهدافه ومناهجه، ومقوماته وخصائصه، وأفكاره ومشاعره، وأخلاقه وآدابه، ونظمه وتشريعاته، لا يُتصوّر أن يقيمه مجرد الإكثار من منشآت خيرية، وإصلاحات اجتماعية جزئية.

(١) رواه مسلم في الإمامة (١٨٥١)، عن ابن عمر.

الاتجاه الثاني ومناقشته:

والاتجاه الثاني: يرفض مجرّد المشاركة في أعمال الخير، ومؤسسات البر، والخدمات الاجتماعية، ويرى ذلك صارفًا عن الهدف الأساسي وهو إقامة الدولة الإسلامية، وعن العمل الأساسي وهو نشر الدعوة، وتجميع الأنصار والجنود عليها. كما أنّها تخدّر الجمهور عن الإصلاح الجذري الذي يجب أن يتم عن طريق الحكم الإسلامي.

وهذا هو رأي حزب التحرير كما سمعته من بعض رجالاتهم في الأردن منذ اثنين وعشرين عامًا، فقد ناقشوني مناقشة حارة في ذلك، واستنكروا أشد الاستنكار أن يشغل أصحاب الدعوة أنفسهم بغير الدعوة. وكان ردّي عليهم يتلخّص فيما يأتي:

١ - إنّ فعل الخير جزء من مهمة المسلم في الحياة، كما أمره الله. فقد قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨]. فعلاقة المسلم بربه العبادة، وعلاقته بمجتمعه فعل الخير، وعلاقته بأعدائه الجهاد في الله. وفعل الخير داخل في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]. ولا يسع المسلم أن يعيش في قرية لا يجد مرضاها العلاج، أو لا يجد أيتامها الكفالة، أو لا يجد فقراؤها القوت، ثم يقف متفرّجًا، لا يمدّ إليهم بالعون يدًا، ولا يضمّد لهم جرحًا، ولا يمسح دمعة!

٢ - إنّ هذا جزء من نشر الدعوة أيضًا، فنشر الدعوة لا يتخذ صورة المحاضرة أو الحديث أو الكتاب فقط. فإنّ ممّا يحبّب فكرتك إلى الناس أن تقدّم إليهم عملاً صالحًا، أو تُسدي إليهم معروفًا، فتفتح

قلوبهم لحبك، وعقولهم لفهمك، وآذانهم للإصغاء إليك. وقديماً قالوا:
الإنسان أسير الإحسان. وقال أبو الفتح البستي:

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْو فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ^(١)!

وروي عن الإمام الشافعي قوله: «اللهم لا تجعل لفاجرٍ عليّ منّة،
فتجعل له في قلبي محبة»!

ولقد رأينا إرساليّات التبشير المسيحي تعتمد اعتماداً كثيراً على هذا
الأسلوب فتؤسس مشروعاً خيرياً أو مستشفى أو نحو ذلك، لتنفذ من
ورائه إلى نشر العقيدة الكاثوليكية أو البروتستانتية.

كما أنّ في هذه الأعمال الاجتماعية مجالاً للتعرف على أحوال
الناس، ودراسة مشكلاتهم، والاتصال اليومي معهم، وهذا لأصحاب
الدعوات.

٣ - ليس كل أعضاء الحركة الإسلامية قادرين على نشر الدعوة
باللسان أو القلم، فإنّ مواهب الناس تختلف، وقدراتهم تتنوّع،
ولا عجب أنّ تجد كثيراً قادرين على العمل الاجتماعي، غير قادرين على
العمل الفكري، فمن الخير أن يُشغَلَ هؤلاء بما يناسب استعدادهم
وخبراتهم، بدل أن يُترَكوا في فراغ، فيملّوا أو يفتروا، أو ينقطعوا.

٤ - إنّ هناك هدفاً بعيداً هو الهدف الأساسي، وهو إقامة المجتمع
الإسلامي والحكم الإسلامي، وهذا الذي ينبغي أن ينال القسط الأوّل
من الاهتمام والجهود. ولكن بجواره أهداف قريبة يمكن تحقيقها بجهود

(١) انظر: قصيدة عنوان الحكم لأبي الفتح البستي ص ٣٦، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، نشر
مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

أقل، دون أن تؤثر على الأهداف الأساسية. وقد ضربت لذلك مثلاً ببستان يغرس صاحبه فيه الشجر والنخيل، وهذا هو الهدف الأساسي منه. ولكن حيث كانت بعض الأشجار تظل عدة سنين حتى تثمر. فإنّ البستاني الناجح هو الذي يستغل الأرض في زراعة بعض الخضراوات السريعة الإنتاج، فيستفيد ويفيد، ما دام ذلك لا يعوق خدمة الهدف الأساسي وهو الأشجار والنخيل.

أمور يجب أن تُراعى:

على أنه من الضروري عند الاشتغال بالعمل الاجتماعي أن يُراعى ما يلي:

١ - ألا تجعل الحركة هذه الأعمال والخدمات أكبر همّها، وشغلها الشاغل، فتستغرق نشاطها، وتستنفد جهودها وأموالها، ولا يبقى لمهمتها الأصلية شيء إلا بقايا جهد، أو بقايا نشاط، أو بقايا مال. وإنما تعطيها من ذلك القدر المناسب بغير جور على الجوانب الأخرى. ومن المهم جداً أن تموّل الأعمال الاجتماعية والمؤسسات الخيرية من أموال أهل الخير وهم كثيرون في العادة. أما مال الحركة فيدّخر للحركة نفسها. إنّ المؤسسات الخيرية تجد الكثيرين ممّن يتحمّسون للإنفاق عليها. أمّا الحركة الإسلامية فليس لها - بعد الله - إلا رجالها.

٢ - إثارة المؤسسات الثقافية على المؤسسات الاجتماعية المحضة، وأعني بالأولى مثل المدارس والجمعيات العلمية، والأندية والمراكز الثقافية، والمكتبات وما شابه ذلك؛ لأنّ معركة الإسلام مع أعدائه اليوم معركة فكريّة في الدرجة الأولى. وأخطر أنواع الاستعمار اليوم هو الاستعمار الفكري. وهو استعمار لا يحتل الأرض، بل يحتل العقل،



ولا يستخدم المدفع، بل يستخدم القلم، ولا يقول للمسلمين: اعزلوا الإسلام عن الحياة، بل يُربّي أبناء المسلمين على أفكاره ليقولوا هم ذلك بألسنتهم وأقلامهم. ولهذا نقول: إنّ المدرسة أهم من المستشفى، والنادي الثقافي أهم من النادي الرياضي، وجمعية لتصحيح أفهام الأحياء أهم من جمعية لتكفين أجساد الموتى!

٣ - أن يتم ذلك وفق منهج معلوم، وخط مرسوم، وهذا يقتضي دراسة الأوضاع والظروف البيئية والزمنية والمادية والنفسية لكل حركة. فقد ينفع العمل الاجتماعي في بلد، ويضر في آخر، وقد يصلح لحركة في وقت معيّن، ولا يصلح في وقت آخر. وقد يناسب عمل معيّن لملاسات خاصّة دون غيره من الأعمال. فلا يجوز إصدار فتوى جامدة واحدة لكل حركة في كل البيئات وفي كل الأوقات، وفي كل الأحوال!



ضرورة الحركة الإسلامية

إنَّ تحقيق الحل الإسلامي المنشود، الذي يتمثل في بناء مجتمع إسلامي سليم وقيام حكم إسلامي رشيد، واستئناف حياة إسلامية صحيحة، لا يمكن أن يتم بالقرارات الحكومية الآلية، ولا بالانقلابات العسكرية الثورية، ولا بالوعظ والإرشاد وحده، ولا بالخدمات الاجتماعية الجزئية.

إنَّ الحل المنشود لا بدَّ أن تسبقه «حركة إسلامية»، حركة واعية شاملة، حركة تمهِّد له، وتدعو إليه، وتعدُّ له رجاله وأنصاره.

إنَّ الدولة السنوسية سبقتها حركة دعوة وإحياء وتجديد، أو الدعوة السنوسية، والدولة السعودية سبقتها الدعوة أو الحركة الوهابية. وهكذا كل دولة تقوم على فكرة وعقيدة (أيديولوجيا).

وبعبارة أخرى: إنَّ الحل الإسلامي لا بدَّ أن يسبقه عمل إسلامي على مستواه.

والعمل الإسلامي المطلوب لا بدَّ أن يكون عملاً جماعياً، قائماً على أساس من التنظيم والتخطيط، حتَّى يؤتي أكله، ويحقق أهدافه.

ضرورة العمل الجماعي:

وإنَّما قلنا بضرورة العمل الجماعي؛ لأنَّ هذا ما يفرضه الدين والواقع معاً:

أ - فالدين يأمرنا بالاتحاد والتعاون على البر والتقوى، وهذا من أخص أعمال البر والتقوى وأهمها وأشدّها خطرًا.

ب - والقرآن يطالبنا فيقول: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. والأمة ليست مجموعة أفراد متناثرين ولا مجرد جماعة، جاء في تفسير المنار: «والصواب أن الأمة أخص من الجماعة، فهي الجماعة المؤلفة من أفراد لهم رابطة تضمّمهم ووحدة يكونون بها كالأعضاء في بنية الشخص».

ج - والقاعدة الشرعية تقرر: «أنّ ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب»، وإقامة مجتمع إسلامي تحكمه عقيدة الإسلام وشريعته، أمر واجب، ولا سبيل إلى تحقيق هذا الواجب إلّا بجماعة وأمة.

د - والواقع يرينا أنّ المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، وأنّ جهود الأفراد مهما توافر لها من إخلاص، لا تستطيع أن تؤثر التأثير المطلوب لتحقيق الهدف المنشود؛ لأنّها ضعيفة الطاقة، محدودة المدى، وقيّة التأثير. وقد يكون الأفراد كثيرين، ولكنّ تعدّد الاتجاهات، واختلاف المسالك، وفقدان الربط والتنسيق بين العاملين، يبعثر الجهود ويضعف من تأثيرها. أما العمل الجماعي، فيضم الجهود بعضها إلى بعض، وينسّق بينها، ويوجهها إلى خدمة الهدف المقصود، ويجعل من اللبنة الضعيفة بمفردها بنياناً مرصوفاً يشدّ بعضه بعضاً.

هـ - وإذا نظرنا إلى القوى المناوئة للإسلام - على اختلاف أسمائها وأهدافها ووسائلها - وجدناهم يعملون في صورة جماعات وتكتلات وأحزاب وجبهات، ولا يُقبل - في ميزان الشرع ولا العقل - أن يُقابل الجهد الجماعي المنظم، بجهود فردية مبعثرة، وإنّما يُقابل التكتل

بتكتل مثله أو أقوى منه، ويُقابَل التنظيم بالتنظيم، كما قال أبو بكر لخالد: حاربهم بمثل ما يحاربونك به، السيف بالسيف، والرمح بالرمح، والنبل بالنبل^(١).

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]. أي: إن لم يوال بعضهم بعضاً، وينصر بعضهم بعضاً، كما يفعل الكفار، تحدث الفتنة والفساد، لا تحادهم وتفرقكم وتناصرهم وتخاذلكم.

ضرورة التنظيم:

ولا بدّ للعمل الإسلامي المثمر من التنظيم، فلا يكفي أن يكون جماعياً حتّى يكون منظماً، بل لا يكون جماعياً حقيقة إلا بتنظيم. والتنظيم يعني وجود قيادة مسؤولة، وجندية مطيعة، ونظام أساسي ينظم العلاقات بين القيادة والجنود، ويحدّد المسؤوليات والواجبات، ويبيّن الأهداف والوسائل، وجميع ما تحتاج إليه الحركة في إدارة أجهزتها. وأكتفي هنا بالحديث عن عنصري القيادة والجندية.

القيادة المسؤولة:

والإسلام يحرص على التنظيم في كلّ شيء، حتّى في الأمور العادية المتكرّرة مثل السفر، وفي الجماعة الصغيرة التي لا يزيد عددها على ثلاثة. ففي الحديث النبوي: «إذا كنتم ثلاثة فأمرّوا أحدكم»^(٢). وهذا رمز

(١) انظر: تفسير المنار (٢٠٤/٥)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

(٢) رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٩)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٤٨): حسن صحيح. عن أبي هريرة، ولفظه: «إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم».

إلى التزام التنظيم فيما هو أعظم وأكبر من الرفقة في السفر، وفيما هو أكثر عددًا وأرفع شأنًا من ثلاثة من المسافرين.

متى تكون القيادة شرعية؟

ولا تكون القيادة شرعية حقًا إلا إذا جاءت نتيجة الاختيار الحر والبيعة الصحيحة، لا بالضغط ولا بالمناورات.

والأصل في القيادة أن تكون فردية، فهذا هو الموافق لظاهر النصوص والسوابق الإسلامية، وهو الذي يجعل للقيادة سرعة الحركة، والقدرة على تصريف الأمور.

ولكن لا مانع في بعض الظروف من وجود قيادة جماعية، خروجًا من خلاف واقع، أو تفاديًا لنزاع يُتوقع، أو ترقبًا لقائد قوي، أو نحو ذلك من الاعتبارات، التي قد توجبها الضرورات، فتقدّر بقدرها، ولا داعي للانفعالات والتشنجات ضد القيادة الجماعية، إذا اقتضتها المصلحة في بعض الأحيان. فقد أجاز الفقه الإسلامي إقرار إمامة غير المجتهد، بل إمامة الفاسق، وإمامة المتغلب إذا كان من وراء الإقرار مصلحة أكبر، وخيف من جرّاء الرفض مفسدة أعظم. وحيث تتحقق المصلحة فثمّ شرع الله.

والقيادة الشرعية هي التي تتخذ الشورى قاعدة لها فيما ليس فيه نصّ ثابت صريح ملزم لا معارض له، وفيما له طبيعة الأمر العام الذي يهم جميع الناس أو جمهورهم، وهو الذي جاء فيه قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. وفي سورة آل عمران: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آية: ١٥٩].

وهي التي تنزل عن رأيها إلى رأي الأكثرية من أنصارها ورجالها، وإن خالف في ذلك مَنْ خالف من الفقهاء قديماً ومن الدعاة حديثاً، فالرأي الأرجح الذي يطمئن إليه القلب: أنَّ الشورى ملزمة لأسباب واعتبارات أظهرها:

١ - إنَّ هذا يتفق مع ما قرَّره فقهاء الأمة من تسمية أعضاء شورى المسلمين «أهل الحل والعقد» فإذا كان رأيهم غير ملزم، ويمكن أن يُضرب به عرض الحائط، فماذا يحلُّون ويعقدون؟!

وقد فسَّر «أولوا الأمر» في قوله تعالى: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١) [النساء: ٥٩]. بهؤلاء، فهم الذين يختارون الحاكم أو الأمير، وهم الذين يراقبونه، وهم الذين يعزلونه، إلخ.

٢ - ما فعله النبي ﷺ في غزوة أحد من الخروج إلى المشركين، نزولاً على رأي الأغلبية المتحمسة، وما فعله عمر في قضية الستة أصحاب الشورى من التزام رأي الأكثرية العديدة، واعتبار عبد الله بن عمر مرجحاً، إذا اختلفوا إلى ثلاثة وثلاثة إلخ، وإقرار الصحابة ذلك، كلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ الشورى ملزمة، وأنَّ رأي الأغلبية معتبر.

٣ - ما ذكره ابن كثير في تفسيره نقلاً عن ابن مردويه عن عليٍّ مرفوعاً في تفسير العزم في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. قال: «العزم مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم»^(٢).

(١) انظر: تفسير الرازي (١١٣/١٠)، الآية (٥٩) من سورة النساء، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ، وتفسير النيسابوري (٤٣٥/٢)، تحقيق زكريا عميرات، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ، وتفسير المنار (١٤٨/٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١٥٠/٢)، تحقيق سامي سلامة، نشر دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٤ - إنَّ الاستشارة من غير التزام برأي المشيرين، ولو كانوا جمهور الأمة أو أهل الحل والعقد فيها، يجعل الشورى شبه «مسرحة» يضحك الحاكم المتسلط بها على الناس ثمَّ ينفذ ما في رأسه هو!

٥ - إنَّ تاريخ الإسلام في الماضي البعيد والحاضر القريب، ينطق بأنَّ الاستبداد بالرأي هو الذي قوّض دعائم القوّة والخير في حياة المسلمين، وجرّأ الطغاة على أنْ يعبثوا بمقدرات الأمة كما يشاؤون، دون أنْ يخشوا شيئاً، أو تُوجّه إليهم كلمة؛ لأنّهم غير ملزمين بمشورة أحد أو رأيه!

٦ - إنَّ الإنسان بطبيعته ظلم جهول، ورأي الفرد لا يؤمن انحرافه، لغلبة الهوى فيظلم، أو غلبة الجهل فيضل، ولهذا كان رأي الاثنين أقرب إلى الصواب، وإلى العدل والعلم من رأي الواحد، وإن كان الخطأ من الجميع محتملاً.

٧ - إنَّ الأغلبية التي تشير بالرأي تتحمل مسؤوليته، وتتقبل نتائجها أيّاً كانت، وهذا ما يجعل الأمة شريكة الحاكم، في الصواب والخطأ، والخير والشر، ويغرس فيها معاني القوّة والكرامة والإحساس بالذات، ويدربها على أنْ تقول «لا» بملء فيها، وتلزم بها.

٨ - إنَّ الالتزام بشورى الأغلبية وإنْ كان فيه خلاف، ينبغي أنْ يكون موضع اتفاق اليوم إذا تراضت عليه جماعة ما، وتشارطوا على الأخذ بهذا الرأي، فهنا يرتفع الخلاف، ويصبح واجباً على الجميع أنْ ينفذوه؛ لأنّه نوع من الوفاء بالعهود التي أمر الله برعايتها، وفي الحديث: «المسلمون عند شروطهم»^(١).

(١) علّقه البخاري بصيغة الجزم قبل الحديث (٢٢٧٤)، ووصله الترمذي في الأحكام (١٣٥٢)، وقال: حسن صحيح. وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (١٥٨٨) بعد أن ذكر تصحيح =

الجُنْدِيَّةُ المطيعة:

والجُنْدِيَّةُ الَّتِي نَعْنِيهَا هِيَ الَّتِي تَنْفُذُ مَا تَوْمَرُ بِهِ، مُلتزمة طاعة القيادة في اليُسْر والعُسْر، والمنشط والمكره متنازلة عن رأيها الفردي لرأي الجماعة. ما لم يكن معصية بيقين، فلا طاعة حينئذٍ لمخلوق في معصية الخالق.

وإنما قلنا «معصية بيقين» لأنَّ هناك أمورًا مختلفًا فيها بين الحلِّ والحُرمة، وفيها أكثر من رأي فلا يجوز للفرد أن يتصلَّب فيها، ويتمسَّك برأيه الشخصي إذا ألزمتَه الجماعة بغيره.

هَبْ أَنْ الحركة طلبت إلى شاب من أبنائها ألا يعفي لحيته؛ لأنَّه في موقع ترى من المصلحة للدعوة الَّتِي يحملها ألا يظهر بهذا المظهر المميز الَّذِي يجلب عليه شرًّا، أو يعوقه عن الإنتاج للحركة، أو يُسلِّط عليه أضواء قد تضر به وبدعوته، أو غير ذلك. وفقه الحركة في ذلك أنَّ هناك من العلماء مَنْ قال بكراهة حلق اللحية، ومنهم - وهم الأكثر - مَنْ قال بحُرْمته، فإذا أخذت برأي مَنْ يقول بالكراهة فقط، فإنَّ الكراهة تزول بأدنى حاجة، فكيف إذا كانت هذه الحاجة مصلحة الدعوة والجماعة؟

وقد يكون الأمر حرامًا في ظاهره، ولكن يضطر الإنسان إليه، تفاديًا للوقوع في محرَّم أكبر، وارتكابًا لأخفِّ الضررين، وأهون الشرين.

= الترمذي: وإه بمرة؛ بسبب كثير (ابن عبد الله). وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٥١/٤): وكثير بن عبد الله، ضعيف عند الأكثر، لكن البخاري ومن تبعه كالترمذي وابن خزيمة يقيون أمره. وقال في بلوغ المرام (٨٧٦) بعد أن ذكر كلام الترمذي: وأنكروا عليه... وكأنه اعتبره بكثرة طرقه. وصحَّحه الألباني في غاية المرام (٣٣٤)، عن عمرو بن عوف المزني.

اضطرت يوماً إحدى الجماعات الإسلامية المحافظة أن توصي بانتخاب المرأة مرشحة لرئاسة الجمهورية، مع ما في ذلك من مخالفة للحديث: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»^(١). ولكنها لجأت إلى ذلك لتُسقط في الانتخاب طاغية من الرجال، تخشى شره على البلد، وعلى الإسلام والمسلمين. وانتخاب المرأة للرئاسة العامة حرام، وانتخاب الطاغية المتجبر لها حرام أيضاً. ولكن المرأة الضعيفة أقل ضرراً، وأهون شراً من الرجل الطاغية، وأدنى ما في الأمر أن التخلص منها أسهل وأيسر، والتخلص من الطاغية من العسر والصعوبة بمكان. ولكن الذين يأخذون الأمور بدون تعمق وتأمل أنكروا على الجماعة الإسلامية موقفها، وشنعوا بذلك عليها، مستغلين عواطف الدهماء من المسلمين الذين لا يقدرّون على الموازنة بين المصالح والمفاسد.

ضرورة التخطيط:

ومعنى التخطيط: ألا تدع الحركة نفسها للظروف والمصادفات تُسيّرُها سيراً عشوائياً اعتباطياً، تعمل ما لا تريده، وتريد ما لا تعمله، وتُدفع دفْعاً إلى السير في غير طريقها، وإنّما يجب أن تسير في خط واضح المعالم، محدّد المراحل، بيّن الأهداف، معلوم الوسائل.

وليس هذا من التهجم على الغيب، أو التألّي على الله، أو المعارضة للقدّر، كما قد يفكر بعض عوام المتدينين، فإنّ الإسلام يدعو الإنسان إلى أن يأخذ من يومه لغده، ومن شبابه لهرمه، ومن صحته لسقمه، ومن فراغه لشغله. وهذا كله نظرة إلى المستقبل.

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٤٢٥)، عن أبي بكرة.

وقد قصّ علينا القرآن قصة يوسف عليه السلام ، وفيها تخطيط اقتصادي تمويني لمدة خمس عشرة سنة، قام عليه النبي الكريم يوسف تفكيراً وتنفيذاً، ولا يضيرنا أنّ مصدر هذه الخطة من إلهام الله ليوسف وتعليمه إياه من تأويل الأحاديث والرؤى، فهذا لا تأثير له في الحكم المستنبط من القصة، وهو شرعيّة التخطيط للمستقبل، الذي ذكره القرآن في معرض التمدح والامتنان.

والمأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم يرى أنّ مراحلها وخطواتها لم تمض ارتجالاً، ولم تتم اعتباراً، بل تمتّ بعد تفكير وتدبير يسدّده الوحي عند الاقتضاء.

فإذا نظرنا إلى هجرة أصحابه إلى الحبشة أو هجرتهم وهجرته إلى المدينة وجدنا خطة واضحة وراء ذلك، لا يصعب على الدارس استبانته. وإلا فلماذا أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة خاصّة؟ لماذا لم يختار لهم بلداً قريباً أو أرضاً عربيّة؟ ولماذا أذن للبعض بالهجرة دون البعض؟ ولماذا لم يلحق بهم مهاجراً إلى الحبشة؟ إنّ الجواب عن هذا كله يدلّ على أنّ الأمر لم يكن مرتجلاً، بل وراءه هدف وخطة.

والتخطيط يعني التفكير الهادئ، والدراسة المستوعبة لكلّ عمل يريد الإنسان أن يقدم عليه حتّى يمضي فيه على هدىً وبيّنة، ويمشي على صراطٍ مستقيم.

ولا نجد ديناً دعا إلى التفكير كالإسلام، الذي اعتُبر التفكير فيه فريضة وعبادة.

ودعا إلى دراسة كلّ أمر ذي بال يقدم عليه المسلم، ومن هنا جاء الأمر بالشورى والحثّ عليها، ووصف المؤمنين بأنّ أمرهم شورى

بينهم. والفرد المسلم مطالب بأن يستشير في أموره الخاصة حتّى لا يندم، فكيف بالأمور الكبيرة، والشؤون العامّة؟

وطالما سمعنا الشكوى تلو الشكوى من الخطط الجهنّمية المحكمة التي تحاك للإسلام وأمتة ودعاته. وطالما اعتذر أهل الإسلام ورجاله عندما تصيبهم المحن والفتن، أو تأخذ بخناقهم الأزمات والشدائد، بأنّ هذا من مخطّطات أعداء الإسلام؛ فالصهيونيّة تخطط، والشيوعيّة تخطط، والصليبيّة تخطط، والاستعمار بمختلف ألوانه يخطط، حتّى الوثنيّة تخطط، والجميع يخططون لضربنا نحن، وتعويق حركتنا حتّى لا نسير، وإذا سرنا كان سيرنا في غير الطريق الموصول إلى الهدف، وإذا سرنا في الطريق ملؤوه بالحفر والحجارة والمعوقات، حتّى تتحطّم قوانا قبل الوصول إلى ما نريد.

ولكن إلى متى نظل نحن الأمة التي يخطّط عدوّها لضربها فينجح؟ لماذا لا نُخطّط نحن لأنفسنا؟ لماذا لا نُفسد على عدوّنا خطته؟ أليس لنا عقول كما لهم؟ أليست لدينا طاقات وإمكانات قد لا تتوافر كلها لديهم؟! أليس لنا عقيدة تمدنا بالهداية، وتاريخ يمدنا بالقوة، وحضارة تشعرنا بأننا أهل لأن نسود ونقود؟ بلى والله.

إنّ الذي ينقصنا هو جدية التفكير، وجدية العمل، وصدق الاتجاه، وتجميع المواهب والقدرات لتنظر بأناة، وتفكر بهدوء، وتوازن بحكمة، منتفعة بتجارب التاريخ، ومستقرّة لنماذج الواقع، غير متعصبة لقديم، ولا مفتونة بجديد. وحينئذٍ سننتهي لا محالة إلى خير كثير، وتخطيط سليم، على قدر جهد بشر غير معصومين.

عناصر التخطيط المرجو:

والتخطيط الذي نريده للحركة الإسلامية يقتضي تحديد عدة أمور:

١ - تحديد الأهداف التي تسعى الحركة إلى تحقيقها، مرتبة حسب الأولوية، مع وجوب التمييز بين الأهداف الأساسية والأهداف الثانوية، وبين الأهداف القريبة، والأهداف البعيدة، وبين الأهداف المرحلية والأهداف الثابتة.

٢ - تحديد الوسائل إلى هذه الأهداف، سواء أكانت وسائل ثقافية وفكرية، أم وسائل عملية وتربوية، أم وسائل سياسية، أم وسائل عسكرية، أم غير ذلك من الوسائل.

وقد تأخذ بهذه الوسائل كلها، وقد تأخذ ببعضها دون بعض، وقد تأخذ ببعضها في مرحلة دون أخرى.

ويجب - بصفة عامّة - أن يراعى في وضع الوسائل للغايات والأهداف ما يلي:

أ - أن تكون الوسائل مشروعة في نظر الإسلام؛ فالإسلام لا يرى الوصول إلى الحق بطريق الباطل، فإنّ الله طيّب لا يقبل إلاّ طيباً، ونظريّة «الغاية تبرّر الوسيلة» مرفوضة شرعاً.

ب - أن تكون ملائمة لطاقة الحركة، وظروف المجتمع، فمن الوسائل ما لا يُقدر عليه، ومنه ما يُحمد في بيئة دون أخرى.

ج - أن تكون مرنة، قابلة للتطوير والتغيير، عند تغير الظروف الزمنية أو البيئية، فليست الوسائل أبدية.

د - مراعاة التدرُّج فيما يحتاج إلى تدرج، اقتداءً بمنهج التشريع الإسلامي في فرض الفرائض وتحريم المحرَّمات.

هـ - أن تكون واقعية بحيث تضع المعوِّقات والموانع في الحسبان.

٣ - تحديد المراحل: مرحلة التعريف والتبليغ، مرحلة التكوين واستخلاص العناصر، مرحلة الصراع والامتحان، مرحلة النضج والتمحيص، مرحلة الترقب والوصول.

ولست هذه المراحل مرتبة ترتيباً آلياً، كل واحدة تلي الأخرى حتماً، فقد يبدأ التعريف والتكوين في وقت واحد، وقد يتقدّم الثاني عن الأول، وقد يبكر الصراع عن مواعده، وقد يتأخر؛ فالعوامل المتحكّمة في سير الأحداث كثيرة، منها ما يحسبه الناس وما لا يحسبونه. والذين تنبَّؤوا بحتميات معينة - مثل «كارل ماركس» - أخطؤوا الحساب، وكذبهم التاريخ.

٤ - تحديد المواقف: موقف الحركة من الأديان الأخرى، من العقائد اللادينية، من الأحزاب السياسيّة، من الجماعات الدينيّة، من المذاهب الفقهيّة، من الحكومات الوطنيّة، من استخدام القوّة، من القوى العالميّة، من الحركات القوميّة، من الانقلابات العسكريّة، من الانتخابات النيابية، إلخ. على أن يتّسم هذا التحديد بوضوح الرؤية، وسعة الأفق، والبُعد عن المؤثرات العارضة، والتفرقة بين المواقف «الاستراتيجية الثابتة» والمواقف «التكتيكية» المرنة. ولا بدّ أن يتم ذلك كله بعد دراسة فاحصة ومقارنة على أعلى المستويات، وأدق الاختصاصات في الحركة، ولا بأس أن تستعين بكل ذي خبرة في ذلك.

ما لا يدخل في التخطيط:

ولا يدخل في التخطيط ما يراه بعض الناس من تبني أحكام تفصيلية في كل قضية من قضايا الفقه والتشريع، في كل المجالات: السياسية، والاقتصادية، والمالية، والإدارية المدنية والدولية، فإن في هذا تحجير ما وسَّع الله، وإلزام الأمة بما لا يلزمها، وتحكمًا في تقدير أمور لم تحدث بعد، ولا ندري حين تقع، ماذا يكون حجمها وأثرها ووقعها وملاساتها.

كما أنَّ كثيرًا من هذه المسائل تحتاج إلى «اجتهاد جماعي» من أهل الاختصاص الجامعين لشروط الاجتهاد، أما رأي يصدر عن فرد أو اثنين أو ثلاثة لا يُدرى مَنْ هم، ثمَّ تُلْزَم به الأمة، فشيء لا يُقبل، ولهذا رأينا كثيرًا من هذه الآراء المتبنَّاة غاية في الغرابة، وضيق الأفق في النظرة إلى الشرع وإلى الحياة.

وفي مقابل هؤلاء رأي مضاد لهم على طول الخط، يرى أنَّ من العبث مجرد عرض أسس النظام الإسلامي، أو مجرد الإسهام فيما يسمَّى «تطوير الفقه الإسلامي». وحُجَّة هذا الرأي أنَّ الناس يجب أن يؤمنوا أولاً بالإسلام، وبحاكمية الله، فإن فعلوا كان من اليسير تقديم نظام الإسلام، وتشريع الإسلام، عندما يقوم مجتمع الإسلام.

وفي هذا الرأي من الغلو مثل ما في مقابله، ودعوة الناس إلى الإسلام قد تكون بعرض عقيدته، وقد تكون بعرض نظامه للحياة، وبيان ما في العقيدة أو النظام من مزايا وحسنات، تجمع للناس خيري الآخرة والأولى. فجماهير الناس في بلادنا مؤمنة بعقيدة الإسلام، ولكن بعض المثقفين منهم بلبت أفكارهم في صلاحية نظامه للحياة المعاصرة،

والمجتمع المتطور، فمن الرفق بهؤلاء أن نُقدّم لهم النظام مبينين محاسنه، حتّى نطرد الشكّ باليقين.

والخير عندي هو الوسط: أن يقوم علماء الحركة الإسلامية بصفاتهم الشخصية بعرض أسس النظام الإسلامي، بل بتوضيح خطوطه التفصيلية ما استطاعوا، وإعداد دراسات علميّة مستفيضة في كل جانب، ففي ذلك خدمة للحاضر، وتحضير للمستقبل، والأمر يحتاج إلى مجال أوسع لمناقشته. وفي هذه الإشارة ما يكفي الآن.

التخطيط والقدر:

وأودّ أن أنبّه هنا إلى أمر، هو أنّ التخطيط السليم لا يقتضي - بالضرورة - الوصول إلى الهدف.

والتأخر في الوصول إلى الهدف لا يعني خطأ الحركة، أو عدم سلامة التخطيط، أو استقامة الخط، فإنّ المعوّقات كثيرة ومتنوعة، وليس زمامها بيد الإنسان حتّى يذلّلها لإرادته. وإنّما هو بيد القدر الأعلى. ورحم الله شوقي حين قال:

قَدَرْتُ أَشْيَاءَ وَقَدَّرَ غَيْرَهَا قَدَرٌ يَخْطُ مَصَايِرَ الْإِنْسَانِ^(١)!
إنّ على الإنسان أن يعمل، وليس عليه أن ينجح. وقديماً أدرك الناس ذلك فقال شاعرهم:

عَلَيَّ السَّعْيُ فِيمَا فِيهِ نَفْعِي وَلَيْسَ عَلَيَّ إِدْرَاكُ النَّجَاحِ^(٢)

(١) في مسرحيته مجنون ليلي، انظر: أحمد شوقي الأعمال الشعرية الكاملة ص ١٧٤، المسرحيات، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

(٢) من شعر كشاجم. انظر: محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٣٥/١)، نشر شركة دار الأرقم، ط ١، ١٤٢٠هـ.

وليس من الصواب قياس خيرية الأعمال وشرعيتها أو حقّة المناهج وبطلانها، بنتائجها وثمراتها؛ فالعمل خير إذا جاء بنتائج حسنة، وشر إذا لم يجرئ بذلك، والمنهج حق إذا أثمر النجاح وباطل إذا لم يحققه. كما هو مذهب «الذرائع» أو «البرجماتية».

المطلوب من الإنسان أن يبذر الحَبَّ ويرجو الثمار من الربِّ. ليست هذه صوفيّة، ولكنها واقعيّة.

وقد يختار الإنسان الحَبَّ الجيّد، فيبذره في التُّربة الجيدة، ويتولاه بالسقي والتسميد والرعاية المستطاعة، حتّى ينبت وينمو ويتعرعرع، فما يكاد يبدو نوره وزهره حتّى تعصف به الرياح فتحرقه، أو تنزل به الآفات السماويّة فتهلكه. فماذا عسى أن يوجه إلى هذا الزارع من ملام، وليس بيده تصريف الرياح، ولا إبعاد الآفات؟

ولقد لقيتُ أناسًا في الأردن منذ اثنتين وعشرين عامًا يقولون: إنّ الحركة التي لا تنتصر في ثلاثة وعشرين عامًا - وبعضهم قال في ثلاثة عشر عامًا - لا بدّ أن يكون سيرها غلطًا، وطريقها خطأ.

وإنّما قدّروا هذه المدّة لأنّها الزمن الذي عاشته الدعوة المحمدية حتّى تمّ لها النصر والفتح وأقامت دولة الله في الأرض.

وأذكر ممّا قلت لهم يومئذٍ: ما قولكم في سيّدنا نوح ﷺ؟

قالوا: رسول من الله، ومن أولي العزم من الرسل.

قلت: وكم مكث يدعو قومه إلى دعوته؟

قالوا: ألف سنة إلّا خمسين عامًا، كما ذكر القرآن.

قلت: هل نجح في دعوته إذا كانت الدعوة تقاس بالنتائج؟
قالوا: وما آمن معه إلا قليل.

قلت: لقد ذكر القرآن على لسانه قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ - ٧]. يعني أنهم بلغ بهم الإعراض عنه أنهم لا يريدون أن يسمعوا صوته، ولا أن يروا شخصه!

ورغم تطاول القرون، وظهور أجيال بعد أجيال، جاء اللاحق كالسابق في الكفر والفجور، حتى قال نوح لربه: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

هذا مع حُسن دعوته واستمراره عليها، وتلويته لأساليبها وأوقاتها، كما قال القرآن عنه: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ٨ - ١٢].

تُرى هل كان نوح يسير في دعوته على صواب أم على خطأ؟

إنَّ الذي يحكم على الدعوات بنتائجها يُخطئ شيخ المرسلين نوحًا ﷺ، مع أنه بلغ فأحسن، وجادل فأفحم، حتى قال له المشركون يوماً بعد أن غلبوا وانقطعوا: ﴿يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأُنْبَإِ مَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

مهمة الحركة الإسلامية:

لقد أصبح من الضروري إذن أن تقوم في كل بلد إسلامي «حركة إسلامية» واعية شاملة، تحمل عبء الدعوة إلى تطبيق النظام الإسلامي،

وإحياء المجتمع الإسلامي، وتكوين الجيل المحمدي، الذي يمهد السبيل للعودة إلى حكم القرآن ودولة الإسلام.

ولا شك أن حركة كهذه لا بد أن تكون مهمتها ثقيلة وخطيرة، ولا يقوم بها، ويصبر عليها إلا أولو العزم من الرجال الذين باعوا أنفسهم لله، ووهبوا حياتهم لنصرة دينه، غير مباليين بما يصيبهم من نصب أو بلاء في سبيل الله.

إن مهمة الإنسان في الحياة مهمة كبيرة لمن يقدرها حق قدرها؛ لأنها مهمة الخلافة في الأرض والعبادة لله، والعمارة للحياة، وهي مسؤولية ضخمة صوّر القرآن ضخامتها وثقلها حين قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ومهمة الإنسان المسلم أعظم وأضخم من مهمة أي إنسان آخر، فقد ورث المسلم تركات الأنبياء والرسل جميعاً، واختص الله أمة الإسلام بالرسالة الخاتمة، والشرعة العامة الخالدة، وكلفهم - مع تنفيذها والعمل بها - تبليغها ونشرها والدفاع عنها، وهداية العالم إليها؛ لتحقيق بها رحمة الله للعالمين، وإنها لتبعة عظيمة، ومسؤولية ثقيلة، ولا غرو أن خاطب الله صاحب هذه الرسالة بقوله: ﴿إِنَّا سُلِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

ومهمة المسلم الحريص على دينه، الغيور على أمته، في هذا الزمن - زمن الفتن وغلبة الشهوات على الأنفس، والشبهات على العقول، والماديات على الحياة - أصبحت أشد ضخامة، وأعظم ثقلاً، فقد بات القابض على دينه كالقابض على الجمر، وأصبح الدعاة إلى الإسلام الحق غرباء وهم في أوطانهم، وأصبح الدعاة إلى الإلحاد والإباحية والمذاهب المستوردة، يجهرون بدعواتهم غير هيّابين، ولا وجلين،

لأنَّهم مسندون من جهات متعددة، ومن قُوى مختلفة، ظاهرة وخفية، في الداخل والخارج! ولهذا ورد في الحديث: إِنَّ للعامل في مثل هذا الزمن أجر خمسين من العاملين قبله^(١). وذلك لأنَّهم كانوا يجدون على الخير أعوانًا، ولا يجد على الخير أعوانًا.

وكلُّ هذا يجعل مهمّة أية حركة إسلاميّة في عصرنا - الذي تداعت فيه الأمم على الإسلام تداعي الأكلة إلى قصعتها^(٢) - غاية في العظم والخطورة. ويوجب عليها العمل الدائب ليل نهار، والجهاد الدائم في كل ميدان، وسد الثغرات المفتوحة هنا وهناك، واليقظة للأعداء المتربّصين في الخارج، والتنبه للقوى العميلة في الداخل، حتّى تستطيع تحقيق أهدافها، وإحباط مؤامرات خصومها.

متى تنجح الحركة الإسلاميّة؟

وإنّما تنجح الحركة الإسلاميّة في تحقيق الحل الإسلامي، وإقامة المجتمع الإسلامي، واستئناف حياة إسلاميّة. إذا توافر لها أمور ثلاثة:

١ - جيل مسلم:

الأمر الأول: جيل مسلم تقوم الحركة على تكوينه تكوينًا إسلاميًا صحيحًا متكاملًا. يكون هذا الجيل بمثابة الدعائم أو الركائز للمجتمع الإسلامي المنتظر.

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١)، والترمذي في التفسير (٣٠٥٨)، وقال: حديث حسن غريب. وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤)، والحاكم في الرّفاق (٣٢٢/٤)، وصحّحه، ووافقه الذهبي، عن أبي ثعلبه الخشني.

(٢) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وقال مُخرّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٩٥٨)، عن ثوبان.

وإذا كان دعاة الاشتراكية يصرون على أن المجتمع الاشتراكي لا يبنيه إلا الاشتراكيون، فدعاة الإسلام أولى أن يقولوا: إن المجتمع المسلم لا يبنيه إلا المسلمون.

ولهذا لم يقم المجتمع الإسلامي والحكم الإسلامي في المدينة، إلا بعد تكوين الجيل الإسلامي الأول في مكة، وعلى مناكب هؤلاء ومن انضم إليهم من خيار الأنصار قامت الدولة المسلمة.

ولقد سئل أحد الدعاة الإسلاميين يومًا: كيف يتصور قيام حكم إسلامي راشد؟

فأجاب: بأحد طريقين: إمّا أن ينتقل الإيمان إلى قلوب الحاكمين، وإمّا أن ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين.

ولو أن الإيمان يسهل انتقاله إلى قلب الحاكمين بالفعل، لاختصرت الطريق اختصارًا، وكفى الله المؤمنين القتال.

ولكن يبدو أن هذا ليس أكثر من حلم لذيذ، لا يمتُّ إلى الواقع بصلة، فإن من شبَّ على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه. وهؤلاء الحكّام قد شبوا وشاخوا على العلمانيّة، وتعلمذوا صغارًا وكبارًا على الفكر الغربي بشقيّه. فهيئات هيئات أن يولوا وجوههم شطر غيره، ولو كان هذا الغير هو دينهم الذي ورثوه عن آبائهم، والذي ارتضى الله لهم، وارتضوه - نظريًا - لأنفسهم.

فلم يبقَ - إذن - إلا الشق الثاني، وهو: أن ينتقل الحكم إلى أيدي المؤمنين: أيدي الجيل المسلم، الذي آمن بالإسلام عقيدةً وعبادةً وخلُقًا ورابطةً ونظام حياة.



يُشترط في هذا الجيل أن يتميز بعدة صفات:

الأولى: الإيمان العميق بالرسالة، وسمو أهدافها، وسلامة طريقها، وانتصارها. وهذا أساس العمل كله.

الثانية: أخلاق الإيمان من التضحية والإيثار، والصبر والشجاعة والبذل، والإخلاص والصدق، بحيث لا يغريه وعد، ولا يثنيه وعيد، ولا يقعد به شح هالع، ولا جُبْن خالع. وهذا يحتاج إلى تربية مدروسة، طويلة المدى، عميقة الجذور، يقوم عليها رجال «ربانيون».

الثالثة: الوعي الشامل: وعي الرسالة، ووعي الذات، ووعي الموقف. وبهذا يعرف فكرته ورسالته، ويعرف نفسه وموقعه، ويعرف عدوه وصديقه. وهذا يتطلب مددًا دائمًا من التثقيف المركز المتكامل، ما بين شرعي وحركي وسياسي إلخ، بحيث تكون دعوته «على بصيرة» كما أمر الله تعالى.

الرابعة: الترابط الوثيق على هذه الدعوة، ترابطًا يعلو على كل الروابط العنصرية والإقليمية والطبقية والأسرية.

الخامسة: الاستمرار في حمل الدعوة، والعمل الدؤوب على نشرها وكسب الأنصار والجنود لها، بغير كلل ولا ملل ولا يأس ولا توقف، مهما ساءت الظروف. ورحم الله يوسف الصديق الذي لم يمنعه السجن عن نشر دعوته بين السجناء.

السادسة: الانتشار في عامة القطاعات والمجالات: الشعبية والرسمية، والمدنية والعسكرية.

السابعة: أن يضم هذا الجيل عددًا كافيًا من المفكرين والقياديين من ذوي النبوغ والكفاية، وأصحاب المواهب والقدرات العالية في كافة

التخصّصات والمجالات: العلميّة والأدبيّة والنظريّة والعمليّة، يكونون أهلاً لثقة الشعب، والنهوض بعبء بناء المجتمع الجديد.

٢ - قاعدة جماهيرية إسلامية:

والأمر الثاني الذي يجب أن يتوافر للحركة الإسلامية الناجحة: وجود قاعدة جماهيرية لها من كافّة طبقات الشعب. وذلك عن طريق تكوين رأي عام إسلامي يناصر الفكرة الإسلامية، يحبّ دعائها، ويكره أعداءها، ويحرص على انتصارها.

فلا يكفي أبداً أن تربّي الحركة جيلاً مسلماً مخلصاً، لا يحسّ به الشعب، ولا يعرفه ولا يتحمّس له؛ لأنّه في عزلة عنه، يكلمه من بعيد، وينظر إليه من فوق، كأن هذا الشعب لا يتكون من ابن عمه وأخيه، ومن جيرانه وذويه، وفصيلته التي تؤويه، حسبه أن يعيش في خلوته الروحيّة يعبد ربه، أو في خلوته الفكرية يقرأ كتابه، تاركاً الناس يواجهون مشاكلهم وحدهم. مع أن الآخرين من أصحاب العقائد والمذاهب لن يتركوهم. بل سيحاولون أن يكسبوهم إلى جانبهم. ومع أن المفروض أن يكونوا مع الإسلام ودعائه.

لا بدّ إذن من العناية بمشكلات الشعب، وأن ننزل نحن إليه، لا ننتظر صعوده إلينا. ولا بدّ من كسبه إلى جانب الحركة الإسلامية.

وهذا يتطلّب تصحيح الأفهام المغلوطة التي راجت لدى المتعلّمين العصريين من مثل: فصل الدين عن الدولة وعزله عن الحياة، والخلط بين مفاهيم التحرّر والتحلّل، والإيمان بالعلم مقابل الإيمان بالدين، وتصوّر الدين معوقاً للعمل وللحياة والاستمتاع

بالطبيبات، وإشاعة الماركسيين أن الدين مخدّر الشعوب، إلى غير ذلك من الأفكار والمفاهيم التي تقف حجر عثرة في طريق الدعاة إلى حكم الإسلام.

ومما يساعد الحركة الإسلامية على تكوين هذه القاعدة الجماهيرية المتغلغلة في قُوى الشعب المختلفة، أن شعوبنا لا زالت - بحمد الله - مع الإسلام، حتّى الذي ينحرف عن الإسلام بسلوكه ومعاملته، تجده مع الإسلام بعاطفته وقلبه، ما زالت كلمة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» تلمس في أعماق المسلم وترًا حسّاسًا، وتهزّ فؤاده هزًّا عميقًا.

وما زالت آيات القرآن الكريم هي التي يرتعش لها كيان المسلم كله، كلّما خاطبه بها داعية مخلص.

٣ - التغلب على المعوقات:

الأمر الثالث الذي يجب أن يتوافر لنجاح الحركة الإسلامية: هو التغلب على المعوّقات والموانع التي تقف حائلًا بينها وبين الوصول إلى أهدافها وغاياتها بكل سبيل. إذ لا يكفي لقيام أمر ما أن تتحقق موجباته، بل لا بدّ أن تنتفي معوّقاته أيضًا، أو كما يقول أهل الأصول والفقه: وجود المقتضي وانتفاء المانع.

ولا ريب أن هناك معوقات شتى تعترض طريق الحركة الإسلامية، لا بدّ من مراعاتها ودراستها ومحاولة التغلب عليها.

معوقات من جهة الشعب:

هناك معوقات شعبية نفسية تعزل مجموعة من الجماهير المسلمة عن الحركة الإسلامية ينبغي أن نضعها في الاعتبار.

من أهم هذه المعوقات:

١ - الجهل بالإسلام، وبالمدعوات المنافية للإسلام، وبحقيقة الحركة الإسلامية.

٢ - اليأس من انتصار الحركة الإسلامية، والاعتقاد بأنها حركة لا مستقبل لها.

٣ - الخوف من الاضطهاد المتكرر، والضربات الوحشية المتلاحقة للأعضاء والمناصرين، حتّى المساندين من بعيد.

وعمل الحركة هنا هو مقاومة الجهل بالعلم ونشر الوعي الصحيح. ومقاومة اليأس ببيتّ الأمل، وزرع الرجاء، مع التنبيه على ضرورة العمل ووجوب السعي والمحاولة أيّا كانت النتائج. ومقاومة الخوف بتقوية الإيمان، الذي يهوّن كل تضحية في سبيل الله.

معوقات ماديّة من جهة القوى المناوئة:

وهناك معوقات ماديّة تتمثل في القوى المناوئة للعودة إلى حكم الإسلام، والتي تعمل بكل قوّة، وبأية وسيلة، لإجهاض أية محاولة جادة وصادقة لتحقيق هذه العودة المفروضة على المسلمين بحكم إيمانهم. من هذه المعوقات:

أ - وجود نفوذ أجنبي قوي، وخصوصاً إذا كان يتمثل في وجود عسكري؛ فهذا لا يسمح قط بانتصار الحركة الإسلامية، مهما كلفه ذلك من تضحيات، ولهذا كان تحرير البلد من السيطرة الأجنبية شرطاً لازماً لتحقيق الحل الإسلامي.

ب - وجود حكم عسكري علماني متمكن؛ فهو أيضًا لا يسمح للحركة الإسلامية بالوجود، فضلًا عن أن يسمح لها بالانتصار. ولهذا كان التحرر من طغيان الحكم العسكري المتسلط ضرورة إسلامية ووطنية، وشرطًا لنجاح الحركة الإسلامية.

ج - وجود ظروف إقليمية أو دولية معاكسة، وخصوصًا أننا نعلم أن القوى العالمية المتصارعة فيما بينها إلى حدّ الاقتتال، على أتم الاستعداد لأن تتصالح وتتصافح، وتتساند وتتعاقد، إذا كان العدو هو الإسلام، وكان الخطر من جهة الإسلام، وصدق ما قاله فقهاؤنا: الكفر كله ملّة واحدة. وصدق الله قبل ذلك حين قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

معوقات من داخل الحركة نفسها:

وهناك معوقات أخرى لعلّها أشدّ خطرًا من تلك المعوقات التي أشرنا إليها، ونعني بها: المعوقات التي تبرز من داخل الحركة نفسها. ومنها:

أ - اختلاف الكلمة:

فإنّ من أهم مميزات الجماعة المسلمة قوّة الرابطة بين أبنائها؛ لأنّها تقوم على وحدة العقيدة، ووحدة المفاهيم، ووحدة الهدف، ووحدة التنظيم، بجانب المعنى الروحي الذي ينبع من الإيمان، ويجعل كلّ أخ عند أخيه بمنزلة نفسه، فإذا انعدمت هذه الميزة فقد فتحت على نفسها باب وهن وضعف لا يسده شيء.

فتصبح الحركة الواحدة المنسجمة في الظاهر، مجموعة حركات متباينة في الواقع، نتيجة لاختلاف المفاهيم، أو اختلاف الولاءات، أو اختلاف المطامع، أو غير ذلك، ممَّا يُصدِّع ببيان الوحدة الفكرية والشعورية، ثمَّ السلوكية والتنظيمية في الحركة، وهذا هو سبيل الفشل، وبداية الانهيار، ومفتاح الطريق للعدو ليتسلَّل ويضرب من الداخل وهو آمن. وهذا ما حذَّر منه الله ورسوله: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقد كان مؤسس الحركة الإسلامية الحديثة الشهيد حسن البنا كثير التحذير لأتباعه من الاختلاف والتفرق. وممَّا كان يقوله لأتباعه:

«أنا لا أخشى عليكم من أعدائكم، بل أخشى عليكم من أنفسكم. لا أخشى عليكم الإنجليز ولا الأمريكان ولا الروس ولا غيرهم، وإنما أخشى عليكم أمرين:

١ - أن تتخلَّوا عن الله تعالى، فيتخلَّى الله عنكم.

٢ - أو أن تتفرَّقوا فيما بينكم، فلا تجتمعوا إلَّا بعد فوات الفرصة».

ب - حبُّ الدنيا:

وهو في الدعوات الربَّانية رأس كلِّ خطيئة، وأصل كلِّ مفسدة، فإنَّ الأصل في قيام الحركة أنَّها عبادة لله، وأداء لفريضة الجهاد والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعبادة يجب أن تكون خالصة لله من شوائب الشرك والوثنية: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. والوثنية ليست عبادة صنم من الحجر أو غيره فحسب، بل عابد الدينار أو الدرهم عابد وثن، وعابد متاع الدنيا وزينتها عابد وثن.

ومن خلال حُبِّ الدنيا تفتَح منافذ واسعة لشياطين الجن وشياطين الإنس ينفذون منها إلى قلوب الدعاة، فيسيل لعابهم إلى المناصب، وتتطَلَّع نفوسهم إلى المكاسب، وهذا مكن الداء، وسرُّ الوهن الَّذي يضعف الأفراد والأمم وهو ما نبّه عليه النبي ﷺ حين حذّر من الوهن فسئل: ما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حُبُّ الدنيا وكرهية الموت»^(١).

جـ - حُبُّ الذات:

وهو فرع عن حُبِّ الدنيا، أو جزء منه. ونعني به: أن يحرص عضو الحركة على البروز والظهور، وألا يعمل إلا في الصدارة والصفوف الأولى، وأن يجري وراء بريق الشهرة والبحث عن الأضواء، وإذا أتيح له مكان بارز يومًا، استقتل للبقاء فيه، وإزاحة كل منافس من طريقه، وتحطيم كل شخصيّة يخشى أن تزاحمه، ولهذا قيل: حُبُّ الظهور كم قصم الظهور. وهذه هي آفة الآفات في كثير من البارزين من رجال الدعوات الربّانيّة حتّى الصُّوماء القوّام منهم: أن يذكروا ذواتهم وينسوا ربهم، مع إعلانهم المتكرر بأنّ الله هو الغاية وأنّ رضوانه هو المنتهى. ومع علمهم بأنّ مقامهم عند الله لا يُنال بالشهرة ولا بالمنصب فـ «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه»^(٢). وإنّما تنتصر الرسائل بالجنود المجهولين الذين جاء فيهم الحديث الشريف: «إنّ الله يحبُّ الأبرار الأتقياء الأخفاء، الَّذي إذا حضروا لم يُعرفوا، وإذا غابوا لم يُفتقدوا»^(٣)، والحديث الصحيح الآخر:

(١) سبق تخريجه ص ٢٥٥.

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٥٤)، وقال: حسن. وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٦٢٤٨)، عن أنس.

(٣) رواه ابن ماجه في الفتن (٣٩٨٩)، والحاكم في الإيمان (٤/١) وقال: صحيح لا علة له. وفي =

«طوبى لعبدٍ آخذٍ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرة قدماه،
إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في
الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»^(١). يعني أنه مغمور
خامل الذكر، لا يُشار إليه بالأصابع، ولا يقيم المجتمع له وزناً.

إنَّ حبَّ الذات حينما يتمكن ويسيطر على النفس يصبح عبادة
للذات، أو عبادة للهوى، والهوى شرُّ إله عبْد في الأرض.

د - العزلة عن قُوى الشعب:

ونعني به أن «تتوقع» الحركة، وتنغلق على نفسها، تقيم بينها وبين
النَّاس حجاباً أو حُجَباً، فبدل أن تكون حركة للمسلمين جميعاً، تغدو
حركة فئة محدودة من الفئات. أشبه ما تكون بفرقة دينية، لها مذهبها
ووجهتها الخاصة، في حين أنَّها تعبّر عن الإسلام العام، إسلام القرآن
والسُّنة، وعن أُمَّة الإسلام في كلِّ دولة، وقد تعين الحركة على نفسها
وزيادة عزلتها بأمور، منها:

١ - نزعة الاستعلاء على الجماهير المسلمة، ومخاطبتها من علٍّ،
باعتبارها ضالة هالكة مع ما جاء في الحديث الصحيح: «إذا رأيتَ
الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكهم»^(٢). بضم الكاف، أي: أقربهم

= الرقاق (٣٢٨/٤) وصحَّحه، وأما في زوائد ابن ماجه (١٤١٠)، فضعَّفه بابن لهيعة، مع أنَّ
الراوي عنه هو عبد الله بن وهب، والتحقيق: أنَّه إذا روى عنه أحد العبادلة - ومنهم ابن
وهب - فحديثه مقبول، ويصححه كثير من المحققين. وكان الأولى أن يضعف في سند
ابن ماجه بعيسى بن عبد الرحمن فهو متروك. وسند الحاكم في الموضع الأول ليس فيه ابن
لهيعة ولا عيسى، فهو العمدة.

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٣)، وأحمد (٧٦٨٥)، عن أبي هريرة.

هلاكا، أو أشدهم هلاكا. وفي رواية: «أهلكهم» - بفتح الكاف - أي: كان سببا في هلاكهم.

٢ - ومن ذلك اعتبار الشعوب قطعاناً تساق بالعصا، لا أناسيُّ تُساس بالعقل؛ لأنَّهم يصفقون لكل حاكم! فهذا ليس صحيحاً على إطلاقه.

٣ - الشعور باليأس من استجابتها وتأييدها، مع أنَّ الخير كامن في طبيعة شعوبنا، والتدين أصيل في فطرتها.

٤ - رميها بالفسوق أو اتَّهامها بالكفر، مع تحذير النبي ﷺ من ذلك. فإنَّ الأصل هو حمل حال المسلم على الصلاح، وتحسين الظنِّ به ما وُجد إلى ذلك سبيل، أيُّ سبيل.

٥ - مطالبة العامة من النَّاس بما يطالب به الخواص من حملة الدعوة، ومحاسبتهم على ذلك مع ما يجب مراعاته من الفرق بين أولئك وهؤلاء؛ فصاحب الدعوة يُطلب منه ما لا يُطلب من سائر الناس، من اجتناب الصغائر، بل اتقاء الشبهات، والبُعد عن المكروهات، والحرص على السنن والآداب ومظاهر المروءة؛ لأنَّه موضع قدوة ونظر من الناس. أمَّا جمهور النَّاس فينبغي التسامح معهم في كثير من ذلك، حتَّى يكفينا منهم أن يجتنبوا الكبائر، ويؤدُّوا الفرائض.

حتى بعض مرتكبي الكبائر قد يكون ذا عاطفة دينية حيَّة، فهو يحبُّ الإسلام وإنَّ لم يعمل به، وينتصر لدعائه وإنَّ لم ينضم إليهم. فهذا يُستفاد منه ويتألف قلبه إذا رُجي من ورائه خير. وقد قال النبي ﷺ لمن لعن رجلاً من الصحابة تكرر شربه للخمر: «لا تلعنه، فإنَّه يحبُّ الله ورسوله»^(١)!

(١) رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٠)، عن عمر بن الخطاب. بلفظ: «لا تلعنه»، فوالله ما علمت إنَّه يحبُّ الله ورسوله».

إنَّ عزل الحركة الإسلامية عن الشعب واستعلاءها عليه خطأ وخطر معاً؛ إذ يعني هذا أنَّ جماهير الشعب التي يجب أنْ تساند الحركة وتناصرها - لأنَّها تعبّر عن آمالها، وعقائدها، وتدافع عن دينها ودنياها معاً - تغدو في موضع الخصم للحركة، والمناوئ لها، وهذا خذلان عظيم.

هـ - الجمود:

وأعني بالجمود: تحجّر الحركة على أسلوب معيّن في الدعوة، أو طريقة معينة في العمل، أو شكل معيّن في التنظيم، لا ترضى عنه بدلاً، ولا تبغي عنه حولاً، وإن ظهر ضعف أثره، أو ثبت فشله، أو حالت الحوائل القاهرة دون الانتفاع به.

ومثل ذلك الجمود على لون واحد من التفكير، لا تحيد عنه، ولا تقبل غيره، بل ترفض مجرّد المناقشة فيه، أو حوله، وكل حوار من هذا النوع يُقاوم ويوصف بالهرطقة أو الخروج عن الصف، أو إثارة الفتنة، أو غير ذلك من الألفاظ التي تشيع في جوّ الجمود.

ومعنى هذا هو تحريم كل لون من ألوان الاجتهاد، وإغلاق بابه، وإيجاب «التقليد» و«التمذهب» في الحركة كالذين أوجبوا التقليد والتمذهب في الفقه والجمود على الأقوال المنصوص عليها، والأحكام المحفوظة، وربما كانت هذه الأقوال والأحكام مناسبة لزمانها وبيئتها، غير مناسبة لزمان آخر، وبيئة أخرى.

إنَّ الجمود أبرز دلائل الموت، والحركة من أظهر علامات الحياة، هذا واضح في الكائنات الحيّة عموماً، وفي الإنسان خصوصاً.

والجماعة الحيّة كالفرد الحي، لا تستطيع أن تثبت حيويتها إلا بقدرتها على الحركة والتجدد أمام الأحداث، فإذا سُدَّ عليها طريق شَقَّتْ لنفسها طريقاً آخر أو طُرُقاً، وإذا أُغلق في وجهها باب فتحت لنفسها باباً آخر أو أبواباً.

قد تُغلق دور الجماعة الرسميّة ولكن لن تُغلق أمامها أبواب المساجد، ولو مُنِعَت الحديث العام في المسجد، فلن يستطيع أحد منعها من الحديث الفردي إلى الناس.

وقد تُصدّر صحيفة الحركة، أو تُمنع أصلاً من إصدارها، ولكن رجالها يستطيعون الكتابة في صحف الآخرين. ولو مُنِعَ أفرادها من الكتابة في الصحف، فلن يمنعوا تأليف الكتب والرسائل، ولو مُنِعوا ذلك لكان عليهم أن يفكروا في غيره وغيره.

وهكذا إذا توقّف العمل بأسلوب وجب البحث عن أسلوب غيره، وإذا تعرّس العمل في مجال وجب فتح مجال غيره، ولو بالهجرة إلى مكان آخر. وإذا اقتضت الظروف تجميد نشاط معيّن أو تقليصه، لأنّ ضرره أكبر من نفعه، وخسائره أكثر من مكاسبه، أو لأنّ جوانب أخرى من النشاط أكثر نفعاً، أو أحوج إلى التركيز، فلا بأس بذلك، ولا حَرَج فيه.

وإذا اقتضت الظروف كذلك التخلّي عن عنوان معيّن أو اسم خاص، فلا مانع منه، إذا كان من ورائه مصلحة الدعوة، وخدمة أهدافها.

إنّ النبي ﷺ قِيلَ في معاهدة الحُدَيْيَّة أن يمحو: «بسم الله الرحمن الرحيم» ليُكتب في موضعها: «باسمك اللهم»، ويمحو: «محمد رسول الله» ليُكتب بدلها «محمّد بن عبد الله»^(١)؛ لأنّ محو هذه العبارات

(١) رواه البخاري في الشروط (٢٧٣١) عن المسور بن مخرمة، ومروان.

على ورقة لا يمحو البسمة من مصاحف المسلمين، ولا من صدور الحفاظ، ولا ألسنة القراء، وكذلك رسالة محمد، سيظل يشهد بها الألف والملايين في الأذان والإقامة والصلاة.

إنَّ المرونة في الوسائل والأساليب والشكليات دليل الحيوية، وخصوبة التفكير، وسعة الأفق، وسماحة النفس، وهي التي تغيب الكفار، وتحير الخصوم، وقديماً قال الشاعر:

الْبَسْ لِكُلِّ حَالَةٍ لُبُوسَهَا إِمَّا نَعِيمَهَا وَإِمَّا بُوسَهَا^(١)!

أما الشيء الذي نُصِرُ عليه، فهو «الثبات» على مبادئ الإسلام الأساسية وقيمه العليا، وأهدافه الكبرى للحياة وللإنسان، وإن سَمِيَ بعض الناس هذا «جموداً» فنعم الجمود هو، ولا يضرُّنا الأسماء متى وضحت المسميات.

إنَّ الاستمساك بالحق، والثبات عليه، والإصرار على نصرته، ورفض التهاون فيه أو التنازل عنه أو المساومة عليه، ليس جموداً ولا تعصباً، بل هو مقتضى الإيمان والإسلام، وإنَّما الجمود والتعصب حقاً هو التعصب للأشكال لا للحقائق، وللأشخاص لا للمبادئ، وللأسماء لا للمسميات. الجمود القاتل هو التحجُّر الذي ذكرناه، ووقف الاجتهاد في تطوير المناهج، وتجديد الأساليب، وإبقاء كلِّ قديم على قدمه، لا لشيء إلاَّ لأنَّه قديم، وإن تغيَّرت الأوضاع، وتبدَّلت الظروف، وتطوَّرت الأحوال. مع أنَّ المناهج والوسائل يجب أن تليّن للزمن، وتستجيب لمقتضيات التطور، ما دام ذلك في إطار النصوص المحكمة والقواعد العامة للإسلام.

(١) من شعر: بَيْهَسَ الفزاري. انظر: الأمثال للهاشمي (٣٩/١)، نشر دار سعد الدين، دمشق،

إنَّ العالم يتغيَّر، والحياة تتطوَّر، وليس كل ما كان ملائمًا بالأمس يلائم اليوم، فقد كان الحصان أسرع وسائل المواصلات بالأمس، فهل يجوز الاعتماد عليه اليوم في عصر الصاروخ ومراكب الفضاء؟!

ضعف التنظيم والتخطيط:

ونعني به: ضعف الصلة بين القيادة والجنود، فلا تعرف القيادة في القمة ماذا يعتمل في أنفس الجمهور في القاعدة، ولا تعرف القاعدة ماذا عند القيادة من أفكار وأخبار ومواقف، إمَّا لضعف الإرسال في القيادة، أو لعجز الاستقبال في القاعدة.

وقد تكون الصلة قائمة، وقد تصل الأفكار والمعلومات أولاً بأول، ولكنَّ الثقة غير متوافرة، وضعف الثقة يخلُّ بمبدأ الالتزام بالسمع والطاعة في المنشط والمكره، ولا تنجح حركة، ما لم يستمر أفرادها على الالتزام بهذا المبدأ، مستعدِّين لتنفيذ الأمر ولو كان مخالفًا لرأيهم في سبيل مصلحة الجماعة الكبرى.

ومثل ذلك ضعف التخطيط للمستقبل، وغلبة الارتجال، وترك الأمور تجري في أعنتها، على طريقة «الجبريين» الذين يرون الإنسان مُسَيَّرًا لا مُخَيَّرًا، وما هو إلا كريشة في مهبِّ الريح، تقلبها كيف تشاء، أو طريقة «الأنيين» الذين يستمتعون بالحاضر، دون اعتبار بالماضي، ولا تأهَّب للمستقبل، على حدِّ ما قال الشاعر:

مَا مَضَى فَاتَ وَالْمُؤَمَّلَ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا^(١)!

(١) من شعر عثمان بن إبراهيم العمري. انظر: الكشكول لبهاء الدين العاملي (٢/٢٨٤)، نشر دار

الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

فقدان الروح العلميّة:

وللروح العلميّة سمات أبرزها:

١ - النظرة الموضوعية إلى المواقف والأشياء والأقوال والأعمال، بغضّ النظر عن الأشخاص، كما قال عليّ بن أبي طالب: «لا تعرف الحقّ بالرجال، اعرف الحقّ تعرف أهله»^(١).

٢ - احترام الاختصاصات كما قال القرآن: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ٧]. ﴿فَسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]. فللدين أهله، وللإقتصاد أهله، وللعسكريّة أهلها، ولكلّ فنّ رجاله وخاصّة في عصرنا، عصر التخصص الدقيق. أما الذي يعرف في الدين والسياسة، والعلوم والفنون، والشؤون الاقتصادية والعسكريّة، ويفتي في كل شيء، فهو في الحقيقة لا يعرف شيئاً.

٣ - القدرة على نقد الذات، والاعتراف بالخطأ، والاستفادة منه، وتقويم تجارب الماضي تقويمًا عادلاً، بعيداً عن النظرة «المنقبيّة» التي تنظر إلى الماضي على أنّه كله مناقب وأمجاد! والنظرة التشاؤميّة التي تعتبره كله أخطاء ومثالب!

٤ - استخدام أحدث الأساليب، وأقدرها على تحقيق الغاية، والاستفادة من تجارب الغير، حتّى من الخصوم، فالحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحقّ بها، والانتفاع بالعلم الحديث والتكنولوجيا العصرية وما تقدّمه من تسهيلات وإمكانات هائلة.

(١) رواه البلاذري في أنساب الأشراف (٢/٢٧٤)، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، نشر دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٥ - إخضاع كل شيء - فيما عدا المسلّمات الدنيّة والعقليّة - للفحص والاختبار، والرضا بالنتائج كانت للإنسان أو عليه.

٦ - عدم التعجل في إصدار الأحكام والقرارات، وتبني المواقف، إلا بعد دراسة متأنية، مبنية على الاستقراء والإحصاء، وبعد حوار بناء، تظهر معه المزايا، وتنكشف المآخذ والعيوب.

٧ - تقدير وجهات النظر الأخرى، واحترام آراء المخالفين في القضايا ذات الوجوه المتعددة، في الفقه وغيره، ما دام لكلّ دليله ووجهته، وما دامت المسألة لم يثبت فيها نصّ حاسم يقطع النزاع. ومن المقرر عند علمائنا: أن لا إنكار في المسائل الاجتهادية. إذ لا فضل لمجتهدٍ على آخر، ولا يمنع هذا من الحوار البناء، والتحقيق العلمي النزيه في ظل التسامح والحب.

الحركة الإسلامية بالأمس:

لقد قامت الحركة الإسلامية الحديثة في العالم العربي منذ بضعة وأربعين عامًا. وقد جمعت كل العناصر اللازمة للحركة الناجحة، من التجميع والتنظيم والتخطيط، ولم تكن في نشأتها عفوية ولا عاطفية، كما ظنّ بعض الإخوة المخلصين. فإنّ الذي يطلع على نظمها الأساسية، ويقرأ رسائلها ونشراتها ويصغي إلى المؤسسين من أعضائها، يؤمن بأنّها كانت على قدر كبير من حسن التخطيط والتنظيم، وعبقريّة البناء و«التصميم» وأنّها بهرت القريب والبعيد بذلك، وأنّها كانت تعرف أهدافها، وتعرف طريقها. ولكن ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه، ولا كل ما يُخطّط له يقدر على تنفيذه، وحسب المؤمن أن يفكر

ويجتهد وينوي ويعمل، أما النتائج فحسابها إلى الله، ولكل امرئ ما نوى، ولكل مجتهد أجره.

ولقد أدّت الحركة الإسلامية خدمات جُلّى، وخلقت صحوة في العالم الإسلامي كله، وأعدت للناس الثقة بالإسلام، وربّت عشرات الألوف من الشباب الواعين المخلصين الذين وصفوا بأنّهم «رهبان الليل وفرسان النهار» وصحّحت مفاهيم طالما شاعت بين المسلمين، وشوّّعت جمال الإسلام، وقَدّمت للمكتبة الإسلامية ثروة طائلة في العقيدة والتشريع والأخلاق، وفي كل جوانب الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية.

وكان بجوار مداد العلماء، دماء الشهداء التي روت بها أرض النبوات «فلسطين» التي تبنت قضيتها، يوم لم يكن يعي أكثر العرب شيئاً عن حقيقة قضية فلسطين، فهناك تعلّم هذا الشباب «صناعة الموت» كيف يموت في سبيل الله، وكيف يميت أعداء الله. ودماء أخرى روت ضفاف القناة في مقاومة الاحتلال الأجنبي، ودماء زكية غيرها ذهبت في مقاومة الطغيان^(١)، يوم حنى الأكثرون رؤوسهم له خوفاً، وسار كثيرون في ركابه طمعاً!

ولولا أنّ الحركة أثبتت وجودها بالفعل قبل القول، ما تألّب الأعداء

(١) مثل دماء الشهداء: عبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، ويوسف طلعت، وإبراهيم الطيب، وسيد قطب، وعبد الفتاح إسماعيل، ويوسف هواش، وغيرهم ممن نصبت لهم المشانق بعد محاكمات سيكشف التاريخ عن مآسيها عن قريب، ومثل دماء بضع وعشرين قتلوا برصاص حراسهم في «ليمان طره» في وضح النهار، وعشرات آخرين قتلوا تحت السياط ودفنوا سرّاً في ظلمات الليل. ولا أدري لماذا لم تثر قضاياهم بصورة واضحة، ضمن قضايا التعذيب حتى اليوم؟!

عليها وأحاطوا بها من كلِّ جانب، وحرَّكوا عملاءهم هنا وهناك، لينزلوا بها ضربات دامية، ومحناً قاسية، سيقشعر العالم لهولها يوم يكتبها التاريخ، وسيكتبها - عن قريب - إن شاء الله^(١).

وليس معنى هذا أنَّ الحركة سليمة من العيوب، خالية من المآخذ، كلاً.. فلا شكَّ أنَّ كثيراً من المآخذ والمعوقات التي جعلناها معوقات من داخل الحركة. قد أصابها شيء منها بقدر ما، يختلف من معوق لآخر، ولا ريب أنَّ الحركة تحاول التغلب على المعوقات وتلافي أسباب الضعف والانكماش، وتجاهد للأخذ بأسباب القوة والنمو، حريصة على أن يكون يومها خيراً من أمسها، وأن يكون غدها خيراً من يومها، ومن سار على الدرب وصل، إذا صلحت النيَّة، وصدقت العزيمة.

الحركة الإسلامية غداً.. ملامحها وقسماتها:

أكتفي هنا بأن أضع خطوطاً عريضة، هي بمثابة الملامح والقسمات المعبرة عن وجه الحركة الإسلامية المنشودة، المرجوة لغد الأُمَّة الإسلامية، كما أتصوَّرها، وهي تأكيد وتفریع للمعاني التي ذكرتها في هذا الفصل:

(١) ما ذكرناه هنا مجرد إشارات ورموز لما قدَّمته الحركة الإسلامية الحديثة والتفصيل يحتاج إلى كتاب، بل كتب. وللأسف لم يكتب تاريخ الحركة الإسلامية إلى اليوم كتابة علمية منظمة، وهذا مما يؤخذ على رجالها، ويمكن الرجوع لشيء من هذا التاريخ في مثل: مذكرات الدعوة والداعية للشهيد حسن البنا، والإخوان المسلمون في حرب فلسطين.. والمقاومة السرية في قناة السويس للأستاذ كامل الشریف، والإخوان والمجتمع المصري للأستاذ شوقي زكي، والإسلام فكرة وحركة وانقلاب للأستاذ فتحي يكن، والإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة للدكتور إسحاق الحسيني.

١ - أن تعمل وتحافظ وتحرص على تقوية الرابطة بين أبنائها، فكريًا بتنمية المفاهيم المشتركة، وروحيًا بتعميق معنى الأخوة في الله، وأخلاقيًا بتثبيت فضائل التسامح وخفض الجناح، وترك المراء، والتماس الأعذار، وتقدير وجهات نظر الآخرين وأشباهاها، وإداريًا بوحدة التنظيم ووحدة القيادة.

٢ - أن تغلب العمل للحاضر، والتخطيط للمستقبل، على التغني بأمجاد الماضي السارة، أو اجترار آلامه المحزنة، فهذا وذاك عمل سلبي لا يؤتي ثمرة، ولا يجيء بنتيجة.

كُنْ ابْنٌ مِّنْ شِئْتِ وَاکْتَسِبْ أَدَبًا يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
إِنَّ الْفَتَى مَن يَقُولُ: هَآنَذَا لَيْسَ الْفَتَى مَن يَقُولُ: كَانَ أَبِي^(١)

٣ - أن تهتمَّ بالتربية والتكوين، على قدر اهتمامها بنشر الفكرة، فلا يكفي أن تضمَّ إليها أعدادًا هائلة، لا تقدر على توجيههم وحسن تربيتهم، ولهذا يجب عليها أن تهتم بتربية الطليعة المؤمنة الواعية التي يبرز منها القادة والموجهون والمربون.

ومعنى هذا أن تعنى بالكيف قبل الكم، وباللباب لا بالقشور فربَّ قِلَّةٍ واعية مؤمنة خير من كثرة كغشاء السيل، فليس المهم هو العدد إذن، بل انتقاء العناصر الجيدة، والمعادن الأصيلية، وفي الحديث: «الناس كإبل مائة، لا تجد فيها راحلة»^(٢).

(١) ينسب لسيدنا علي بن أبي طالب، كما في الديوان المنسوب إليه ص ١٦، جمع عبد العزيز الكرم، ط ١، ١٩٨٨ م.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٧)، عن ابن عمر.



٤ - أن تربي أبناءها على أن العمل للإسلام هو في ذاته واجب ديني وعبادة وقربة إلى الله، أثمر في الدنيا نصرًا ونجاحًا أم لم يثمر، وأن المطلوب من المسلم هو السعي والجهاد لا النجاح والانتصار، وأن الله لن يسأل الناس يوم القيامة لماذا لم تنتصروا؟ بل: لماذا لم تعملوا؟

على أن انتشال الفرد المسلم من براثن الجاهلية الحديثة هو في نفسه غاية يسعى إليها، وكسب يحرص عليه، فلا يهون أحد من شأنه، ولا يقولن في يأس: وماذا وراء ذلك؟!

٥ - أن تعلم أبناءها أن الصدع بما أمر الله والجهار بالدعوة في وجوه المخالفين والمعاندين، والثبات على العقيدة والفكرة، والصبر على طول الطريق، وشدة وعثائه، وكثرة قطاعه: من أعظم الجهاد في سبيل الله، وهو الذي نزل فيه أول سورة العنكبوت:

﴿الْم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وآخر سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وهو الذي أمر به الرسول في سورة الفرقان المكية: ﴿فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]. سمّاه الله جهادًا كبيرًا، حتّى لا يهون أحد من قدره في يوم من الأيام.

٦ - أن تحاول ملء الفراغ عند أفرادها، بما ينفعهم وينفع بالتالي حركتهم معهم، وأن تشغل كل فئة بما يناسبها وكل فرد بما يلائمه، ولتحذر من طول الفراغ فإنّه مُملّ وقاتل، ولا يؤدّي إلّا إلى اليأس والانقطاع، أو الميل والانحراف. إنّ الفراغ كالصحة، كلاهما نعمة

يجب أن تُقابَلَ بالشكر، وإنْ غفل جمهور النَّاس عنهما، وفي حديث البخاري: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»^(١). وشكر هذه النعمة أنْ يُستغل الفراغ في علم نافع أو عمل صالح، يرضى عنه الله، وينتفع به الناس، وإلا استحال الفراغ إلى نقمة، وخصوصًا عند الشباب بما لديهم من فائض طاقة وحيوية، وفي هذا قال أبو العتاهية في أرجوزته:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيْ مَفْسَدَةٌ^(٢)

٧ - أنْ تضع كلَّ فرد في موضعه وفقًا لموهبته وخبرته، حتَّى يحسن أداء دوره فيه، ولا تحقر من دور امرئ ما، مهما ضؤل حجمه أو صغر شأنه، فإنَّما لكل امرئ ما نوى، والله لا ينظر إلى الصور بل إلى القلوب. وفي عهد النبي ﷺ كان لخالد بن الوليد مكانه، ولحسن مكانه، ولأبي هريرة مكانه، الأوَّل ينصر الإسلام بسيفه، والثاني بشعره، والثالث بعلمه، وكلٌّ مجاهدٌ في سبيل الله.

٨ - ألاَّ تضخِّم جانبًا على حساب جانب أو جوانب أخرى، بل توازن بينهما بالمعروف، وتعطي كلَّ جانب حقه، بلا إسراف ولا تقتير، فلا تهمل التربية الفكرية من أجل التربية الروحية، ولا الروحية من أجل الفكرية، ولا تغفل التوعية السياسية، بسبب الإعداد البدني أو الجهادي، ولا العكس، ولا تقصِّر في التفقيه الشرعي من أجل التثقيف الحركي، ولا العكس. وهكذا في كل النواحي.

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٢)، عن ابن عباس.

(٢) وهي أرجوزة ذات الأمثال، جمع فيها الأمثال السائرة، انظر: ديوانه ص ٤٩٥، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.



٩ - أن يعلو فيها صوت العقل على صوت العاطفة، وحُجّة الفقيه على جلجلة الخطيب، ومنطق المفكرين على مشاعر المتحمّسين، وأن يتقدم فيها مَنْ هو أنضج فكراً، لا مَنْ هو أطول لساناً.

وأن تزن أعمالها وتصرفاتها كلها وفقاً لأحكام الشرع ومصلحة الفكرة، لا استجابة لشعور وقتي، ولا إرضاءً لحماسة العامة، أو أهواء الخاصة. فكل موقف تتبنّاه الحركة، وكلُّ عمل تقوم به، وكلُّ قرار تتخذه، لا بدّ أن يكون مستنداً إلى أسس شرعيّة، من نصوص الكتاب والسنة، وما أرشداً إليه من أدلّة معتبرة، كالقياس والمصالح المرسلّة، وسد الذرائع، ومراعاة العرف، بما لها من شروط وقيود.

١٠ - أن تُقلع عن التشديد والتزمت، وتتبنّى جانب التيسير على النَّاس في التشريع والأحكام والآداب الاجتماعيّة، وخاصّة فيما عمّت به البلوى عملاً بحديث: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(١)، وبسنة النبي ﷺ: «أَنَّهُ مَا خَيْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا»^(٢).

١١ - أن تعمل على تحديد «المفاهيم» وضبط مدلول الكلمات السيّالة، فلا تدع أنصارها ولا خصومها يضعون لها تفسيرات شتّى عند أنفسهم، ما بين مُوسّع ومُضيق، ثمّ ينسبونّها إليها، مثل مفهوم «الجاهليّة» ومفهوم «القوميّة» أو «الوطنيّة» أو «الحرّيّة» أو «الحاكميّة» وغيرها. إنَّ ترك هذه المفاهيم وأمثالها دون توضيح وتحديد ليس وراءه إلّا البلبلة والحيرة والتذبذب بين شتّى الاتجاهات المتناقضة، ما بين غالٍ مسرف ومفرطٍ مقصّر.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٩)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٣٤)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، عن عائشة.

١٢ - أن تتخذ «الرفق» لها شعارًا سواء في دعوة المحايدين، أم في مناقشة الخصوم، أم في معاملة الأنصار، متخذة من الرسول الأعظم أسوة حسنة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. وما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا دخل العنف في شيء إلا شانه، والله يحب الرفق في الأمر كله، مع عدم إخلال ذلك بالحزم الواجب، والشدة في موضع الشدة.

١٣ - أن تتجنب الثنائية في القيادة والعمل، فلا تسمح بوجود قائد سري، وآخر علني، ونظام في النور، وآخر تحت الأرض، وقادة رسميين ظاهرين في «الفترينة» وآخرين أخفياء يعملون في «الورشة»! وإنما جماعة واحدة، وقيادة واحدة، وعمل مشترك، يتحمل الجميع مسؤوليته.

١٤ - أن تخلع المنظار الأسود حين تنظر إلى الأفراد والمجتمع من حولها، فلا تسارع إلى اتّهامهم بالكفر، وإخراجهم من الإسلام، بأمور قابلة للتأويل، محتملة للجدال، والأصل: تقديم حُسن الظن، وحمل حال المسلم على الصلاح، وإبقاؤه على أصل الإسلام ما وُجد إلى ذلك سبيل. وأكثر الذين يُتّهمون بالكفر هم في الحقيقة جهّال يجب أن يتعلموا، لا مرتدّون يجب أن يُقتلوا، وقد عصمت دماءهم وأموالهم «شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله» وحسابهم بعد ذلك على الله.

أمّا الذين شرحوا بالكفر صدرًا، وأعلنوه جهرة، فيجب أن يوضعوا حيث وضعوا أنفسهم، و﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

١٥ - ألا تستعجل الطريق إلى أهدافها، وتحاول قطف الثمرة قبل نضجها؛ فالعجلة من الشيطان، وهي لا تؤدي إلى خير. وعليها أن تعتصم بالصبر واليقين، فهما جناحا الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. وفي الحديث: «الأناة من الرحمن، والعجلة من الشيطان»^(١).

ومن ذلك: ألا تتعجل الاصطدام بالسلطات، لا لمجرد حب السلامة، وطلب العافية، ولكن لتوفير طاقات أبنائها، وتجنبهم الشدائد ما أمكنها، إلا ما فرض عليها فتحمّله وهي صابرة محتسبة، وفي الحديث: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموه فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»^(٢). وكان عمر رضي الله عنه لا يحب المجازفة بالمسلمين في حرب يخشى عواقبها، حتى قال يوماً: لمُسْلِمٌ واحد أحب إليّ من الرُّوم وما حَوَتْ^(٣)!

١٦ - أن تجانب الغلو في كلِّ أمورها، فقد جاء في الحديث: «إياكم والغُلُوَّ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغُلُوُّ»^(٤).

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠١٢)، وقال: هذا حديث غريب. وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد المهيم بن عباس بن سهل وضعفه من قبل حفظه. والطبراني (١٢٢/٦)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٣٠٣)، عن سهل بن سعد.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، كلاهما في الجهاد والسير، عن ابن أبي أوفى.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٩٤/٧ - ٩٥).

(٤) رواه أحمد (١٨٥١)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، ثلاثهم في الحج، والحاكم في الصوم (٤٦٦/١)، وصحّحه على شرطهما، وصحّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٤٥٥)، عن ابن عباس.

فلا تغلو في الحبِّ إذا أحبَّتْ، ولا في الكُره إذا كرهت، ولا تضيفي على مَنْ تحبُّ قداسة الملائكة، ولا تلقي على مَنْ تكره نجاسة الشياطين، ولا تعرف للأول سيئة، ولا تذكر للثاني حسنة، فهذا ضد العدل الذي أمر به الإسلام مع العدو والقريب.

ومثل ذلك المدح والذم، والإقبال والإعراض، والنظر إلى النفس، وإلى الغير.

ومن ذلك: ألاَّ تبالغ في تقدير طاقاتها، تضخيمًا وتهويلًا، فتغتر وتطغى، أو تصغيرًا وتهوينًا، فتياس وتفتري، ورحم الله امرأً عرف حدَّه، فوقف عنده.

١٧ - أنْ تتعصَّب للمبادئ لا للأشخاص، وللحقائق لا للأشكال، ولل فكرة لا للجماعة، وللمسمَّيات لا للأسماء.

١٨ - أنْ تقوِّم تجاربها ومواقفها، وتستفيد من أخطائها، ومن تجارب كل الحركات الإسلامية المعاصرة أو السابقة، ولا حَرَج على العامل أنْ يخطئ ما دام خطؤه بعد تحرُّ واجتهاد، إنَّما الحَرَج أنْ يتمادى في الخطأ ويصرَّ عليه، ولا يستمع إلى نصيحة أو تنبيه، ومعنى هذا: أنْ يكون عندها القدرة على نقد ذاتها، وإعادة النظر في خططها، وترتيب أهدافها، وتطوير وسائلها وتحسينها، أو تغييرها إذا اقتضى الأمر. ولا تكتفي بالتقليد وإبقاء القديم على قَدَمه، وإغلاق باب الاجتهاد على مَنْ يقدرُون على التفكير والتجديد، فليس وراء هذا إلَّا الجمود، وليس وراء الجمود إلَّا الموت.

١٩ - أنْ ترحَّب بكل نقد بَنَاء مخلص، ولو جاء من خصم لها، فقد تصحَّح به خطأ، أو تسدُّ به فجوة، أو توقف به غلوًا، أو تمنع به انحرافًا، كما قال الشاعر:

عِدَاتِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ فَلَا بَاعَدَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا
فَهُمْ بَحْثُوا عَنْ زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي، فَارْتَكَبْتُ الْمَعَالِيَا^(١)

٢٠ - أَنْ تَتَّجِهَ إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالْبِنَاءِ، بَدَلَ السَّلْبِيَّةِ وَالْهَدْمِ، شَعَارَهَا:
نَبْنِي وَلَا نَهْدِمُ، نَجْمَعُ وَلَا نَفَرِّقُ، نَقْوِي وَلَا نَضْعِفُ. وَقَدْ قِيلَ: خَيْرٌ مِنْ
أَنْ تَلْعَنَ الظَّلَامَ أَلْفَ مَرَّةٍ، أَضِيءُ شَمْعَةً وَاحِدَةً.

٢١ - أَنْ تَغْسَلَ صَدْرَهَا مِنَ الضَّغِينَةِ وَالْحَقْدِ، وَلَوْ عَلَى خَصُومِهَا، وَأَنْ
تَعَامَلَ النَّاسَ بِالسَّمَاحَةِ وَالْحَبِّ، حَتَّى يَفْهَمَ النَّاسُ أَنَّ أَبْنَاءَهَا أَصْحَابُ
رِسَالَاتٍ لَا طَلَابَ ثَارَاتٍ.

٢٢ - أَنْ تَتَبَنَّى مَوْقِفَ التَّسَامُحِ وَالْوُدِّ مَعَ الْمُخَالَفِينَ فِي الرَّأْيِ،
وَتَتَعَاوَنَ مَعَ كُلِّ عَامِلٍ لِلْإِسْلَامِ غَيْرِ عَلَيْهِ، وَمَتَّخِذَةً شَعَارَهَا قَاعِدَةَ الْمَنَارِ
الذَّهَبِيَّةِ: «نَتَعَاوَنُ فِيمَا اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ، وَيَعْذِرُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ»^(٢).

٢٣ - أَلَّا تَسْتَهِلَكُهَا الْمَعَارِكُ الْمُؤَقَّتَةُ، وَالْمَسَائِلُ الْجَانِبِيَّةُ، وَدَوَّامَةُ
السِّيَاسَةِ الْيَوْمِيَّةِ وَالْخِلَافَاتِ الْحَزْبِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي، بَلْ تَوْفِرْ جَهْدَهَا
وَوَقْتُهَا وَطَاقَتَهَا لِلْمَعَارِكِ الْمَصِيرِيَّةِ، وَالْقَضَايَا الْكَبِيرَةِ.

٢٤ - أَنْ تَقْدِّرَ لِكُلِّ ذِي جَهْدٍ جَهْدَهُ، وَتَشْكُرَ لِكُلِّ ذِي جِهَادٍ فَضْلَهُ، مِنْ
فَرْدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ، مِمَّنْ سَبَقُوهَا أَوْ عَاصَرُوهَا، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا أَنْصَارًا لَهَا،
فَإِنَّ مِنْ خِصَالِ الْإِيمَانِ الْإِنْصَافَ مِنَ النَّفْسِ، وَالْعَدْلَ وَلَوْ مَعَ الْعَدُوِّ:
﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَتَانُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨].

(١) هو أبو حيان الأندلسي، كما في الوافي بالوفيات للصفدي (١٨٠/٥)، تحقيق أحمد الأرناؤوط
وتركي مصطفى، نشر دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

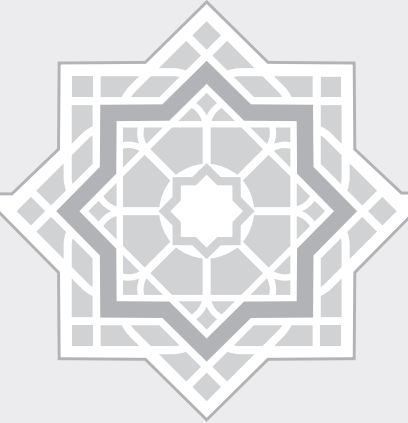
(٢) انظر: مجلة المنار (١٨٨/١٧)، نشر دار المنار، القاهرة.

هذه - كما قلت - ملامح وقسمات للحركة الإسلامية المنشودة، ذكرتها على وجه الإشارة والإجمال، حتى يسر الله لي التوضيح والتفصيل فيما بعد أو يتولاه من هو أقدر مني على ذلك من دعاة الحركة ومفكراتها. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.



فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ * أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿	٦، ٥	٦٢
سورة البقرة		
﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾	٨٥	١٠٩
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾	١٠٤	٦٢
﴿صَبَغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾	١٣٨	١٩٣، ٩٠
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾	١٤٣	١٨٢، ١٢٧، ٤٦
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾	١٨٥	١٢٧
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾	١٨٦	١٤٥
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾	٢٠٨	١١٠
﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾	٢٢٠	١٢٨
﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾	٢٥٦	٨٠
سورة آل عمران		
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾	٥	١٣٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَتَبِعُوا مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾	٧	١٠٨
﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾	١٠٣	١٨٤ ، ١٨٣
﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾	١٠٤	٢٣٩
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾	١١٠	١٨٢
﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾	١٥٩	٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٧٨
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾	١٦٤	١٨٣
﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾	١٩٥	٦٤
سورة النساء		
﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾	٥	٦٨
﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾	٢٦ - ٢٨	١٢٧
﴿حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾	٣٥	٦٦
﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾	٥٩	٢٤٢
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾	٦٠ ، ٦١	١٢٨
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾	٦٥	١٢٨
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾	٧١	٩٦
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾	٧٥	٨٣
﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾	١١٤	١٦٤
﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾	١٤٨	١٨٩
﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	١٧٦	١٢٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المائدة		
﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾	٢	٢٣٤، ٨١
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾	٣	٤٧
﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾	٨	٢٨١
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾	٣٨	١٠٠
﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾	٤٤	٨٥
﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾	٤٥	٨٥
﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾	٤٧	٨٥
﴿وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾	٤٩	١٠٩
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٥٠	١٩٠، ١٠٩
﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾	٥٤	٦٣
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخُبْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾	٩١	٦٧
سورة الأنعام		
﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾	٨٩	٦٣
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ﴾	١٥١	٦٩
﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾	١٥٢	٢٨١
﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾	١٥٣	١٦٨
﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رِبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾	١٦١ - ١٦٣	١١٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأعراف		
﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ حُدُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا﴾	٣١	١١٥
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾	٩٦	١٣٢
﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَّهْدُوْنَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَّعْدُلُوْنَ﴾	١٨١	٦٣
سورة الأنفال		
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾	١	١٦٤، ٤
﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذْهَبَ رِيْحُكُمْ﴾	٤٦	٢٦٢
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾	٦٠	٢٠٥، ٩٦، ٧٦ ٢٠٩
﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾	٦١	٨٤
﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ﴾	٦٣، ٦٢	٢٠٢
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ﴾	٧٣	٢٦١، ٢٤٠
سورة التوبة		
﴿يَتَّيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾	٢٨	١٠١، ٦٧
﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾	٣٨	٩٦
﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا﴾	٦٠	٩٢
﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾	٧١	٨٠
﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾	١٠٣	٩٢، ٧١
﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾	١٢٢	٩٦، ٥٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة هود		
﴿يَنُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأُنْبِئُكَ بِمَا تَعْدُنَا﴾	٣٢	٢٥٣
﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾	٨٨	٩
سورة الرعد		
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾	١١	١٤١، ٢٤، ٤
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾	٢٨	١٤٤
سورة إبراهيم		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾	٤	٥٦
سورة الحجر		
﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾	٢٩	٤٩
سورة النحل		
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾	٩٠	١٤٨
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾	١١٢	١٨٨، ١٣٠
﴿أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾	١٢٥	٢٧٨
سورة الإسراء		
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾	٩ - ١١	١٣٤
﴿وَلَا تُبْذَرِ تَبَذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾	٢٦، ٢٧	١١٥
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾	٢٩	١١٥، ٤
﴿وَلَا تَقْنَلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾	٣١	٦٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الكهف		
﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾	١٣	٦٤
سورة طه		
﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾	٧٢	٢٥
﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾	١١٤	٥٥
﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾	١٢٣	١٣٠، ١٢٦
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾	١٢٤	١٣٠
سورة الأنبياء		
﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾	٧	٢٧٠
سورة الحج		
﴿وَلْيَنْصُرِكَ اللَّهُ مِنْ يُنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾	٤١، ٤٠	١٣٢
﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾	٤٦	١٤٤
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ﴾	٧٨، ٧٧	٢٣٤
سورة النور		
﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾	٢٧	٨١
﴿رِجَالٌ لَا نُلْحِمْهُمْ تِجْرَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾	٣٧	١٤٤
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾	٥١	١٢٨
﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾	٦١	٧٧
سورة الفرقان		
﴿فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾	٥٢	٢٧٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴾	٥٩	٢٧٠
﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾	٦٧	١١٥
سورة الشعراء		
﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾	٨٨، ٨٩	١٤٤
سورة القصص		
﴿ إِبْرَاهِيمَ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾	٢٦	٦٨
سورة العنكبوت		
﴿ أَلَمْ * أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾	٢، ١	٢٧٥
﴿ وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾	٦	٢٧٥
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾	٦٩	٢٧٥
سورة الروم		
﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾	٧، ٦	١٣٢
سورة السجدة		
﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾	٢٤	٢٧٩
سورة الأحزاب		
﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾	٣٦	١٢٨
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾	٧٢	٢٥٤
سورة فاطر		
﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾	١٤	٢٧٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة فصلت		
﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾	٣٣	١١٨
سورة الشورى		
﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾	٣٨	٢٤١
سورة الجاثية		
﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾	١٩	٢٦١، ١٠١
﴿هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٢٠	١٠١
سورة الفتح		
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾	٤	١٤٤
سورة الحجرات		
﴿وَلَا يَفْنَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾	٩	١٦٤
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾	١٠	١٦٤، ١٦٢
﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾	١٢	٨١
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾	١٣	١٦٢
سورة ق		
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾	٣٧	١٤٤
سورة الذاريات		
﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾	٥٥	٢٢٦
سورة الطور		
﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾	٢١	٢٧٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الرحمن		
﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾	٤ ، ٣	٨٠
سورة الحديد		
﴿ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾	٧	٧٠
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾	٢٥	٩٥ ، ٤
سورة الحشر		
﴿ كُنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾	٧	٩٩
سورة الجمعة		
﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾	٢	٢٩
سورة الطلاق		
﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾	٣ ، ٢	١٣٢
﴿ وَكَاتِبَيْنَ مِنْ قَرْبَةٍ عَنِتَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا ﴾	٩ ، ٨	١٣٠
سورة المالك		
﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾	١٤	١٤٣ ، ١٢٨
سورة نوح		
﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾	٧ - ٥	٢٥٣
﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾	١٢ - ٨	٢٥٣
﴿ وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾	١٢	٦٨
﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾	٢٧	٢٥٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الجن		
﴿وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾	١٦	١٣٢
﴿وَأَن الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾	١٨	٥٣
سورة المزمل		
﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾	٥	٢٥٤
سورة الضحى		
﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾	٨	٦٨
سورة العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾	١	٥٤
سورة البينة		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾	٥	٢٦٢
سورة العصر		
﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	١ - ٣	٥٨ ، ٥٧

* * *





فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



رقم الصفحة	الحديث
	أ
٢٢١	إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تودّع منهم
٢٦٤	إذا رأيت الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكهم
٢١٧، ٦٨	إذا ضيّعت الأمانة فانتظر الساعة، قيل: وكيف إضاعتها؟
٢٤٠	إذا كنتم ثلاثة فأمرّوا أحدكم
١١٦	استغفرت القصعة للاعقها
٧١	أعطى العزب حظًا والآهل (المتزوج) حظين
٧٠	أعطى في الغنائم الرجل سهمًا، والفارس سهمين
١٦٤	ألا أدلّكم على أفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟
٢٥	ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله
٧٦	ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي
١٦٢	اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه
٩٥	أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا - يعني: السيف - من عدل عن هذا
٥٧	إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض، حتّى النملة في جحرها
١٤٤	إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم
٢٦٣	إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذي إذا حضروا لم يعرفوا
٢٠٧	أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان



رقم الصفحة	الحديث
٦٩	إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ
١٥	إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعِ مَا شِئْتَ
٧٣	أَنَا أُولَى بِكُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلَوْرَثَتَهُ
١٤٥	أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِ بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي
٢٧٩	الْأَنَاءُ مِنَ الرَّحْمَنِ، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ
٦٣	إِنَّمَا يَأْكُلُ الذَّنْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ
١٦٩	إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي
٢٧٩	إِيَّاكُمْ وَالْعُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ
ب	
١١٣، ٩٠	بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ، وَأَمَرَهُ أَلَّا يَدَعَ قَبْرًا مَشْرُفًا إِلَّا سَوَّاهُ بِالْأَرْضِ
ت	
٧١	تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فَتَرُدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ
ج	
٧٠	جَعَلَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلصَاحِبِهِ سَهْمًا
ح	
٢٦٣، ٢٥٥	حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ
د	
١٦٤، ١٦٣	دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأَمِّ مِنْ قَبْلِكُمْ: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ. وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ
ر	
٢٦٣	رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرِ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ
ط	
٢٦٤	طَوْبِي لِعَبْدٍ أَخَذَ بَعْنَانَ فَرَسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسَهُ مَغْبِرَةً قَدَمَاهُ



رقم الصفحة	الحديث
ق	
٢٦٧	قَبْلَ فِي مَعَاهِدَةِ الْحَدِيثِ أَنْ يَمْحُو: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»
ك	
٧٢، ٥	كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ
٤٥	كُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا
ل	
٢٧٩	لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، وَلَكِنْ إِذَا لَقِيتُمُوهُ فَاصْبِرُوا
٧٠	لَا تَحُلْ الصَّدَقَةَ لَغْنِيٍّ، وَلَا لَذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ
١٦٣	لَا تَدَابَرُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا
١٦٣	لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كَفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ
١١٥	لَا تَسْرِفْ وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ
٢٦٥	لَا تَلْعَنَهُ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
٥٣	لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ
٦٣	لَا صَلَاةَ لِمَنْفَرِدٍ خَلْفَ الصَّفِّ
٢٠٤	لَا، مَا صَلَّوْا
٩٤	لَحَدِّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمَطَّرُوا ثَلَاثِينَ صَبَاحًا
١١٣	لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ
١٦٨	لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارُهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ
٢٥٥	لِلْعَامِلِ فِي مِثْلِ هَذَا الزَّمَنِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَ الْعَامِلِينَ قَبْلَهُ
٢٤٥	لَنْ يَفْلَحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً
م	
٢٧٧	مَا خَيْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا
٢٤٣	الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ



رقم الصفحة	الحديث
١٠٥	مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ
٨١	مَنْ اسْتَمَعَ حَدِيثَ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، ضُبَّ فِي أُذُنِهِ الْآنُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
٧٧	مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ نَسِيَهُ، فَهِيَ نِعْمَةٌ جَعَلَهَا
٧٨	مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
٧٧	مَنْ لَقِيَ اللَّهَ بِغَيْرِ أَثَرٍ مِنْ جِهَادٍ لَقِيَ اللَّهَ وَفِيهِ ثُلْمَةٌ
٢٣٣	مَنْ لَقِيَ اللَّهَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ لِإِمَامٍ، مَاتَ مِيتَةَ جَاهِلِيَّةٍ
٩٥ ، ٧٧	مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يَحْدُثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ
٢٠٩	الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ
ن	
٢٧٤	النَّاسُ كِبَابِلُ مَائَةٍ، لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً
٦٨	نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ
٢٧٦	نَعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ
هـ	
١٦٨	هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا، وَخَطٌّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ
و	
١٠٠	وَإِيمَ اللَّهِ، لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا
١١٥	وَمَنْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ أَسَاءَ وَتَعَدَّى وَظَلَمَ
ي	
٨١ ، ٥	يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بَلْسَانَهُ وَلَمْ يَفْضِ الْإِيمَانَ إِلَى قَلْبِهِ
٦٣	يُذِ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَدَّ شَدًّا فِي النَّارِ
٢٧٧	يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا

فهرس الموضوعات

- ٤. من الدستور الإلهي للبشرية.....
- ٥. من مشكاة النبوة الخاتمة.....
- ٧. مقدمة.....
- ❖ ضرورة التغيير.. الحل الإسلامي هو البديل..... ١١
- ١٢. فشل في المجال الاقتصادي.....
- ١٣. فشل في مجال الحرّية والطمأنينة للشعب.....
- ١٤. فشل في المجال العسكري.....
- ١٦. فشل في المجال الأخلاقي.....
- ١٧. فشل في المجال الرّوحي.....
- ١٨. فشل في المجال العربي والإسلامي.....
- ٢١. مآخذ «الميثاق» على الحكم الوطني المصري بعد ثورة ١٩١٩م.....
- ٢١. الأمر الأوّل - إهمال التغيير الاجتماعي.....
- ٢٢. الأمر الثاني - الغفلة عن رابطة العروبة.....
- ٢٢. الأمر الثالث - الانخداع بالاستقلال الاسمي.....
- ٢٣. ثورة ١٩٥٢م لم تستفد من أخطاء ثورة ١٩١٩م.....
- ٢٤. حقيقة التغيير الاجتماعي وكيف يتم.....



- ٢٨..... الصلة العميقة الأصيلة بين العروبة والإسلام
- ٣٠..... مقومات القوة لدى العالم الإسلامي
- ٣٠..... أولاً - الوضع الاستراتيجي للعالم الإسلامي
- ٣١..... ثانيًا - وضع المسلمين من الناحية العددية عامل رئيسي له أهميته الخاصة
- ٣١..... ثالثًا - ما يشغل المسلمين من مركز هام في دنيا السياسة أيضًا
- رابعًا - إنَّ الوضع الاقتصادي للعالم الإسلامي غير مدروس دراسة صحيحة
من قِبَلنا، ويجري غالبًا بموجب نظريات سطحية، وآراء مغلوبة،
يشير بها علينا مَنْ تتعارض مصالحهم مع مصالحنا
- ٣١.....
- ٣٢..... خامسًا - العنصر الإنساني
- ٣٣..... سادسًا - التراث الروحي والحضاري
- ٣٦..... حقيقة الاستقلال ومضمونه
- ٣٩..... محاولة واهمة لوضع نظرية شاملة للثورية العربية
- ٤٣..... تعقيب على تحليل الدكتور بدوي
- ٤٤..... ضرورة التغيير والبحث عن بديل
- ٤٤..... أُمّتنا ترفض الحل الشيوعي شكلاً وموضوعاً
- ٤٧..... الحلّ الإسلامي هو البديل
- ❖ معالم الحلّ الإسلامي..... ٤٨
- ٤٨..... ماهية الحلّ الإسلامي
- ٤٩..... في الناحية الروحية والأخلاقية
- ٥٤..... في الناحية التربوية والثقافية
- ٦٢..... في الناحية الاجتماعية
- وبحسبنا أن ننبّه في هذا الجانب - مع أهميته القصوى - على النقاط التالية..... ٦٥
- ٦٨..... في الناحية الاقتصادية



- ٧٥..... في الناحية العسكرية
- ٧٨..... في الناحية السياسية «الداخلية والخارجية»
- ٧٨..... في السياسة الداخلية
- ٨٢..... في السياسة الخارجية
- ٨٤..... في الناحية التشريعية
- ٨٧..... ❖ شروط الحلّ الإسلامي
- ٨٨..... ❖ ١ - ضرورة الدولة المسلمة
- ٩٠..... حاجة الإسلام إلى دولة
- ٩٧..... ❖ ٢ - الاستمداد في مصادر الإسلام
- ١٠٤..... متى يجوز لنا الاقتباس من غيرنا؟ وكيف؟
- ١٠٩..... ❖ ٣ - حل متكامل لا يقبل التجزئة
- ١١٨..... ❖ ٤ - لا بدّ من عنوان الإسلام
- ١٢٣..... ❖ ٥ - أن يكون الإسلام غاية لا أداة ومطيّة
- ١٢٥..... ❖ مكاسبنا من وراء الحلّ الإسلامي
- ١٢٧..... ❖ ١ - تحقيق إيماننا ووجودنا الإسلامي
- ١٣٣..... ❖ ٢ - إقامة التوازن في حياتنا
- ١٤٠..... ❖ ٣ - علاج المشكلات من جذورها
- ١٤٧..... الحل الأول هو الحل الأخير
- ١٤٩..... ❖ ٤ - تكوين الإنسان الصالح
- ١٥٤..... ❖ ٥ - تحقيق الاستقرار والطمأنينة في حياة الأمة



- ❖ ٦ - حفظ وَحْدَةِ الْأُمَّةِ وَالْإِخَاءِ بَيْنَ أُنْبَاءِهَا ١٦١
- ❖ ٧ - جمع كلمة الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ١٦٧
- ❖ ٨ - تجديد رُوحِ الْحَيَاةِ وَالْقُوَّةِ فِي الْأُمَّةِ ١٧٣
- ❖ ٩ - تحقيق الْأَصَالَةِ وَالْإِسْتِقْلَالَ لِلْأُمَّةِ ١٨١
- ❖ ١٠ - الْحَلُّ الَّذِي جُرِّبَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَاتَى أَطْيَبَ الثَّمَرَاتِ ١٨٣
- ❖ السَّبِيلُ إِلَى تَحْقِيقِ الْحَلِّ الْإِسْلَامِيِّ ١٩١
- أولاً: سبيل القرارات الحكوميّة ١٩٢
- ١ - مدلول «مجتمع إسلامي» ١٩٣
- ٢ - مدى التخريب الذي أحدثه الاستعمار في بلاد الإسلام ١٩٤
- ٣ - مدى قدرة الحاكم على تغيير المجتمع ١٩٧
- ٤ - مدى إرادة الحكّام الحاليين لتطبيق الإسلام ١٩٩
- ٥ - خطورة قيام مجتمع إسلامي حقيقي على القُوَى الْعَالَمِيَّةِ ٢٠١
- ثانياً: سبيل الانقلابات العسكريّة ٢٠٣
- مستند أصحاب هذا الرأي ٢٠٣
- مناقشة هذا الرأي ٢٠٥
- ومن هذه الأخطار أو الأضرار ٢٠٧
- ظاهرة الانقلابات العسكريّة ٢١٤
- ❖ ثالثاً: سبيل الوعظ والإرشاد ٢٢٦
- الوعظ والإرشاد لا يكفي ٢٢٦
- ❖ رابعاً - سبيل الخدمات الاجتماعيّة ٢٣١
- سبل العمل الاجتماعي ٢٣١



٢٣٢..... اتجاهاً متباينان في تقدير الخدمات الاجتماعية

٢٣٤..... الاتجاه الثاني ومناقشته

٢٣٦..... أمور يجب أن تُراعى

٢٣٨..... ❖ ضرورة الحركة الإسلامية

٢٣٨..... ضرورة العمل الجماعي

٢٤٠..... ضرورة التنظيم

٢٤٠..... القيادة المسؤولة

٢٤١..... متى تكون القيادة شرعية؟

٢٤٤..... الجندية المطيعة

٢٤٥..... ضرورة التخطيط

٢٤٨..... عناصر التخطيط المرجو

٢٥٠..... ما لا يدخل في التخطيط

٢٥١..... التخطيط والقدر

٢٥٣..... مهمة الحركة الإسلامية

٢٥٥..... متى تنجح الحركة الإسلامية؟

٢٥٥..... ١ - جيل مسلم

٢٥٨..... ٢ - قاعدة جماهيرية إسلامية

٢٥٩..... ٣ - التغلب على المعوقات

٢٥٩..... معوقات من جهة الشعب

٢٦٠..... من أهم هذه المعوقات

٢٦٠..... معوقات مادية من جهة القوى المناوئة

٢٦١..... معوقات من داخل الحركة نفسها

٢٦١..... أ - اختلاف الكلمة



- ب - حبُّ الدنيا ٢٦٢
- ج - حبُّ الذات ٢٦٣
- د - العزلة عن قُوى الشعب ٢٦٤
- هـ - الجمود ٢٦٦
- ضعف التنظيم والتخطيط ٢٦٩
- فقدان الروح العلميّة ٢٧٠
- الحركة الإسلاميّة بالأمس ٢٧١
- الحركة الإسلاميّة غدًا.. ملامحها وقسماتها ٢٧٣
- فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٢٨٤
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٢٩٤
- فهرس الموضوعات ٢٩٨

* * *



فهرس كتب المجلد

١٢٢- الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا ٥

١٢٣- الحل الإسلامي فريضة وضرورة ٤٥١

* * *

